

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190469

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ^ع ۸۹۲۶۷۰۴ . Accession No. ۱۵۵۷۱

Author (۲۰ صبر صبر ۱۵۶۶۱

Title فہرست صبر صبر

This book should be returned on or before the date last marked below.

مختارات عزى زبدان

فى

فلسفة الاجتماع والعمران
تحوى مباحث أخلاقية وحكمية
ونسائية وسياسية وأدبية
الخ... الخ...

الجزء الثالث

.....

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر

سنة ١٩٢١

القسم الرابع

مقالات عبرانية وتهذيبية

علموهم وكفى

ان كل الصيد في جوف الفراء^(١)

في مصر اليوم ضوضاء صحافية ناشئة عن نهضة في النفوس غايتها رفع مصر الى مصاف الامم الدستورية والدول المستقلة . فبعضها تطلب جلاء الانكليز والبعض الآخر يطلب تشكيل مجلس نواب وآخرون يطلبون تقديم الوطنيين في المناصب الكبرى وبعضهم يطلب توسيع دائرة التعليم وجعل اللغة العربية قاعدة التدريس في المدارس المصرية . واختلفوا في الاستقلال وطرق طلبه بين أن يكون بالعنف أو بالحسنى عاجلاً أو آجلاً وقد كتبوا في كل من هذه المطالب مقالات ضافية ونباحوا وتجادلوا وتخاصموا - ولو احسنوا لجموا كل قواعم في طلب واحد يفنيهم عن سائرها لانه أساسها كلها وبدونه لا يتيسر الوصول اليها نعي « التعليم »

فسواء اردنا تشكيل مجلس نواب مع بقاء الاحتلال أو بدونه أو اردنا التقدم في المناصب الكبرى وسواء طلبنا الاستقلال التام بالعنف أو بالتؤدة وسواء اردنا أن نفعل هذا أو ذاك بإرادة المحتلين أو بخير ارادتهم لا يفيدنا التقدم في هذا السبيل خطوة واحدة الا بعد بث التعليم الكافي الذي يؤهل الامة لتولي أمثال هذه الشؤون لا تكرر رغبة المصريين في تعليم ابنائهم ولكننا نشكو من قلة المدارس الوافية بالغرض المقصود . ان الكتاتيب لا بأس بها وهي أساس التعليم ولكن المهم انصرفنا اليها دون سواها ونحن أحوج الى مدارس عالية تهذب النفوس وترقي العقول وتعلمنا ما لنا وما علينا مما الى مدارس تلقن الصرف والنحو والحساب والرسم . أليس من

العبث أن نطلب الحكم الدستوري أو تنادي بالاستقلال الإداري أو نلتمس النجاة من سيطرة الإنكليز ونحن إلى الآن عالة على مدارس الحكومة ليس عندنا مدرسة كلية واحدة ؟ ألا نحتاج أن نقدر ثروتنا بأربعمائة مليون جنيه وأن يزيد إحصاؤنا على اثني عشر مليون نفس وليس عندنا مدرسة كلية فإلّا نألفنا صياحاً وألفنا لها اللجان وحرصنا الأغنياء واقتنحنا المكتات واستخدمنا في جمعها جماعة من خيرة فضلائنا ونخبه محبي الإصلاح بينما ولكنا لم نخط بها حتى الآن خطوة تستحق الذكر ولم يتجاوز ما جمع من المال بضعة وعشرين ألف جنيه اشترك في دفعها بعض أغنياء القطر . ورأس مال هذه المدرسة لا يعجز عن تقديمه كله رجل واحد من الأغنياء إذا هزته الأريحية وأخذته الغيرة الوطنية كما يفعل أغنياء العالم المتمدن الذين نحتاجهم في طلب الدستور أو الاستقلال فيغنيينا باريحيته عن جمع ذلك المال بالقرش والجنيه من تلامذة المدارس وصغار المستخدمين

أبلى بنا أن نطلب النيابة أو الاستقلال وهذه حالنا من الجهل ؟ لم نقرأ في التاريخ عن أمة نالت شيئاً من ذلك وهي في هذه الحالة سواء أرادت نيله بالسيف أو بالقلم فإنها لا تجد سبيلاً إليه . وهب أنها نالته وقبضت عليه بيدها فإنها لا تحسن الاحتفاظ به ولا تلبث أن تضعه وتكون حالها الثانية شراً من الأولى

كم من مرة حاول الهنود التماس من نير الإنكليز وكم صاح خطباؤهم ونادت جرائدهم « الاستقلال الاستقلال » وكم استنحوا الأمم واستنهضوا الهمم وكم ثارت شعوبهم فقاوموا الحكم وحاربوا الجنود فهل فازوا بما أملوا . كلا . ولماذا ؟ لأن عامتهم لم يتعلموا وبعبارة أخرى لم ترتق عقولهم وتهذب نفوسهم إلى درجة يدركون بها معنى اجتماع الكلمة فإن بالعلم ينفي التعصب وبالعلم تجتمع الكلمة وتتحد القلوب وبالعلم تدرك الأمة غايتها القصوى . ولا يكفي تعليم الخاصة فإن ذلك حاصل في أكثر الأمم وأما الغرض تعليم العامة وتثقيفهم وتدريبهم لأن جمهور الأمة منهم . ولا تفلح أمة في مشروع وعامتها من الجهلاء

كم ألح العثمانيون وكم كتب كتبهم وخطب خطباؤهم يطلبون تأليف مجلس المبعوثان (البرلمان العثماني) تشبهاً بدول أوروبا فلما تألف لم يعش الا قليلاً . ما الذي أماته ؟ أماته الجهل لا نقول ذلك طعناً في معارف أعضائه معاذ الله فإنهم خلاصة رجال المملكة العثمانية بلا خلاف ولكنا نقول ان البرلمان العثماني يحتاج إلى أعضاء

أسمى عقولاً وأرقى آداباً واثقاً انحاداً من أعضاء البرلمان الفرنسي أو الانكليزي لان في سبيله عقبات ليست في سبيل أولئك - يكفينا من آفات المملكة العثمانية باختلاف عناصرها ولغاتها ومذاهبها وسيادة التعصب فيها والتعصب أبو الانشقاق والانشقاق ينبوع الخراب فاذا احتاج أعضاء البرلمان الفرنسي في اجتماع كلتهم الى جزء من العلم كان أعضاء البرلمان العثماني في حاجة الى عشرة اجزاء فكيف ونحن لم نبليج مبلغ أولئك بعد

لما انحلت مجلس المبعوثان قامت الامة العثمانية تلتبس عادته وقد ألحت في طلبه بعنف وشدة وألقت لذلك الجمعيات السرية وغيرها واسكنها تطلب عبثاً وترجو باطلا . وهب ان الدولة اعادت ذلك المجلس الان فانه منحلّ غداً لان الامة لم تبلغ درجة من العلم تؤهلها لمثل هذا العمل العظيم ولن تبلغه الا بانتشار العلم بين افرادها على اختلاف طبقاتهم ولا نشترط عليهم نبذ التعصب فان العلم الصحيح يتكفل بذلك ولا يغرنك نيل الفرس بعض هذه المطالب وهم لا يفضلوننا بالرقى الادبي ولا المادي فانهم نالوا الدستور بسمي جماعة من الخاصة لا بصوت الامة ولذلك يعسر عليهم الاحتفاظ به لانه جاءهم قبل اوانه فاذا تغيرت الاحوال أو تبدلت الاشخاص عادت الامور الى ما كانت عليه

فمن الحكمة وسداد الرأي ان نسير على مقتضى ناموس الاجتماع فنصرف ههنا الى ترقية الامة وتهذيب نفوسها وتدريبها على الاعمال وترك سائر المطالب لابنائنا او احفادنا اذ يكونون ارقى عقولاً وأوسع علماً من اهل هذا الجيل واقدر على فهم ما يفهمهم او يضرهم فينظرون في حالتهم فاذا رأوا الاستقلال انفع لهم طلبوه أو رأوا الدستور ملائماً لأحوالهم التمسوه فيفعلون ذلك عن روية ونظر ويكون حكمهم اقرب الى الصواب

هذه أمة الاميركان خضعت لحكم الانكليز الى اواخر القرن الثامن عشر فصبرت حتى تعلم ابناؤها وتتقوا ونظروا الحكومة والجيش ونشأ منهم العلماء ورجال السياسة والقواد وهم يحاسنون الانكليز ويستعطفونهم . فلما خاب نداؤهم ورأوا الاستقلال ضرورياً لبقائهم ووجدوا في انفسهم الكفاءة لئيله قاموا قومة رجل واحد وظفروا بما ارادوا . وقد كانت العلم اساس استعدادهم لانهم بعثوا ابناؤهم لتلقيه اولاً في كليات اوربا ثم انشأوا كليات مثلها في بلادهم يخرج منها الشبان

وقد تعلموا الاعتماد على النفس وادركوا معنى الوطن ومعنى الحرية . ولما نهضوا للاستقلال كان عندهم ست مدارس كلية كبرى وعددهم يومئذ مليون نفس وبعض المليون فكيف تشبه بهم ونحن نزيد على اثني عشر مليوناً أي نحو عشرة أضعافهم وليس عندنا مدرسة كلية واحدة .. ؟ ويظهر اتنا مع ثروتنا وكثرتنا لا نستطيع القيام بكلية واحدة !

ناهيك بما أعدّه الأميركان لاستقلالهم من الثروة الصناعية بإنشاء المعامل والمناجم فضلاً عن الثروة التجارية التي يحسدهم الانكليز عليها - كل ذلك من ثمار التعليم العالي والتربية الصحيحة على الحرية الشخصية والشجاعة الادبية وعلو الحكمة واجتماع الكلمة . فإين هذا كله منا وكيف ندركه بغير التعاليم . فعلياً ان نطلب أولاً الاستقلال الادبي وبه يصل الى الاستقلال السياسي ونحن احوج الى ذلك الاستقلال منا الى هذا

اننا في حاجة الى التدريب على الاستقلال في التفكير والاستقلال في العمل حتى لا نبقى عالة على الحكومة لا نعلم اولادنا الا في مدارسها ولا نرشح شباننا الا لخدمتها فاذا أغلقت الحكومة أبواب تلك المدارس بات ابتأؤها بلا تعليم واذا أوصدت أبواب الخدمة دونهم تعرقلت مساعيهم وباتوا يشكون الفاقة

على ان الاستقلال الحقيقي الاساسي هو استقلال الامة بمصالحها وطرق معاشها في التجارة والزراعة والصناعة فتجتمع الثروة في ايديها والثروة دم المجتمع الانساني لانحيا الامة بدونه فبدلاً من ان تتعلق معاش الامة على اهواء الحكومة تصبح الحكومة في حاجة الى ثروة الامة او الى رأيها

فستلفت انتباه ارباب الصحف الذين جعلوا اقلامهم وقفاً على طلب الاصلاح والمناداة بخدمة المصلحة العامة ان يتكاثفوا على الناس الاصلاح من ابوابه . فبدلاً من ان يصرفوا ذكاهم وينفقوا قواهم في كتابة ما يثير خواطر الامة على حكومتها او يأول الى سوء الظن بمشيريها ان يحرضوها على التعليم والتمهذيب ويستدروا اموال الاغنياء لإنشاء المدارس العالية والخروج من طبقة القاصرين الذين لا يزالون عالة على سواهم لا يؤذن لهم ان يتعاطوا شؤونهم بأنفسهم . ويستنهضوا همهم للسعي في تثقيف ابنائهم وتدريبهم على الاعمال المستقلة الآيلة الى الثروة الحقيقية فاذا فعلوا ذلك قاموا بما يطلب منهم وتركوا ما وراءه الى من تأتي بعدهم ولا يكلف الله نفساً الا وسعها

هذبوا أبناءكم وهم اطفال

علموهم الصدق والترتيب والمحافظة على الوقت

وبعضوا اليهم الكبرياء^(١)

الناس من حيث تأثير التربية في الانسان فريقان فريق لا يرون للتربية فائدة على الاطلاق وعندهم ان الانسان انما يشب على ما فطر عليه ان خيراً وان شراً . فالصادق عندهم مفطور على الصدق منذ ولادته والكاذب مفطور على الكذب وكذلك الكريم والبخيل والمقدام والكسول وغيرهم . وحيثهم في ذلك ان عشرة اخوة قد يربون في بيت واحد وأحوال واحدة يربهم أب واحد وأم واحدة ثم يتعلمون في مدرسة واحدة ومع ذلك فان كلا منهم يشب على خلق خاص به وقد يكون بينهم الصادق المبالغ في الصدق والكاذب المبالغ في الكذب او الفاضل العفيف والسافل الدنيء . فان ذهب تأثير التربية في هؤلاء . فعندهم ان التربية عبارة عن مصقلة تصقل بها المواهب كما يصقل النحاس والفضة والذهب والالماس وغيرها فانها تنظف الظواهر ولا تنطرق الى البواطن ولا يلبث كل من هذه المعادن ان يعود الى طبعه بعد قليل لان النحاس لا يزال نحاساً والذهب لا يزال ذهباً والفضة فضة

وفريق يزعم ان الانسان صنعة التربية يكون كما يشاء مربيه فيشب على ما يتعوده من خير او شر وقلما يكون للقطرة تأثير على أخلاقه وأطواره بل هو كالمجينة او الطينة مها أرادت طبعه فيها انطبع واذا جفت ظل ذلك الدائم فيها . وحيثهم في ذلك ان الطفل يولد وهو لا يدري شيئاً ولا علم له بشيء فيكسب العلم مما يقع عليه بصره أو يطرُق سمعه من الحوادث الجارية حوله . فاذا تكلم بالعربية شب وهي لسانه او بالانكليزية فكذلك او بكلمتيهما فيشب وهو يتكلمهما . واذا ربوه على اعتبار الخير شراً أو الشر خيراً شب على ذلك

والواقع ان التربية ليست من قبيل صقل النحاس أو الفضة أو الذهب أو غيرها من المعادن لان هذه اجسام جامدة والانسان حي نام . ولا هي من قبيل العجين أو الطين فان هذين لا حياة فيهما ولا مرونة تدفعهما الى طريق يستدعيها النمو .

والانسان فيه منذ طفولته قوة كامنة تدفعه الى النمو والتغير شأن الاجسام الحية وانما الانسان من حيث التربية وسط بين ذينك القولين فهو كالشجرة تنمو مستقيمة او معوجة بحسب ما يطرأ عليها من المؤثرات . فلو القيت بعض بذور البرتقان في بستان ولم تهدها بالسقي او الاصلاح ولا تعمدت اذيتها بوجه من الوجوه فانها تنمو وتصير اشجاراً وفيها المعتدل والمعوج والقصير والطويل والمثمر وغير المثمر وفيها ما لا يكاد ينبت حتى يبس وفيها ما لا ينبت بالكلية . ولو تتبعنا اسباب ذلك لرأينا بعضه يرجع الى أصل تركيب البذور والبعض الآخر يتعلق بالظواهر الجوية والبعض الآخر بالحوادث الارضية - ذلك شأن الانسان اذا ترك للطبيعة ولم يعتن بتربيته . فقد يكون فيه استعداد للاعمال العظمى وفطرة غريزية للاخلاق الحسنة او يكون مفطوراً على الرذائل والحوال فيشرب بمقتضى ذلك مع ما قد يطرأ عليه في طفولته من الطوارئ الخارجية وهي مختلفة وتأثيرها على الناس مختلف أما اذا غرست تلك البذور بيدك في امكنة ابعادها متناسبة ثم تهدها بالسقاية والاصلاح فاذا تبينت في بعضها ميلاً الى الاعوجاج تلافيته واسندتها وقومتها وغصنها لا يزال لدناً ثم تهدها بالمقراض فقطعت ما ينبت فيها من الاغصان الفاسدة او المعوجة - فاذا فعلت ذلك بعناية وتعقل لا تكاد ترى في بستانك شجرة عوجاء او مشوهة . على انك لا تزال ترى بين تلك الاشجار تبايناً في الحجم والشكل وقوة النمو . واذا كان بين تلك البذور بذرة من برتقان بري لا تطمع في ان تجعلها حلوة من الغرس الاول ولو سقيتها مذوب السكر وبذلت كل جهدك في تحليتها والانسان يولد وفيه غرائز فطرية تذهب به الى الخير او الى الشر وفيه ايضاً قابلية للاكتساب فاذا عومل بالعناية اللازمة اكتسبت غرائزه شكلاً جديداً فاذا كان ميلها الى الخير زادت تلك العناية رونقاً واذا كان ميلها الى الشر لطف شرها تلطيفاً حسناً . فاذا ولد احدثهم وفيه ميل فطري الى الكذب مثلاً وعني مربوه منذ طفولته في تقييح الكذب في عينيه ومراقبة ذلك فيه المراقبة الدقيقة وتتبع كل خطوة من خطواته فانه يعود ان يخاف من الكذب . فاذا شب لا يعد ان يعود اليه ولـكنه يبقى بحكم العادة يخافه فيقل وقوعه فيه . وقس على ذلك سائر الرذائل وقد يولد الطفل وفيه جرائم بعض الفضائل فاذا أهملت التربية ماتت تلك الجرائم كما يزداد البدن ضعفاً اذا لم يسع في تقوية أعضائه بالرياضة البدنية ونحوها .

ومن الامور المشهورة ان بعضهم قد اكتسب بذه قوة عظيمة بمجرد الرياضة البدنية ولم يكن أحد يتوقع منه ذلك

على اننا اذا اعتبرنا التربية بالنظر الى الامة على وجه الاجمال رأينا تأثيرها أعظم كثيراً ويزداد ذلك التأثير بتوالي الاجيال . كما تتحول الاشجار البرية الى اشجار بستانية بتوالي غرسها وتعهدها بالاصلاح والعناية ويظهر ذلك جلياً في تأثير الاديان بالامم . فترى لكل امة آداباً وأخلاقاً عامة تختلف عن آداب وأخلاق الامم الاخرى قد اكتسبتها بتوالي الاجيال من تعاليم ذلك الدين . واذا انتقلت الامة من دين الى آخر لا تلبث ان تتغير آدابها واخلاقها حتى توافق تعاليم ذلك الدين - اعتبر ذلك في قبائل الجرمان كيف كانت أطوارهم وأخلاقهم قبل اعتناق الديانة المسيحية وكيف اصبحت بعدها . وفي قبائل العرب في الجاهلية وفي الاسلام وقس عليه . أما في الافراد فالتربية أقل تأثيراً وقلما يظهر أثرها الا اذا بوشرت في الصغر والعود رطب فانها تأتي بفوائد حسنة

ولا بد في تربية الاولاد من النظر في قواهم (غير البدنية) نظراً تشريحيّاً فهي تنقسم بالاجمال الى قسمين القوى العاقلة والاخلاق (القوى الادبية) وقلما نجد علاقة متبادلة بينهما . اذ قد يكون المرء قويّ العقل فيحل المعضلات ويحرز علوم الاولين والآخرين ويذهب في الفلسفة مذاهب سامية ويرتكب مع ذلك أدنى الرذائل . فكم من عالم منافق او بخيل أو فاسد الاداب وكم من ضعيف العقل صادق اللهجة حر الضمير كريم الخلق . لكن بعض كبار العقول اذا كان فيهم ميل فطري الى شيء من الرذائل اصلحوه بقوة ارادتهم وصبرهم . على ان الغالب في أقوىاء العقول ان يكونوا حسان الاخلاق

وبهمنا مما تقدم ان الطفل يخلق وفيه شيثان يجب الانتباه اليهما في تربيته وهما عقله وأخلاقه . فالعقل اذا قصر الولدان في تربيته فالمدرسة تعوضها عليه . أما الاخلاق فلا بد من مداركتها في الطفولة والا فان المدرسة قلما يكون لها تأثير في تربيته . والاخلاق هي عماد الفضائل وعليها يتوقف مستقبل الانسان في هذه الحياة من خير أو شر - بالاخلاق يكون الانسان سعيداً أو تعيساً وبالاخلاق يكون نافعا أو ضاراً . فلا يفرح الآباء اذا رأوا أبناءهم يسبقون أقرانهم في العلم والمعرفة وغيرها

من ثمار الذكاء لان ذلك لا يغنيهم شيئاً اذا لم يكونوا على خلق حسن . ماذا يفيد الرجل كثرة ما يحسنه من اللغات أو يفهمه من العلوم اذا كان كاذباً أو متكبراً أو ماذا يفيد علمه اذا ساء ادبه وتلطخت سيرته فانه ساقط لا محالة . فتهديب الاخلاق اول ما يجب الاعتناء به وهو من واجبات الآباء والامهات . بل هو من واجبات الامهات على الاكثر لان الام تصاحب الطفل في ذلك السن اكثر مما يصاحبه أبوه . ولذلك قالوا ان التي تهز السرير يمينها تهز الارض يسارها . لانها اذا أحسنت تربية أخلاق ابنها جعلته سعيداً لنفسه ومفيداً لابناء نوعه

قلوالدون مطالبون بتربية أولادهم على حب الفضائل ونبذ الرذائل . ولكن هذا التعريف مبهم لا تساع حدوده وكثرة ما يعدونه من صنوف الفضائل والرذائل . وفي اعتقادنا ان تربية الاخلاق المراد بها سعادة الانسان ومنفعة أبنائه نوعه تنحصر بهذه العبارة « علم ابنك الصدق والترتيب والمحافظة على الوقت وبنض اليه الكبرياء » لان الصدق أساس كل الفضائل . فالصادق لا يكون خائناً ولا مختلساً ولا سارقاً ولا زانياً ولا مزوراً ولا نماماً . فاذا عاملت صادقاً فانت في مأمن على مالك وعرضك وهو على يقين من رغبة الناس في معاملته

والترتيب اساس انتظام الاعمال فمن يتدرب من طفولته ان يضع كل شيء في مكانه يشب مرتباً في اعماله في هذه الحياة . فمن تعلمه امه اذا خلع قميصه ان لا يلقيه على الارض كيفما اتفق بل يضعه في المكان المعد لتعليق الثياب او اذا عاد من المدرسة ان لا يضع كتبه في مكان لا يهتدي اليه في الصباح الا بعد البحث فانه يعود الترتيب ويشب مرتباً في حساباته وتجارته ومعاملته فلا يضيع شيئاً من اوراقه او دفاتره ولا يخشى ضياع ثروته . ومن كان محافظاً على وقته لا تفوته فرصة لا يعمل بها عملاً فانه لا يخاف فقراً

وأما الكبرياء فهي عقبة من عقبات الرزق في سبيل هذه الحياة . فلو عرفت صانعاً مهما بلغ من مهارته في صناعته وكان مع ذلك متعجرفاً كبير الدعوى فانك تنفر منه وقد تعاف نفسك الاتفاف بصناعته فراراً من معاملته . واذا بحثت بحثاً تحليلياً في منزلة معارفك عند نفسك من حيث رغبتك في مجالستهم أو نفورك من قربهم لرأيت للكبرياء والتواضع دخلاً عظيماً في ذلك . لان المتكبر مكروه حينما كان والمتواضع مقبول في أي حال . وكبير الدعوى لا تجدد من يحبه أو يصبر على عشرته او معاملته

لانه جاهلٌ ولو احرز علوم الارض وأحق ولو احاط بفلسفة المتقدمين والمتأخرين -
اذ لا يدل على مقدار جهل الانسان اكثر من جهله مقدار نفسه . ولو بحثت في ما
يعبر عنه الناس بقولهم « فلان خفيف الروح » أو « فلان ثقيل الروح » لوجدت
علة ذلك بالاكثر التواضع والكبرياء . فالتكبر المدعي يستثقل الناس دمه وبعبكس
ذلك الوديع المتواضع فانه مقبول حينما أقام وهو خفيف الروح أو الدم - ولا يخفى
ما يترتب على ذلك من المنافع أو المضار في حياة الانسان

علموا أبناءكم الصدق بكل معانيه أي علموهم ان لا يقولوا غير ما يعتقدون
واغرسوا فيهم حب الترتيب والحفاظ على الوقت أي ان لا يضيعوا وقتاً لا يعملون
فيها عملاً وبغضوا اليهم الكبرياء فانها أشد ما يبغضهم الى الناس . فاذا فعلتم ذلك فقد
قمت بآهم واجب عليكم في تربية ابنائكم والله ما وراء ذلك

التعليم الالزامي

والتعليم المجاني^(١)

١ - تمهيد

قد تقرر في الاذهان أن التعليم أساس كل ما يتطلبه المصريون من الرقي السياسي
أو الاداري أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الزراعي أو الصناعي . وتناولت صحفنا هذا
الرأي وخاضت فيه ونصرته وأيدته ودعت اليه وحثت عليه وأصبح القوم اذا ألفوا
حزباً جعلوا من أهم مطالبه « التعليم » والحكومة نفسها اعترفت بصحة ذلك الرأي
بما اتخذته من أسباب السعي في تسهيل التعليم أو توخته من ارسال الطلبة الى أوروبا
واحياء اللغة العربية في مدارسها . فاصبح قولنا « التعليم ضروري » أو « علموهم وكفى »
أو حث الامة أو الحكومة على التعليم من قبيل التكرار البارد

على اننا لم تقتصر عن القول بتعميم التعليم وانه أساس كل تقدم ولستنا يتنا
الطريق المؤدي الى ذلك واستحثنا رجال المال وأهل الغيرة على انشاء المدارس

الكبرى من اموالهم وأتيناهم بالامثال استنهضنا بها همهم فنشرنا أمثلة مما جاد به اغنياء الامم الاخرى في سبيل انشاء معاهد العلم والفضيلة من الاموال الطائلة وطلبنا اليهم الاقتداء بهم في انشاء مدرسة كلية مصرية تكون فائحة انشاء مدارس أخرى . وبتنا لهم أننا قد حان لنا أن نعول على أنفسنا في تعام ابنائنا بالخروج من وصاية الحكومة والاستغناء عن اعانتها في نشر التعليم كما تفعل سائر الامم المتقدمة - ضمنا صوتنا في ذلك الى اصوات سائر ارباب الاقلام وقد نهضوا نهضة واحدة يستحثون ويستنهضون ويؤثنون ويعنفون - وكنا كالكتاب على الماء لست لم ندرك كنهه مع علمنا أن اغنياء المصريين أهل سخاء وأريحية يشهد بذلك ما رأيناه ونراه من سخائهم في مشروعات يتوقعون منها نفعاً زينة لهم الساعون فيها بعارضة الخطيب وبلاغة الكاتب . فذهب اكثر ما جمعوه ضياعاً وربما عاد بعضه بالضرر عليهم وعلى بلادهم . فلو ان الساعين في تلك المشروعات بما أوتوه من الذكاء والنشاط وقوة البرهان صرفوا تلك المساعي في استدرار الاموال الكافية وانشأوا بها المدارس بدل الاحزاب لبلغنا الغاية التي نطلبها على اهون سبيل . لان ما بذل من المال والسمي في تلك الشؤون قد يكفي لقلب الحكومة وتغيير وجه السياسة ولكن الامة المصرية غير مستعدة لمثل ذلك فذهب السمي هدرأ - ولم من رجل عظيم يضع مواهبه ويحر الخية لنفسه والخراب لبلاده لاستخدام مواهبه في غير الجهة الملائمة للاحوال . وقد يكون مخلصاً في عمله يستخدم في خدمة وطنه وفيه ذكاء وهمة ولكنه يسيء استخدام تلك القوى فتعود بالفشل عليه وبالضرر على أمته ولو نظر في ما يستطيع اجراؤه وفيه نفع لأفاد واستفاد

وفي مصر الان جماعة من ارباب الاقلام وأصحاب الثروة والجاه قد ملكوا قيادالامة بما أوتوه من الذكاء والدهاء لا يستنفرون أغنياءها الى مشروع الالبوم على اختلاف في الاغراض بينهم . فألفوا الاحزاب والشركات وجمعوا اموالا تكفي وحدها لانشاء الكلية التي بح صوتنا في طلبها ولكنها ذهبت في سبيل اخرى . فلو صرفوا عنايتهم الى هذه الجهة واستخدموا قواهم ومواهبهم في هذا السبيل لما كافونا مؤونة العود الى هذا الموضوع ولا يضرهم ذلك في ما يريدونه من الاغراض السياسية بل هو انفع لهم اذ تكون الامة بعد نشر العلم اكثر استعداداً لما يريدونه منها . ولكن يظهر اننا لم نزل في حاجة الى وصاية الحكومة لا غنى لنا عن ارشادها وتدريبها - بل

نحن في حاجة الى استبدادها كما يستبد الوالد في ولده رغبة في صلاحته . فحذا الاستبداد في هذا الشأن وما في ذلك عار على الامة المصرية فانه الطريق الذي تمشت فيه سائر الامم المتقدمة نعي به « التعليم الالزامي »

٢ - التعليم الالزامي

ونعني بالتعليم الالزامي أن تجعل الحكومة تعليم الابناء فرضاً على آباءهم يسألون عن التقصير فيه . وكما يطالب الوالد بطبيعة الوجود بحفظ الولد وحياطته وتربية بدنه بالغذاء والكساء ريثما يشتد ساعده ويستقل بنفسه فهو ايضاً يطالب بتربية عقله وتهذيب نفسه ليقوى على معاركة الحياة . ولـكـنـنا نرى الآباء غير عاملين بهذه القاعدة والحكومة انما اقيمت لحماية العاجز ونصرة الضعيف والاقتصاص للمظلوم من الظالم . فكما تطالب الوالد اذا قصر في تغذية ولده وكسائه ونحمله على القيام بهذا الواجب فهي مسئولة عن تقصيره في الواجب الآخر اذا رآته مقصراً به ولم تجبره عليه . ولذلك كان للحكومة أن تجبر الوالدين على تعليم اولادهم ولا سيما اذا كانوا لا يزالون في اوائل ادوار نهضتهم

كذلك فعلت الامم الراقية ولا يزال التعليم اجبارياً في الممالك المتقدمة حتى الان فلماذا لا يكون كذلك بمصر بعد ان رأينا تقاعدنا عن انشاء المدارس من عند انفسنا مع قلة المعلمين بيتنا ؟ فان الامم المتقدمة لم يكثّر عدد الفارين فيها الا بالتعليم الاجباري . كان عدد الاميين في الشعب الانكليزي سنة ١٨٤٣ نحو ٣٢ في المئة من الرجال و٤٩ من النساء فاصبح (١٩٠٨) واحداً في المئة من الرجال واثنين من النساء . وعدد الاميين في الولايات المتحدة اكثر منه في غيرها نظراً لكثرة المهاجرين اليها واكثرهم لا يقرأون ومع ذلك فقد كان عدد الاميين فيها سنة ١٨٨٠ نحو ١٧ في المئة فاصبح عشرة في المئة فقط مع انها اكثر الامم اتفاقاً في سبيل التعليم . وفي المانيا يختلف عدد الاميين باختلاف المقاطعات ولكنهم قليلين جداً في بعضها لا نجد في المقاطعة كلها صيماً أو شاباً أو شابة أو كهلاً أو شيخاً لا يعرف القراءة والكتابة واكثر الاميين في مقاطعة شرقي بروسيا وهم هناك واحد من سبعة عشر وقس على ذلك سائر ممالك العالم المتمدن الكبرى والصغرى . ولا خلاف في أن زيادة عدد الفارين في الامة يدل على ارتقائها

أما مصر فيدعوها أن الاميين فيها لا يزال عددهم أضعاف عدد الفارين وقد بلغ

عدد الذين يعرفون القراءة من سكان القطر المصري باحصاء سنة ١٨٩٠ أقل من ٦ في المئة من مجموع السكان وهب أنه بلغ ضعفه الآن وثلاثة أضعافه فهو قليل جداً بالنظر الى الامم المتقدمة . فهل نستطيع ادراك منزلة تلك الامم بغير التعليم الاجباري - ربما أدركناها بدونها ولكن بعد أجيال متوالية فبقى في أخريات المتمدنين الى ما شاء الله

والتعليم اجباري الان في انكلترا وفرنسا والمانيا والنمسا والدانمارك وأسوج والبلجيكا وهولندا واليونان وفي الولايات المتحدة والمكسيك والارجنتين وفنزويلا وسالفادور وسانتو دومينكو وأورغواي وسائر جمهوريات أميركا الجنوبية وفي اليابان وغيرها حتى السرب والجيل الاسود ورومانيا وهو اسمي في تركيا لا ينقصه الا التنفيذ فالدول المتقدمة تجبر شعوبها على تعليم ابنائهم وتعين المدة التي يجب ان يلازموا بها المدارس وهي تختلف في ذلك باختلاف الامم وأطولها في انكلترا . فان الاب فيها مكلف أن يدخل ابنه المدرسة من أوائل طفولته الى السنة السادسة عشرة من عمره . ومدة التدريس عند الفرنسيين سبع سنين أي من السنة السادسة من عمر الولد الى الثالثة عشرة وعند النمساويين من السادسة الى الرابعة عشرة وكذلك عند اليابانيين وقس عليها سائر الامم المرتقبة . وقد سهلت حكوماتهم على الاهالي تعليم ابنائهم بجعل المدارس عامة في البلاد والقرى يزيد عددها بزيادة عدد السكان . ومن قوانين فرنسا من هذا القبيل ان كل قرية بالغ عدد سكانها خمسمئة نفس يجب أن يكون فيها مدرسة ابتدائية

فاذا كانت دول العالم كبراهها وصغراها جعلت التعليم فيها اجبارياً واناس هناك ينشئون المدارس من عند انفسهم لان الايام علمهم شدة افتقار الناشئة الى العلم فكيف ونحن كما تقدم ؟ فكما تراقب الحكومة الصحة العمومية وتجبر الوالدين على تلقيح أولادهم بلمتاج الجدري تخفيفاً لويلات هذا الوباء عنهم وعن سائر أهل القطر فهي مطالبة باجبارهم على تعليم ابنائهم لتخفيف ويلات الجهل وهو أشد نكابة وأسوأ مصيراً من الاوبئة الجارفة

وهي تنشئ المحاكم والسجون وتقيم الارصاد على الافاقين وأهل البطالة وتتفق الاموال في حفظ الامن العام فاذا أجبرت الناس على تعليم ابنائهم خفت كثيراً من هذه المصائب عنها وعن الامة لان التعليم الصحيح يقلل أسباب الفساد وكما يذعن

الناس للحكومة بما تأمرهم به من وقاية أبدانهم وصيانة حقوقهم فهم يذعنون لها في تربية أبنائهم

٣- التعليم المجاني

ولكن اذا سنت الحكومة قانوناً يقضي بالتعليم الالزامي وأذعن الناس لاوامرها فهل يستطيع كل منهم الاتفاق على تعليم اولاده ؟ كلا . لان معظم الشعب وهم الفلاحون لا يقدرّون على نفقات التعليم فضلاً عن حاجتهم الى ابناءهم للاستعانة بهم في الفلاحة فان احدهم لا يصدق ان يبلغ ابنه السابعة او الثامنة من عمره حتى يستخدمه في بعض حاجيات بيته أو حقوله . فاذا اضطر الى تعليمه في المدارس كانت خسارته مضاعفة - وهو اعتراض معقول ولكن دفعه ميسور بالقياس على سائر امم الارض وفي كل امة الصانع والمزارع والتاجر والغني والفقير

أما من حيث حاجة الوالد الى معونة ولده في قضاء حاجيات بيته أو حقوله فتضع الحكومة لمثل هؤلاء شروطاً لا يلحقهم معها ضرر حتى يرى الفلاح مع الزمن ان استغناءً عن خدمة ابنه في طفولته يعوض عليه أضافها اذا تعلم

أما نفقات التعليم فيرجع أمرها الى الحكومة وهي مطالبة بها للأسباب التي قدمناها . والحكومة التي تسن قانون التعليم الالزامي يجب عليها أن تنشئ المدارس المجانية فتتفق في التعليم كما تتفق في سائر الاسباب العائدة الى صيانة الوطن واعلاء شأنه كتجنيد الجند وانشاء المعاقل وحفظ حياة الافراد وحقوقهم بانشاء المجالس الصحية والقضائية والتنفيذية وهي تتفق في ذلك الاموال الطائلة . ونشر العلم يخفف عنها كثيراً من أعباء هذه المهام - هكذا فعلت الامم المتقدمة ولا سيما التي سنت قانون التعليم الالزامي . فان كلاً منها ينفق قدراً معيناً من أموالها على تعليم الفقراء ...

وأكثر هذه الاموال تنفق في التعليم الابتدائي لان المقصود بتعميم العلم أن يكون كل فرد من أفراد الامة يعرف القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والجغرافية والتاريخ ليستثير عقله في أعماله وتسهل عليه المطالعة . وأما ما وراء ذلك فعلى اختيار الآباء حسب الاحوال . والدول تختلف اتفاقاً على المعارف باختلاف درجات رقيها على اننا اذا نظرنا في مصر نظراً تاريخياً من حيث التعليم الالزامي والمجاني رأيناها سائرة الفهقرى فقد كانت المدارس في زمن محمد علي تشبه ان تكون اجبارية لانه كان يحمل الاهالي على تلقي العلوم العصرية جبراً . وكانت أيضاً مجانية

ولم يقتصر محمد علي على التعليم مجانياً بل كان يطعم التلامذة ويكسبهم ويقوم بسائر لوازم حياتهم . وقد بطل الاجبار في اواخر حكمه واما المجانية فظلت متبعة على الكيفية التي ذكرناها الى اواخر ايام اسماعيل فكان الطلبة الفقراء يقيمون في المدرسة يتعلمون ويأكلون ويشربون وينامون ويكتسبون على نفقة الحكومة . وفي سنة ١٨٧٤ ارادت الحكومة ان تجري على سنة سائر الامم فتفرض على التعليم جعلاً تأخذه من الاغنياء ولكنها تطرفت حتى منعت الفقراء من التعليم لانها ابطلت المجانية . وبلغ عدد الدافعين من تلامذة مدارسها للعام الماضي ٩٢ في المئة وكانوا سنة ١٨٨١ اقل من ٣٠ في المئة وكانت واردات المدارس الاميرية تلك السنة ٢ ٣٢٣ جنيهاً فاصبحت للسنة الماضية ١٠٧ ٠٠٠ جنيه

٤ — العطاء من اكواخ الفقراء

فالحكومة بابطال المجانية من مدارسها قد اساءت الى الامة لانها حالت بين الفقراء واسباب الارتقاء فمنعت عن الوطن جنداً من ارباب العقول ينبغ من اكواخ الفلاحين وفيه نشاط الخلاء وصحة الابدان لا يحول بينهم وبين العلم غير الفقر فاذا صار التعليم مجانياً ظهر جماعة من رجال العلم والعمل يخدمون الامة بعلمهم ونشاطهم . ولو تدبرت تاريخ هذه النهضة لرأيت اكثر الذين ظهروا في اولها وايدوها بمؤلفاتهم أو ادارتهم أو حكمتهم انما نبغوا من ابناء الفقراء الذين علمتهم الحكومة على تفقتها . ولو لم يكن التعليم مجانياً لظلوا في زوايا النسيان — وكم في اهل الغيط من يحجج الجسم والعقل يقضي نهاره عارياً يركض في اثر جاموسة يرعاها أو غنمة يجتلبها فتذهب ايامه ضياعاً ولو تعلم لصار رجلاً عظيماً . وكم من رجل عظيم نبغ بين الاكواخ والشواهد على ذلك كثيرة حتى بين اظهرنا في مصر والشام

فالحكومة مسئولة عن ضياع هذه المنافع باقفال باب المجانية في مدارسها . ولا تنكر أنها شعرت بتلك التبعة وأعادت النظر فيها فاجازت المجانية في بعض الاحوال . غير ان ذلك لا يكفي فالامة تحتاج الى التحريض على التعليم ولا يكفيها المجانية وانما هي في حاجة الى التعليم الالزامي اقتداء بسائر الدول المتقدمة على اختلاف طبقاتها ودرجات رقيها من سلطنة البحار التي لا تغيب الشمس عن املاكها الى الجبل الاسود الذي لا تزيد مساحته على ٣ ٦٣٠ ميلاً مربعة وعدد سكانه اقل من ٢٤٠ ٠٠٠ نفس وميزانيته اقل من ١٢٥ ٠٠٠ جنيه وليس فيه من الاميين الا القليلون

فإذا كانت هذه الدولة وغيرها من الدول الصغرى كالسرب ورومانيا الى اصغر جمهوريات اميركا تجبر رعاياها على تعليم ابناءهم وتساعدهم على تعليم الفقراء منهم فضلا عما يبذله اغنياؤهم من المال في انشاء المدارس الاهلية أليس من العار علينا والامم بحسدنا على مياه النيل وتربة واديه وما يجري من سيول الثروة في خزائنه ونحن نقلد الامم الراقية بظواهر المدنية من الرياش والحداثق والقصور واشباب والحلي والمركبات البخارية والسكر بائية وسائر اسباب البذخ ونطالب حكومتنا بما عند اولئك من الرقي السياسي ونلح عليها بطلب الاستقلال والدستور ونقلد الافرنج بانشاء الاحزاب والشركات - ان تكون هذه حالنا من الانحطاط العلمي . ما بالنا لا نقلدهم باسباب ذلك الرقي وهو نشر التعليم بين طبقات الامة بالقوة اذا كانت هي لا تقدم عليه من عند نفسها

جامعة أم كلثية

والعلوم الادبية أم الطبيعية (١)

الهلال أول من نادى بحاجة مصر الى مدرسة كلية بمقالة ظهرت في الهلال التاسع من السنة الثامنة عنوانها « مدرسة كلية مصرية هي حاجتنا الكبرى » قلنا في جملتها :

« نحن في حاجة الى مدرسة كلية تعلم العلوم العالية يتولى أمرها رجال يتخذهم التلامذة قدوة في الاعتماد على النفس والاقدام وحرية الفكر والقول ومعرفة الحقوق والواجبات . فاذا خرج التلامذة منها انشأ بعضهم المدارس في البلدان والقرى يبثون تلك الروح في أبنائها ويبثها الآخرون في رفاقهم بالاسواق والجمعيات والدواوين وفي المجالس العمومية والخصوصية »

ذلك ما قلناه منذ تسع سنوات وكنا كلما سنحت فرصة نعيد الكرة وننبه الاذهان الى ضعف التعليم ونستنهض الهمم لانشاء المدارس حتى تفضل مصطفى بك كامل العمر اوي

(١) عن الهلال سنة ١٦ صحيفة ٥١٦

منذ عامين باخراج ذلك القول الى حيز العمل فاقترح على الامة المصرية انشاء مدرسة كبرى سماها « جامعة » وفي اعتقادنا أنه يعني « كلية » أي مدرسة تعلم العلوم العالية وتربي النفوس على استقلال الفكر والقول . فاستقبلت الامة اقتراحه بالترحاب والاستحسان وتألقت اللجنة لجمع الاكتابات كما هو مشهور

ولكن يظهر أن اللجنة أخذت اقتراح الغمراوي بمؤداه الحرفي فجعلت الغرض انشاء جامعة على نمط جامعات أوروبا . والجامعة عندهم مؤلفة من عدة كليات . فتربنا حتى تنشر اللجنة النظام الذي تسير عليه في العلوم التي ستعلمها وفي كيفية التعليم . فلما صدر منشورها المختصر الذي نشرناه في الهلال الماضي ذيلناه بملاحظتين بدتا لنا من مطالعته : الاولى اتنا لم نجد فيه ذكر اللغة العربية ورجونا أن تكون هي قاعدة التدريس . والثانية اننا اعترضنا على الطريقة التي تتوي الجامعة السير عليها في التعليم وهي الخطب في بعض المواضيع الاجتماعية

ثم جاءنا كتاب نظامها الكامل والبشرى بدخولها في رعاية الجنب العالي ورئاسة الشرف لسمو ولي العهد . فكان ذلك باعثاً على الثقة في نجاح هذا المشروع . وقد سرنا ما قرأناه في نظامها عن اللغة العربية انها ستكون قاعدة التدريس فيها . وأما التعليم فقد قالت أنه « سيكون مماثلاً للحاصل في المدارس الجامعة بأوروبا مع مراعاة تطبيقه على احتياجات القطر المصري » وهو قول مبهم يحتاج الى ايضاح ولكن يظهر لنا من قرائن كثيرة أهمها ما أعلنت عزمها عليه من الشروع بإلقاء الخطب انها ستجعل التدريس خطاباً في بعض العلوم على ما ذكرناه في الهلال الماضي أو محاضرات كما يفعلون في جامعات أوروبا أي أن تعين أساتذة يلقي كل منهم خطاباً في الفن المختص به مرة أو مرتين في الاسبوع يحضره الطلبة فيلتقط كل منهم ما يعلق في ذهنه من ذلك الخطاب على قدر اجتهاده وذكائه لا يجبره احد على الحضور ولا يطالب ببيان ما تعلمه الا في الامتحانات العمومية . وقد قلنا في الهلال الماضي أن هذه الطريقة وإن أفادت الأفرنج في جامعاتهم فهي غير ما نحتاج اليه نحن لاختلاف أحوالنا عن أحوالهم . هم يلقيون الخطب في المواضيع الاجتماعية أو الاقتصادية أو الطبية أو الفضائية أو غيرها من العلوم والفنون على شبان أتوا دروسهم العلمية ونالوا البكلوريا الحقيقية . وأما نحن فنسلكها على حملة البكلوريا المصرية (أو بكلوريا

الخدمة الاميرية) وقد بينا الفرق بينهما في مقالة المدرسة الكلية المصرية في السنة الماضية - هذا هو المحور الذي عليه مدار الكلام

ان الخطب في المواضيع الاجتماعية أو الاقتصادية أو التاريخية جزيلة الفائدة ولكنها ميسورة لنا بغير المشقة التي يقاسيها اعضاء اللجنة والعناية التي يبذلونها في جمع الاموال ووضع النظمات . اذ يسهل القيام بالفاء هذه الخطب في الادبية العلمية والادبية التي نشأت بين أظهرنا في هذه الاثناء . على اتنا نعد الخطب في هذه المواضيع كمالية بالنظر البنا - نحن في حاجة الى العلوم الاساسية التي يتلقاها حملة البكالوريا الحقيقية في العالم المتمدد والى التدريب على الدرس والبحث والتمحيص وترقية النفوس بالتربية المدرسية العالية . بل نحن في حاجة الى التربية اكثر مما الى العلم . وهذا لا يكون بالخطب والحضور الاختياري بل هو لا ينال الا بالزام التلميذ على تفهم الدرس واعادته على المعلم والمناقشة فيه حتى يرسخ في ذهنه . وبملازمة الطلبة المدرسة معظم ساعات النهار تحت مراقبة أساتذة عقلاء يرقون نفوسهم بارشادهم وقودونهم وبما يشكلونه لهم من الجمعيات الادبية ويعودونهم اياه من الخطب والمباحثات والمنافسة في التأليف والجدال وغير ذلك على نحو ما هو جار في المدرسة الكلية السورية

لما جاء الاميركان لنشر العلم في سوريا قضوا اعواماً في تجربة الطرق الملائمة للشرقيين وان خالفت طرق الغربيين فوصلوا الى طريقة هي أفضل الطرق المؤدية الى هذا الغرض . فما بنا لا نستفيد من اختبارهم - ان انشاء هذه الجامعة خطوة مهمة في تاريخ هذه النهضة والآمال عالقة بها والابصار شاخصة اليها . فاذا لم نحسن وضعها على ما يلائم حاجتنا ذهبنا بآمال المكتتين وأضعنا اموالهم عبثاً وأسأنا الى أبنائنا وأحفادنا الذين نزعمتنا نهيء لهم سبيل الاستقلال بانشاء هذه المدرسة وأمثالها . فينبغي أن نضع الاساس على الصواب قبل ضياع الفرصة . ويجب على كل منا أن يقول رأيه لاتنا شركاء في النتيجة فيجب أن نشترك في مقدماتها . وفي اعتقادنا أن الشبيبة المصرية تحتاج الى مدرسة تعليم وتربية يدخلها الطالب لدن العود لين العريكة فلا يزال يتلقى العلم ويتمرس بأسباب الترفي حتى يخرج مهذباً مثقفاً قوي الارادة نشيطاً هاماً مستقل الفكر بحب وطنه ويتفانى في خدمته . وهذا لا يتأتى بالحضور الاختياري لسماع الخطب . لان معظم هذه الحامد ينال بالقذوة والمباحثة والمعاشرة

اناء الليل واطراف النهار . وبعبارة أخرى أننا في حاجة الى مدرسة يسبك فيها الطالب سبكا في قالب جديد يوافق مصلحة بلاده

العلوم الطبيعية أم الادبية

وكتب الينا غير واحد يسألوننا رأينا في العلوم التي يحسن بالجامعة تقديمها : العلوم الطبيعية كالطبيعيات والكيمياء والتاريخ الطبيعي والرياضيات والفلك وغيرها ام العلوم الادبية كالتاريخ والفلسفة والاقتصاد والشعر ونحوها من المباحث الاجتماعية والادبية ؟ والجواب على ذلك ان جميع هذه العلوم لازمة لتوسيع مدارك الشبان وترقية نفوسهم . ولكن العلوم الطبيعية اولى بالتقديم لانها تثير الالهام بالاطلاع على اسرار الكون ونواميسه وكلها حقائق ثابتة مترابطة تدرب العقل على النظر الصحيح والحكم الصواب . فيظهر له الكون كما هو ويدرك حقيقة الموجودات ويسهل عليه تحليل الحوادث . فلا تأخذه الاوهام والخرافات واذا قرأ التاريخ أو الادب أو نظر في نظام الاجتماع بعد ذلك كان نظره صادقا وكان حكمه اقرب الى الصواب

فالطبيعيات تعلمنا مثلا نواميس السمع والبصر والاثقال والميكانيكات والجاذبية والمغناطيسية والكهربائية وغيرها فلا نصدق ان زرقاء اليمامة رأت جيش العدو على مسافة ثلاثة ايام ولا نخاف الشفق اذا احمر ولا السماء اذا أرعدت ونهزأ بما يرد في احاديث القوم من اخبار العفاريت وغرائب الحوادث المخالفة لنواميس الطبيعة . والكيمياء تكشف لنا سر الظواهر التي نراها في التحليل والتركيب فلا نصدق ان الحجر يحول الى طعام أو النحاس الى الذهب ونعلم ان المادة لا تتلاشى . والمطلع على مبادئ علم الفلك لا يخاف على القمر من الحوت أن يبتلعه ولا يزعم أهله وجيرانه بضرب النحاس

والتاريخ الطبيعي يعلمنا أن الانسان لا يعمر خمسمائة سنة أو الف سنة وأن الآدميين وسائر أصناف الحيوان قلما يختلف شكلها أو حجمها من أول عهد التاريخ الى الآن . ومبادئ الفسيولوجيا والتشريح تعلمنا كيف تتألف أجسام الناس وكيف يحول الطعام الى غذاء ويتطهر في الدم الرئتين فلا نصدق أن الانسان يعيش أشهراً أو أعواماً بلا طعام ولا أن مدة الحمل تتجاوز أشهرها المعدودة

والجيوولوجيا تدلنا على عمر الارض وما في جوفها من الطبقات وتبين لنا أسباب الزلازل والبراكين وغيرها - . وقس على ذلك سائر العلوم الطبيعية التي تعلم في

المدارس الكبرى باوربا . فطالب البكلوريا عندهم يتعلم الفلسفة الطبيعية والفسولوجيا والكيمياء والحيوان والنبات والجيولوجيا والفلك والمنطق والفلسفة العقلية والادبية والجغرافية الطبيعية والظواهر الجوية والاقتصاد السياسي فضلا عن التاريخ والجغرافية واللغات وغيرها

وفي مدارسهم المعدات اللازمة لبسط هذه العلوم وايضاها بالمشاهدة والتجربة كالمعارض التشريحية وفيها اجزاء الجسم وأعضاؤه باشكالها . والمعارض الجيولوجية وفيها أصناف المعادن والاحجار حسب طبقات الارض ومواقعها . والمعارض النباتية وفيها أصناف النبات على اختلاف الاقاليم والاصقاع ناهيك بالآلات الفلكية والمراصد لمشاهدة الاجرام ومراقبة حركاتها والمعامل الكيميائية لتحليل المواد وتركيبها ومسارح الحيوانات ومعارض عظامها وبقاياها على اختلاف الانواع والاجناس غير المعارض الطبيعية لتجربة الميكانيكات والبصريات والسمعيات وغيرها

فالشاب الذي يدرس هذه العلوم على هذه الكيفية يخرج من المدرسة وقد استنار عقله واتسعت مداركه وعرف نواميس الطبيعة وتفاعل العناصر وطبائع الاجسام فيدرك عظمة الكون وحقيقة الانسان فلا يأخذ الفرو ولا يتخذ منه الاوهام . واذا سمع خطاباً في التاريخ أو الادب أو الفلسفة أو آداب اللغة فهم منه غير ما يفهمه حامل البكلوريا المصرية التي لم يتلق صاحبها من هذه العلوم الا شذرات من الكيمياء والطبيعات والرياضيات يتلقاها على عجل لقلة المعدات اللازمة لايضاحها وتفسيرها

فالناشئة المصرية تحتاج قبل كل شيء الى العلوم الطبيعية التي توسع المدارك وتعلم الانسان حقيقة هذا الوجود من حيث علاقة الارض بسائر الاجرام والسيارات والثوابت وتكشف له عما يجري على سطح هذه الكرة من تفاعل القوى واسبابها ونتائجها وطبائع ما ينبت فيها من النبات او يسرح عليها من الحيوان واسباب ما يغلي في باطنها من الحم أو يتساقط عليها من المطر أو يهب فوقها من الرياح . وتدله على تركيب جسمه واسباب نموه وطرق غذائه وتوالده ونواميس عقله وأخلاقه . يحتاج الشاب المصري الى هذا كله قبل الجنوح الى النظر في العلوم الاجتماعية او الفلسفية أو التاريخية او درس تمدن الامم أو آداب لغاتهم . ولا يتم ذلك الا بمدرسة كلية علمية تلقى فيها هذه العلوم كما تلقى في المدرسة الكلية الاميركانية

فستلفت انتباه لجنة الجامعة الى هذه الملاحظات لانها صادرة عن قلب يحب مصر
ويغار على مصالحها . فاللجنة المشار اليها اذا ارادت ترقية الشعب المصري واعداده
ليحكم نفسه فعليها ان تبدأ بانشاء مدرسة علمية كبرى على نحو ما قدمنا تقيم فيها
اساتذة من اهل الفضل يفيدون التلامذة بقدرتهم كما يفيدونهم بعلومهم ويكون التعليم
فيها بالحفظ والاسماع والمراجعة والمناقشة كما ذكرنا . واذا ارادت الفاء الخطب في
اثناء ذلك في العلوم الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها من الادبيات فانه يكون مفيداً
هذه كلمات نقولها في سبيل المصلحة العامة وقد نكون مخطئين في بعضها أو كلها
وانما قلنا ما نظنه صواباً - والمباحثة فجلو الحقيقة . وقد همنا النظر في هذا الموضوع
دون سائر المواضيع التي تتناقص فيها الصحف أو يتحدث بها الناس لاعتقادنا أنه
أهمها كلها بالنظر الى مصلحة مصر لان ما يتطلبه أهلها من الاستقلال أو الدستور
أو الحرية أو الثروة أو غيرها لا ينال بغير العلم . والعلم للعقول كالغذاء للابدان لا يصح
تناوله الا في نسق وعلى مقدار بالتدريب الملائم للصحة والنمو . فكما اتينا لا نطمح
الطفل الرضيع اللحوم والتوابل باعتبار أنها تغذي البالغين وتقويهم لعلنا أنها تلبك
معد الاطفال وقد تقتلهم . فلا ينبغي أن نكلف حملة البكلوريا المصرية تلقي المسائل
الفلسفية والاجتماعية العالية قبل تقوية عقولهم بالعلوم الطبيعية والرياضية ونحوها

ما هو الاستقلال الحقيقي^(١)

في مصر اليوم فئة من ارباب الاقلام نسمع نداء بعضهم على المنابر وتقرأ اقوال
البعض الاخر على صفحات الجرائد يدعون الناس الى الاستقلال ويستحثونهم على
الاتحاد للمطالبة بحقوق هُضمت أو حرية سُلبت . وهم بعبارة أخرى يلتمسون
التملص من قيود الاحتلال . وليس في الناس عاقل لا يحب الاستقلال ولا منصف
يسوِّغ اهتزام الحقوق . بل نحن نعتقد أن فئة كبيرة من رجال دولة الاحتلال
يقولون مثل هذا القول في أعظم نوادي السياسة عندهم . وليس من شأن الهلال
البحث في الاساس الذي بنيت عليه الشكوى . ولكننا رأينا أن نقول كلمة في هذا
الموضوع من حيث علاقته بناموس العمران

لا يعرف قدر الحرية غير العاقل الحكيم ولا يدرك السبيل إليها غير المتقصد البصير
واذا باتت حرية قوم في قبضة قوم أقوى منهم بطشاً وأمنع جنداً فمن الجهالة أن
يلتمسوا استرجاعها بقوة السلاح الا اذا استنصروا قوماً آخرين . وهب أنهم افلحوا
وكسروا تلك القيود فهل يضمنون أن لا يكون نصراؤهم الحديثون أشد وطأة عليهم
من اعدائهم الاولين . على ان التاريخ والقرائن يدلاننا على خطر تلك الخطوة

ولا نطيل الكلام في هذا الموضوع والقارىء يعلم ما آلت اليه مصر في مثل
هذه الشؤون من أقدم ازمنة التاريخ الى الان . يكفينا من ذلك ما تقلبت عليه منذ
الفتح الاسلامي . فقد كانت قبيل الاسلام تحت سلطة الرومان فلم يرض أهلها بذلك
الاحتلال فاستنصروا المسلمين ونصروهم على رجال حكومتهم فدخلت مصر في حوزتهم
فانتقلت من دولة الى دولة وأهلها في كل حال محكومون . وقضت بعد ذلك اجيالاً
تحت سيطرة الخلفاء الراشدين فالامويين فالعباسيين حتى تولاهم بنو الاخشيد في اوائل
القرن الرابع للهجرة فللمصريون مما استحكم بين الاخشيدية من الخلاف فاستنجدوا
الدولة الفاطمية في المغرب فجاء القائد جوهر مصر ففتحها وكان رجالها عوناً له في
ذلك الفتح فاصبحت في سلطة الفاطميين في أواسط ذلك القرن . وما برحت في
قبضتهم الى أواسط القرن السادس في خلافة العاضد بن يوسف فاختلف اثنان من
رجال دولته على الوزارة فخرج المغلوب منهما الى الشام واستنجد نور الدين زنكي
صاحب دمشق فأنجده بجند تحت قيادة شيركويه عم يوسف صلاح الدين (السلطان
صلاح الدين) وكان لا يزال غلاماً فأل ذلك الاستنجد الى تداخل الاكراد في
حكومة مصر ثم افضت الوزارة الى شيركويه ومنه الى صلاح الدين وأخيراً استخرج
صلاح الدين الحكومة لنفسه فانتقلت مصر من الدولة الفاطمية الى الدولة الايوبية
ولو تتبعنا تاريخ مصر في انتقالها من دولة الى اخرى لرأيت سبب ذلك الانتقال
في الغالب استنجد فئة من أهل البلاد أو رجال الحكومة دولة أجنبية ولنا بالحوادث
العربية أقرب دليل

فاذا تبين لك ذلك علمت ان الالتجاء الى دولة اجنبية التماساً للاستقلال ضرب
من العبث . فاستنهاض الهمم واثارة العواطف في هذا السبيل لا يخلوان من العواقب
الوخيمة بغير فائدة ترجى

بقي علينا البحث عن سبيل آخر الى الاستقلال . لان الاستقلال مستحب تهواه

النفس الالية وتستهلك في الحصول عليه

ف نقول اتنا اليوم في حاجة الى استقلال أدبي أكثر مما الى استقلال سياسي ومعنى ذلك اتنا نحتاج الى التدريب على الاستقلال في الفكر والاستقلال في العمل لكيلا نكون عمالة على الحكومة لا نه نعلم اولادنا الا في مدارسها ولا نرشح شبانا الا لخدمتها فاذا اغلقت الحكومة أبواب تلك المدارس بات ابناءؤنا بلا تعليم أو سدّت أبواب الخدمة دونهم نغرقلت مساعيهم وبناتوا يشكون الفاقة . وهي أحوال تكاد تكون خاصة بمصر أو هي على معظمها فيها

وسبب هذه الاحوال ان المغفور له محمد علي باشا لما تولى شؤون هذه الديار رأى الجهل مخبياً في ربوعها وهو حكيم يعلم اتنا في عصر النور ولا سبيل الى الاستنارة الا بالعلم فأنشأ المدارس وجعل صبغها عربية ونشط كل عمل عربي وأحيا الجامعة العربية ثم أنشأ الدواوين والمصالح فاحتاج الى كتاب وعمّال فاتخذهم من تلامذة تلك المدارس وكثيراً ما كان يبعث البعثات العلمية الى اوربا على نفقة حكومته لتعليمهم . واقتدى به من خلفه من الولاة والخدويين . فاصبحت المدارس الاميرية مبعث العلم ومصالح الحكومة مصدر الرزق وشغل المصريون عن زراعتهم وصناعتهم وتجارتهم فباتوا عمالة على عاتق حكومتهم . حتى اذا كانت الاحتلال الانكليزي واقضى الاقتصاد الاداري الاستقناء عن بعض المستخدمين غصّت الشوارع باهل البطالة . وبات أبناء البيوت العامرة يتضورون جوعاً لانهم أصبحوا بعد تهودهم خدمة الحكومة لا يستطيعون عملاً مستقلاً

والاستقلال الحقيقي انما هو استقلال الامة بمصالحها وطرق معاشها من التجارة أو الزراعة أو الصناعة فتجتمع الثروة في أيديها والثروة دماء المجتمع الانساني لا تحيا الامة بدونه

فبدلاً من أن تتعلق معاش الامة على اهواء الحكومة تصبح الحكومة في حاجة الى ثروة الامة او الى رأيها وأقل ما ينجم عن ذلك ان الحكومة اذا أرادت الاقتصاد لا يترتب على اقتصادها اقفال البيوت فينقم أصحابها عليها . ولو تدبرت أسباب نقمة أكثر الغاضبين على الحكومة اليوم لرأيت حاجتهم في ذلك انها تولي وظائفها أناساً دون آخرين . فما اغنانا عن هذا التحاسد

ومما نحتاج اليه من ضروب الاستقلال استقلال الفكر ومن ثماره الرأي العام

وذلك لا يكون الا بالتعليم والتثقيف وقد نبهنا الى ذلك في مقالات سابقة واقترحنا انشاء مدرسة كلية مصرية على مثال المدارس الكبرى في اوربا فلا حاجة بنا الى التكرار ولكتنا نستلفت انتباه ارباب الاقلام الذين جعلوا أقلامهم وقفاً على طلب الاصلاح أن يتكاتفوا على التماسه من ابوابه فبدلاً من ان يصرفوا ذكاءهم وينفقوا قواهم في كتابة المقالات الرنانة التي تثير عواطف الامة على حكومتها او مشيرها ان يحرضوهم على التعليم والتهذيب ويستدروا اموالهم لانشاء المدارس العالية ويستنهضوا همهم للسعي في تثقيف ابنائهم وتدريبهم على الاعمال المستقلة الآيلة الى الثروة الحقيقية كما يفعل سواهم من المشاركة الذين شعروا بانحطاط الشرق قتهضوا لاحياء معالمه

ما برح أهل الهند يعترفون لنا بالسبق في ميدان العلم وينبطوننا على ما نلتاه من عوامل المدنية حتى رأيناهم قد سبقونا في هذه السنين الاخيرة الى السعي في نشر لواء العلم وتعميم التربية فالفوا الجمعيات لانشاء المدارس وشكلوا اللجان للبحث في ما تحتاج اليه بلادهم من ضروب التربية الصحيحة . فوقف خطباءؤهم على المنابر وبذل اغنيائؤهم الاموال في سبيل التعليم . ونحن اولى منهم في التماس ذلك وفيما يحول الله نخبه الادباء والفضلاء وبين ظهرانينا جماعة كبيرة من أهل اليسار لا يذخرون وسعاً في ما يؤول الى ترقية شؤوننا . ولكن كتابنا (او بعضهم) شغلوا عن الجوهر بالعرض فبذلوا قواهم في ما لا طائل تحته من اثار الضغائن وتهميج العواطف وهم يعلمون انهم اذا دعوا الناس الى قومة لا يلقون مجيئاً واذا لقوا لا نخالهم بجهلون عاقبة ذلك فضلاً عن ضياع الوقت واضلال البسطاء فلا يزيدون الجهال الا جهالة

فاذا قالوا انهم انما يفعلون ذلك غيرة على الوطن وضناً باستقلاله قلنا لهم نعم الغاية ولكن بشئ الواسطة . هذه بلاد الهند مرّ عليها اجيال في حال مثل حالنا بل هي أثقل وقرأ وأصعب مراساً وقد حاول أهلها ما حاولناه مراراً فلم يروا نتيجة غير الفشل . فاجمع عقلاؤهم على التماس الاستقلال الحقيقي بالتربية والتعليم فحصروا عنايتهم في هذه الغاية فالفوا مؤتمراً سموه مؤتمر التربية او هو مؤتمر الاصلاح الاجتماعي عقدت جلسته الثالثة عشرة في آخر ديسمبر الماضي في لكناو فحضرها بضعة آلاف من وجهاء الهند ونخبه رجاله فتليت الخطب ودارت المباحثات في الوسائل اللازمة لترقية شؤون الامة الهندية فاجمع المؤتمر على ثلاث عشرة وسيلة . هذه خلاصتها :

- (١) تعليم المرأة . فاجمعوا على ان ترقية الشؤون الاجتماعية لا تتأتى الا بتعليم المرأة وتهذيبها تهذيباً كافياً ووضعوا لذلك شروطاً منها (اولاً) انتخاب معلمات صحيحات المبدأ حسنات التربية من عائلات معروفة (ثانياً) تدريب اولئك المعلمات على طرق التعليم والتربية في مدارس خاصة بذلك (ثالثاً) اذا عجزت بعض البلاد عن انشاء المدارس الكبرى يكتفى فيها بمدارس يتيمة صغيرة (رابعاً) ان يكون من أهم علوم تلك المدارس الدين والآداب والهييجين وصناعة اليد والتدبير المنزلي وتربية الاولاد
- (٢) اصلاح عادات الزواج . بتخفيض نفقات الاعراس ومنع الزواج قبل سن ١٢ او ١٤ في البنات و ١٨ او ٢٠ في الفتيان
- (٣) الاعتدال . ويريدون به الكف عن المسكرات فالهوا لجاناً في أشهر مدن الهند لمنع انتشار تلك الوسائل الجهنمية
- (٤) نزع التعصب الديني وما ينشأ منه من الخصام بين المسلمين والبراهمة
- (٥) الترغيب في الاسفار . باقناع بعض طوائف الهند الذين يعدون الاغتراب حراماً بأنه جائز ومفيد
- (٦) انشاء جمعيات خيرية . تجنباً لطواف الشحاذين في الاسواق وفيهم جماعة لا يستحقون الاحسان
- (٧) النظافة . بان يتعود الهنود على تنظيف منازلهم وحوانيتهم وشوارعهم ويطلبوا بعض العوائد الوثنية التي تخالف شروط النظافة
- (٨) نزع التعصب وقبول المرتدين بلا تردد
- (٩ و ١٠ و ١١ و ١٢) هي بنود تتعلق باصلاح بعض أحوال الزواج الخصوصية بتلك البلاد
- (١٣) الرياضة البدنية للاولاد . بان تجعل المدارس جوائز خصوصية لمن يفوز على أقرانه في الالعب الرياضية ترغيباً للاولاد في ممارستها
- هذه خلاصة قرار تلك الجلسة . ويظهر منها جلياً ان اخواننا الهنود سبقونا في تنشيط وسائل التربية شوطاً بعيداً مع انهم يعترفون لنا بالسبق في أكثر شؤون المدنية فحاجتنا الكبرى الآن الى الاصلاح الادبي قبل السياسي . وهو اصلاح الامة في شؤونها الادبية ومعاملاتها العمومية . ولا يتم ذلك الا باصلاح العائلات وهذا لا يكون الا بالتعليم والتربية

والحث على التعليم والتربية أصبح موضوعاً مبتذلاً لا يكاد يُفعل ذكره كاتب أو خطيب ولذلك فإن الحث عليه قلما يستلفت الانتباه . ولكنتا بعد أن فصلنا عواقبه وأسبابه وذكرنا الامثلة بالدليل والقياس لم نعد نرضى بمجرد البحث النظري ولا بد لنا من مباشرة العمل فنقترح انشاء جمعية أو لجنة أو مؤتمر على مثال المؤتمر الهندي الذي ذكرناه وهو يضمن لنا كل ما نتمناه من وسائل الاصلاح . وبدلاً من أن نعتب على نظارة المعارف لاغفالها علوماً نعتقد فائدتها في اصلاح شؤوننا وتركها وشأنها وننتولى اصلاح امورنا بانفسنا كما تفعل سائر الامم الحية فإن السواد الاعظم منهم إنما تعتمد على رجالها وأموالها بالسعي والاتفاق . على أن الحكومة المصرية قد أدت الواجب عليها بيزر أغراس العلم بيننا قرناً كاملاً فانتشلتنا من هوّة الجهل واهدتنا سبيل العلم فوجب علينا استثمار ذلك الغرس بأيدينا . والاعتماد على النفس أصل كل محمّدة

بنات الشوارع

الخطر على الشبيبة المصرية ^(١)

أتحسب اذا علمت ابنك في اكبر المدارس وثقفته في أرقى المعاهد وربّيته أحسن تربية وغرست في قلبه حب الفضيلة، والتمسك بالآداب السامية واتخذت كل وسيلة لوقايته من الامراض الوافدة كالتلقيح بمادة الجدري والحقن بمصل الكوليرا . وهب انهم توفّقوا الى وقاية الابدان من سائر تلك الامراض بالمصل أو غيره وانك لم تغادر وسيلة للوقاية الا اتخذتها من حق أو تلقيح - أتحسب اذا فعلت ذلك كله وأنت مقيم في القاهرة أو الاسكندرية انك امنت على ابنك ونلذة كبذك من غوائل المرض أو فساد الآداب ؟ كلا . واذا توهمت ذلك فانك في غرور

لا خلاف في أن التعليم والتربية يرقيان النفس ويهذبان الاخلاق فيجتنب صاحبهما أسباب الاوبئة ويتبعد عن مفسد الاخلاق فيهجر المقامر والحانات واما كن الفحشاء . وقد يبلغ من عفة نفسه ان ترتعد فرائضه عند ذكر تلك الاماكن الجهنمية . ولكنه

لا يزال مع ذلك عرضة لخطر هو أشد وطأة على الانسانية من سائر الاخطار لانه يتناول عذاب النفس والجسد . اذا أصاب شاباً ذهب بصحته وأفسد آدابه وجره الى بلايا الموت أخف منها وطأة وأسهل مراساً

اذا شب الفتى على كره الرذيلة كان في مأمن من غوائلها لبعده عن أسباب العدوي وقد يغريه عشراؤه على المنكر فيمسك نفسه ويعصم ولا ينفع عصيانه الا اذا كان شديداً فاذا سابرهم مرة ولو على سبيل التجربة واقترب من تلك الفخاخ اصبح الخطر أقرب اليه من جبل الوريد . لان الانسان مهما بلغ من تعقله مفطور على الضعف وخصوصاً بين يدي المرأة ولا سيما اذا كان شاباً . فكيف اذا كان الخطر يعترضه في الساحات العمومية وعلى قارعة الطريق ويظهر له باحبال الاشكال الى قلبه . يظهر في ثوب المرأة التي جعل الله بينها وبين الرجل تجاذباً هو أساس العمران فانخذته بعضهن ذريعة الى الدمار . نعي بنات الهوى اللواتي بلغ من نساھل حكومتنا واغضاھن ان تترك لهن الحبل على الغارب . فلا تتوارى الشمس حتى ترى العشرات منهن يخطرن في اكبر شوارع القاهرة والاسكندرية وسائر المدن الكبرى بتحرشن بالمارة من أبناء السبيل ياتمن صيداً ينلن به رزقاً . وقد لبسن وجوهاً نضب حياؤها فاعتضن عنه بالمساحيق والادھان وتدرعن بالخلاعة وقلة الادب حتى يعاف الابي النظر اليهن من بعيد . لكنه اذا تكرر ذلك عليه نانية وثالثة ورابعة أشرف على الخطر - الا الذين تعصمهم تقوسهم من قوي الارادة وأصحاب المبدأ القويم وهم قليلون . ناهيك بفتاة ريت في الشوارع وتمرست باساليب الخداع أن تغوي فتى غض الشباب سريem التصديق على عينيه غشاوة وفي قلبه ميل وضعته العناية لغرض مقدس ولكن أكثر الشبان لا يفهمون معناه

ولا تحسبن الخطر من ذلك السقوط يقتصر على خرق حرمة الآداب وتشويه وجه الفضيلة ولسكنه يتناول الوقوع في داء هو أعضل الادواء وأشدها وطأة وافظعها مغبة بتوارثه الابناء عن الآباء . واخف عواقبه تشويه الحلقة وفساد الدم وتعريض الاعضاء الرئيسية للمرض . وقد يؤول الى قطع النسل - على أن قطعه اخف وقماً على الانسانية من تسلسل الداء الوخيم في الابناء والاحفاد وبئس المصير فلا يعجبك من بنات الشوارع يياض الوحوه وبريق العيون ونظافة اللباس واعتماد القوام فان وراء ذلك البياض جيفة قدرة وفي خلال ذلك الدسم سم قاتل .

وأكثرهن لم يصلن الى هذا القطر الا بعد ان نبذتهن بلا دهن نبذ النواة ولو وجدن فيها مرتزقاً لم يجشمن مشاق الغربة الى حيث يقضين الليالي غاديات وأبحاث برمين الشباك ويحملن أسباب الاهانة والصغار . فويل لمن نزل قدمه ويقع في تلك الهاوية
 وإذا كان هذا مبلغ الخطر على الشبان الذين تربوا على العفة والبعد عن الرذيلة فما قولك بالذين أخذوا بنقائص هذا التمدن وقلبوا فضائله الى رذائل فلم يتعلموا من الحرية الشخصية غير اطلاق العنان لشهواتهم ومجالسة بنات الهوى على قوارع الطرق او في المركبات والمنزهات . فهؤلاء لا نرجو لهم صلاحاً من عند انفسهم ولا يجع فيهم نصيح . وإنما ينفع في تخفيف ذلك الويل استئصال السبب من جذره بإبعاد تلك الاشرار عن الناس - وهل يستطيع ذلك غير الحكومة ؟ وهي ملح الارض على ما يقولون

واجبات الحكومة

ان حكومتنا تبذل الاموال الطائلة في وقاية رعاياها من أسباب الامراض فتجبر الاباء على تلقيح ابناءهم بلقاح الجدري وتشدد في اتخاذ الوسائل اللازمة لدفع الاوبئة الوافدة تحت طائلة القصاص . فاذا علمت بمحادثة كوليرا أو طاعون في منزل أحاطت به الجند ومنعت الناس من دخوله وأحرقت كل متاعه ولا يدخله أهله الا بعد تطهيره على الطرق القانونية . واذا خالفها بعضهم عن جهل أو بخل شددت عليه النكير وانفذت ما تريده قهراً ولو احوجها ذلك الى شد الوثاق أو اطلاق الرصاص أو غير ذلك من وسائل العنف . ولا تثريب عليها لأنها تفعل ذلك في سبيل المصلحة العامة . وفس عليه ما تتوخاه من العناية في تطهير أمتعة المسافرين وتضييق الحجر الصحي على الوافدين ولو كانوا اطفالاً أو شيوخاً ولو بعثها ذلك على تعذيبهم أو احراق ثيابهم وغايتها من ذلك حميدة أيضاً ناهيك بما تنفقه من الاموال في اصلاح الشوارع وحفر الترع وإضاءة المدن وكس الطرق ورشها - أرايت اذا هي فعلت ذلك كله وكلفت الناس في سبيله ما يحتملون وما لا يحتملون رغبة في المصلحة العامة فانها اذا لم تتدارك الخطر الذي نحن في صددده كان عملها ناقصاً . لان تنظيف المجتمع المصري من تلك الادران السامة أولى من تنظيف الشوارع من الغبار . ووقاية الشبيبة المصرية من مهاوي الفساد وحماية أبدانهم من تلك الامراض القذرة أولى في اعتبارنا من تطهير منزل حدث فيه اصابة بالتيفويد أو الدتيريا لان عدوى هذه

الامراض وامثالها تنحصر في بعض الافريين ولا تعدى الحيل الواحد من الناس .
وأما تلك فانها تنتقل في الاعقاب حتى تأول الى قناء الذرية

وقد يعترض على ذلك بان الحكومة تتلافى هذه الاخطار بمن اقامتهم لفحص
المومسات . نعم . ولكنها لا تتمكن من ذلك لتساهل المنوط بهم تبليغ خبر أولئك
المواهر فلا يفحص الاطباء منهم الا جزءاً صغيراً . واللوم يرجع اكثره على البوليس
لان رجاله المكلفين بذلك لا يفهمون معنى الفضيلة ولا يدركون التبعة التي تلحقهم
بالاغضاء الذي قد يكسبهم درهماً أو يساءلهم على نظرة ولكنه يقتل المئات والالوف .
فلو كان البوليس متعاماً متقفاً لكانت المصيبة أخف من ذلك كثيراً . اقتبسنا هذه
العادة الجهنمية من الافرنج واتقنا اقتباسها بحذافيرها ولكننا لم نحسن تدارك اضرارها
كما يتداركها هم . فالبوليس مكلف بمنع بنات الهوى من الطواف على الشكل الذي
نشكو منه ولكنه لا يفعل لاعتذار لا طائل تحتها

هذه شكوانا على الخصوص من بنات الهوى اللواتي يتجولن في الشوارع
الكبرى حول الازبكية بالقاهرة والمنشية بالاسكندرية . ولكننا نشكو شكوى عامة
من اباحة الفحشاء والعبث باسباب العفاف . والعفاف سياج العمران

لا تفلح أمة انفس ابناءؤها في حماة الفحشاء ولا سيما اذا تنهت ونهضت تطلب
استقلالاً أو نيابة أو رقياً سياسياً أو ادارياً والانغماس في الفحشاء انما يقع في اواخر
الدولة ويكون دليلاً على سقوطها . أما في اوائلها أو في اثناء نهوضها فلا بد من تنزيها
عن تلك الدنيا لما يترتب على ذلك الانغماس من ضياع القوى العقلية والبدنية فيتولى
صاحبه ضعف العزيمة والحوول فيذهب نشاطه وتسقط همته وتصغر نفسه . ومن
كان عبداً لشهواته لا غرو اذا استعبده الآخرون . ولا يعترض بشيوع ذلك في
اوربا فلنا عاداتنا وطبائعنا ولهم عاداتهم وطبائعهم وما يوافق قوماً قد لا يوافق آخرين
شهادة التاريخ

على اتنا لا نعرف أحداً ينكر مضر الفحشاء وما تأول اليه من أحوال الضعف
عقلاً وبدناً . بذلك على ذلك اجماع الامم على تجنبها ولا سيما في أثناء تيقظها ونهوضها
لاصلاح شؤونها . ولا خلاف في ان الامة الناهضة لا فائدة من مساعيها ان لم يكن
العفاف نبراسها . اعتبر ذلك بما مر على الامم من أدوار التاريخ قديماً وحديثاً . فلا ترى
دولة قامت وتأيبت الا كان العفاف سياجها مع اعتبار طبائعها وسائر أحوالها . وما

من دولة ذهبت الا كان الانفاس في المنكرات من أكبر أسباب ذهابها . انظر الى دولة الرومان التي امتد رواق سلطانها على الخافقين وحملت اليها الجزية من أربعة أقطار المسكونة فانها حالما فسدت آداب أهلها فسد نظامها ووهبت قواها وما لبثت ان سقطت وكان سقوطها عظيماً . ولو تتبعنا تواريف الامم على اختلاف الزمان والمكان لرأيتها تتشابه من هذه الحيشة وكلها قد ذهبت فربسة التهلك والابتذال

واكن ما لنا وللأمم البعيدة . اليك دولة العرب التي قل أن بلغت دولة مبلغها من العظمة والسلطنة وهي انما بلغت ما بلغته من ذلك في صدر الاسلام على عهد الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين الذين اتخذوا العفاف نبراساً وعملوا بمقتضى الكتاب والسنة فاتسع ملكهم ودانت لهم الرقاب حتى اذا كانت أيام دولة بني العباس وقد بلغت شمسها الهاجرة في عهد الرشيد والمأمون مالوا الى البذخ وانقطعوا الى الشهوات . فاذا كانت أيام المعتصم ومن بعده تعاظم اقتناؤهم للجواري والماليك واطلقوا لشهواتهم العنان فانغمسوا في الفساد واكثروا من التهلك والفحشاء فذلت نفوسهم وخارت قواهم وتغلب عليهم الاتراك والتتر والاكراد وغيرهم فدالت دولتهم وانكد طود ملكهم واندرت اعلام مجدهم ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين

على اننا لا نحتاج الى النظر بعيداً وشاهدنا قريب في دارنا هذه مصر السعيدة فقد جاءها المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة المحمدية العلوية والمنكر ضارب اطنابه فيها بما احياه الامراء الماليك من المحرمات وقد ضربت الذلة والمسكنة على المصريين حتى لم يكن يرجى لهم بعث من ذاك الموات وخصوصاً بعد الحملة الفرنسية التي زادت الاباحة واطلقت سراح المومسات فعلم محمد علي باشا الداء وبادر الى الدواء فشدد التنكير على كل منكر وعمل على قطع دابر المتهتكات نقياً وقتلاً ويحكي انه علم بارتكاب بعض رجائه منكراً من هذا القبيل فامر به وبالمراة فانغرقا في النيل معاً ولا ازيدك علماً بعاقبة ذلك ولسان الحال شاهد عدل

وبالغ المغفور له سعيد باشا في اتباع العفاف حتى في الحلال لاعتقاده بما ينجم عن اطلاق هوى النفس من ضعف العزائم فقد ذكروا أنه لما سافر في أوائل سنة ١٢٧٩ هـ الى اوربا لمعالجة نفسه من داء السرطان كتب الى قائمقامه في مصر بطلب جميع الضباط المصريين من بلادهم واقامتهم في قصر النيل ومدادتهم على التدريس في القوانين العسكرية وهذا قوله « ان الضباط الوطنيين المترفين من تحت السلاح قد

اشتغلوا بملازمة نساءهم وتركوا دروسهم ولو تركناهم على هذا الحال الذي لا يعود عليهم الا بالوبال لفقدوا العافية والنظر وصاروا عبرة لمن يعتبر . وبما اتانا نحن الذين ربيناهم ورقيناهم وأظهرناهم فلا يصح لنا تركهم في هذا الحال الذي ذكرناه فقد اقتضت ارادتنا جمعهم من بلادهم وعدم تمكينهم من نساءهم حتى ولا بالنظر اليهن بالعين والتشديد عليهم بمداومة التدريس ليلاً ونهاراً في قصر النيل »

وزد على ذلك ان الفحشاء منكر من المنكرات التي ينهى عنها الدين والشرع على اختلاف الاعصر فما من دين الا وهو ينهى عنها ويشدد العقاب على مرتكبيها . والشرائع لم توضع عبثاً سواء كانت دينية او مدنية وهي مجمعة على اضرار هذا المنكر على اتنا اذا سلمنا مع القائلين باطلاق الحرية اقتداء بالدول المتقدمة وأن ذلك الشر ضروري لا مندوحة عنه بشرط أن تتولى الحكومة مراقبته وتعهدها المؤسسات بالكشف الطبي منعاً لانتشار الامراض ايثاراً لاختيار اهون الشرين لانها في حال تخالف ما كان على عهد محمد علي وانها تعجز عن منع الفحشاء - اذا سلمنا معها بذلك فانها لا تنجو من غائلة اللوم على أمر هو عندنا من الاهمية بمكان عظيم وذلك أن اما كن الفحشاء هذه معظمها في اواسط المدينة وعلى الشوارع العمومية بحيث تكون اشراكها اكثر اصابة فضلاً عن الاضرار التي تلحق بالعائلات الساكنة في ذلك الجوار فالحكومة مطالبة شرعاً وعرفاً بدفع هذه المحظورات بتقوية المدينة من هذه الاوساخ وتطهيرها من هذه الارجاس واذا كانت لا تستطيع استئصال شأفة أولئك الابالسة فلا أقل من اخراجهن من قلب المدينة الى مكان بعيد في ضواحيها فلا يذهب اليهن الا المستهلك في سبيل شهواته وهذا حياته كماته وينجو كثير من الشبان الذين انما ينقادون الى تلك الاماكن انقياد الشاة الى الذبح اما بلفظة أو بإشارة او على أثر كاس من الخمر او قدح من (البيرا) وهم ليسوا مفطورين على الرذائل ولكن وجود تلك الفخاخ في وسط المدينة وعلى قارعة الطريق هو الذي جرهم الى هذا المنكر لان أولئك المؤسسات ينحرفون بهم بأساليب الخلاعة مما تشمئز منه النفوس ولا ينجو منهم الا الذي رسخت قدمه في المبادئ الصحيحة ولكن الضعفاء في الناس أكثر كثيراً من الاقوياء فلو كانت هذه الاماكن خارج المدينة لما وصل اليها الا المنغرس في شهواته ولا سبيل الى اصلاحه ولا فائدة من وعظه

من الملوم

فاللوم واقع معظمه على الحكومة وهي الوصية على الناس تراقب أعمالهم وتتولى هدايتهم ووقاية أبدانهم فعلها التبعة الاولى يشاركها فيها الآباء . ولا يخلو الشبان أنفسهم من هذه التبعة ولا سيما في هذا العصر عصر النور والعرفان وهم لا يجهلون عواقب هذه المنكرات

والانكى من كل ذلك ان مرتكبي هذه الدنيا اكثرهم من أهل اليسار وهم الذين يرجو الوطن منهم رفع مناره وتعزيز شأنه - نعم ان ذلك لما يزيد المصيبة كبراً . ومن البلية أن يكون المال وسيلة للخراب والناس انما يسمعون فيه طلباً للعمار وهو بالحقيقة قوام العمران فيتخذونه اولئك الاغرار وسيلة لهدم أركان الهيئة الاجتماعية وتدريس الآداب العمومية . أليس من موجبات الاسف أن يكون بيننا شبان وهبهم الله جسمياً صحيحاً وعقلاً صحيحاً وقد تعلموا وتهذبوا وثقفوا فضلاً عن استمدادهم الطبيعي للعمل وقد وقف خلو جيوبهم عثرة في سبيل أعمالهم وربما قضوا السنين الطوال تحرقون ويتمرون لفصر ابدىهم عن أعمال قد حال فقرهم دون مباشرتها ولو باشروها لجاءت بالنتائج العظيمة لوطنهم او لبني الانسان كافة . وأن يكون في الجانب الآخر شبان ولدوا في نعيم وعز وتربوا في بحبوحة السعادة والرفاه لا يعرفون للدينار قيمة الا بما يسهل لهم من طرق الفحشاء والعياذ بالله فينفقون الاموال الطائلة في سبيل امر ينكره الشرع والعرف وتنفر منه الآداب وتخافه الفضيلة ويرتجف لهوله العمران لانه هادم لأركانه مقوض لدعائمه كأن الغنى وسيلة لارتكاب الدنيا فبئس الغنى ويا حبذا الفقر

آفات التمدن الحديث

في الحياة الاجتماعية الشرقية^(١)

مرّ على الانسان من اول عهد التاريخ الى الآن ادوار كثيرة تمدن في كل دور منها تمدناً يختلف نوعاً ومقداراً باختلاف الاحوال والاماكن . وتقلب التمدن في

(١) عن الهلال سنة ١٠ صيفة ١٠٩

عهد التاريخ بتقلب الدول والاحياء فنشأ التمدن المصري القديم والتمدن الاشوري
فالفينيقي فال يوناني فالروماني فالتمدن العربي الى التمدن الافرنجي الاخير وهو التمدن
الحديث . على ان اكثر ضروب التمدن مأخوذ بعضها عن بعض او قائم بعضها على
انقاض بعض . والتمدن على اطلاقه حسن لانه دليل الارتقاء او هو الغاية التي تسعى
الامم اليها فاذا باغتتها بلغت ذروة مجدها

على اتا لو نظرنا في انواع التمدن على اختلاف العصور لما رأينا تمدناً خلا من
آفات ما زالت تخرب في بدنه نخر السوس حتى أماته وذهبت باهله الى مهاوي الانحطاط .
فقد كان من آفات التمدن المصري القديم مثلاً استبداد الفراعنة والسكينة في الشعب
واستعباده ونسخيره واستبقاؤه في ظلمات الجهل . فاقاموا الجمعيات السرية حاجزاً
بينه وبين العلم فأنحصرت المعرفة في فئة السكينة دون سائر الناس قال الجهل بهؤلاء
الى الانغماس في عبادة الاحجار والانصاب والتعويل على الخرافات والالوهام وما
عاقبة الجهل الا السقوط

ومن آفات التمدن العربي المغالاة في الترف والقصص والاستكثار من الجواني
والماليك . والمرب انما اقتنوا المالك في بادىء الامر من الامرى للتفاخر بابهة
الملك والتتبع بلذة النصر . ولكنهم ما لبثوا ان عمدوا على اقتنائهم بالمال او بالمهاداة .
وما زالوا يبالغون في ذلك حتى كثر هؤلاء وتعلموا وتدريبوا فهدوا ايديهم الى
الحكومة وجعلوا يرتقون فيها رويداً رويداً حتى قبضوا على أزمة الاحكام فاندurst
دولة العرب ونشأت دول الاكراد والشركس والاراك وغيرهم مما يطول شرحه
ولا محل له هنا

ويقال مثل ذلك في سائر اصناف التمدن القديم فقد كان لكل منها آفة او آفات
ما زالت تخرب فيه حتى أماته . ويزعم انتخاب التمدن الحديث انه افضل ضروب التمدن
وأقربها الى البقاء لانه مؤسس على العلم والعدل والحرية . وهو قول معقول نرجو
ان يكون صحيحاً ولكن لهذا التمدن اضراراً كثيرة لا يصح التجاوز عنها وقد انتبهت
بعض الامم اليها فتلافت شرورها وتغافلت أمم اخرى عنها وما عاقبة تغافلها الا السقوط
وغرضنا في هذه المقالة البحث في ما جره هذا التمدن من الاضرار على الحياة
الاجتماعية الشرقية مما كانت غنية عنه في حالها الاولى . ولا نتعرض لما اكتسبه
الشرق من فضل التمدن الحديث فانه مشهور لا يحتاج الى بيان . وذكر مساوئ

هذا التمدن لا يقلل قيمة ما اشتهر من محاسنه . ولا كتنا عمدنا الى ذكر المساوىء
رغبة في تجنبها قبل استفحال أمرها وهي عديدة نذكرها بالتوالي - فمنها :

التهتك

'طبع الشرقي على الحياء والغيرة وجاءه الحجاب متماً لهما . فاصبح التهجيب
من الفرائز الشرقية الظاهرة ومهما قيل في الحجاب واضرار له أو منافعه فانه بلا
خلاف خير من التهتك الشائع في بعض المدن الكبرى
يبدأ تاريخ الشرق الحديث بظهور الاسلام والاسلام انما انتشر وتأيدت دولته
في الصدر الاول بما اشتهر به الخلفاء الراشدون من العفاف والنزاهة عملاً بالكتاب
والسنة فكان الناس في اثناء القرن الاول للهجرة لا شاغل لهم الا الجهاد والفتوح
والتسابق الى الفضائل حتى رسخت قدم الاسلام وتوطدت دعائمه على عهد الدولة
الاموية . ثم عمد الامويون في اواخر دولتهم الى البذخ والقصف وبالغ بعضهم بالتهتك
قال بهم ذلك الى السقوط . فانتقل الملك الى العباسيين فعملوا على نشر العلم والصناعة
حتى بلغ التمدن في عهد الرشيد والمأمون أعلى ذرى المجد . فمالوا الى البذخ
وعمدوا الى اقتناء الممالك والجواري - بدأ الخلفاء في ذلك واقتدى بهم الناس على
اختلاف طبقاتهم عملاً بالقول المأثور « والناس علم دين ملوكهم » - وتصدق هذه
القاعدة على أهل كل تمدن غير التمدن الحديث في بلاد الشرق لاختلاف العناصر فيه
واختلاط الاذواق والاخلاق مع تمتع الناس بالحرية الشخصية فلا يعمل العامل الا
ما يترأى له . وأما من قبل فقد كان الناس كما يكون خلفاؤهم او سلاطينهم ليس من
حيث الاداب العمومية فقط بل في كل شيء حتى اللباس والطعام والصلاة وغير ذلك .
فقد كان سليمان بن عبد الملك الخليفة الاموي (سنة ٩٦ - ٩٩ هـ) يحب الطعام اذا
أتاه الطباخ بشواء فلا يصبر حتى يبرد فيأخذه بكفه وكان نهماً يأكل أكلاً كثيراً فكان
الناس في زمن خلافته اذا تلاقوا سأل بعضهم بعضاً عما أكلوا البارحة وعما يأكلون
اليوم . وكان عمر بن عبد العزيز الاموي (سنة ٩٩ - ١٠١ هـ) زاهداً صاحب عبادة
وتلاوة قرآن فكان الناس اذا تلاقوا في ايامه سأل بعضهم بعضاً ما وردك الليلة وكم
تحفظ من القرآن وكم تقوم من الشهر . وأدلة ذلك كثيرة في الاعصر الاولى للاسلام
الى اوائل هذا القرن لما دخل التمدن بلادنا ونودي بالحرية الشخصية وأصبح الناس

أخلاقاً من أم شتي وألسنة تترى لا قاعدة لآدابهم ولا رادع لهم
واتفق أن التمدن جاء هذه البلاد. وهي في مهاري الانحطاط على أثر استبداد
المماليك ومن جرى مجراهم. ولما سكنه لم يتناول في أول عهده إلا التعليم والتربية مع
المحافظة على الحشمة الشرقية. وأما التهلك وخرق الحجب فلم يظهر إلا في أواخر
القرن الماضي لما كثرت تقليدنا للأفرنج حتى في ما ينافي فطرتنا. وربما لا ينافي فطرتهم
إذ ما يوافق طبع الغربي قد لا يوافق طبع الشرقي. بدأنا بهذا التقليد في أول القرن
الماضي على أثر دخول الفرنسيين مصر فكان في جملة ما خلفوه من عادات الأفرنج
إطلاق سراح المومسات مثل ما كان شأنهم في بلادهم. وخرج الفرنسيون وبقي
ذلك الأثر حتى تولى المغفور له محمد علي باشا فشدد التكبر على أما كن الفحشاء وعمل
على قطع دابر المتهنكات نفياً وقتلاً. وبحكى أنه علم مرة بارتكاب بعض رجاله منكراً
من هذا القيل فامر به وبالمراة فأغرقا في النيل معاً

وكان المغفور له سعيد باشا من أكثر الولاة سعياً في صيانة الآداب العمومية.
ولم يطلق سراح أهل الخبلاء إلا على عهد الخديوي اسماعيل لكثرة من قدم مصر
من جالية الأفرنج على اختلاف مقاصدهم وأغراضهم. وظهرت على أثر ذلك بيوت
الخبلاء وانتشرت وسائل التهلك. وما زالت على ذلك إلى الآن والحكومة ساكتة
عنها كأنها ترى الإصلاح والمدنية يفتقران إلى مثل تلك البيوت - بل هي تمهد السبيل
لها بما أوقفته من الأطباء لفحص المومسات فحسباً طيباً في أوقات معينة وأما كن معلومة -
وهي إنما فعلت ذلك اقتداءً بدول الأفرنج. ولعل عذرهما أنها اختارت أهون الشرين
فلما لم تر سبيلاً إلى منع الفجور خافت تفشي الأمراض الخبيثة فعبثت الأطباء دفعاً
لتلك الغائلة

فالحكومة لا تلام في عجزها عن قطع دابر المومسات اليوم وهي إذا أرادت
ذلك فالامتيازات الأجنبية تقف في سبيلها في جملة العثرات. ولما كنا نستطيع أمراً
لا عذر لها في التغاضي عنه وهو إخراج تلك الأما كن النجسة من أواسط المدينة
وابعادها عن الشوارع العمومية فيقل خطرها ولا يصل إليها إلا المستهلك في سبيل
شهواته وينجو جماعة كبيرة من الشبان الذين إنما ينقادون إلى تلك الأما كن بضعف
أرادتهم فيساقون كما تساق الشاة إلى الذبح بلفظة أو إشارة على أثر كأس من الخمر أو
قدح من البيرا مع سهولة الوصول إلى « نوافذ جهنم » لقربها من الحانات والقهوات

ولو اقتصرت تلك الآلات الجهنمية على التربص في منازلهم ونصب الشباك على النوافذ والابواب لكان البلاء . ولكنهم يخرجون للصيد في الطرق وحول الحدائق يشربون بالحواجب والعيون والانامل . وقد يفعلون ذلك على مشهد من رجال الشرطة لا يبالون ولا يبالون كأنهم يدعين الناس الى فضيلة او يساومهم على تجارة نعم اتنا في عصر الحرية وكل مسأول عن نفسه ولكن المحافظة على الآداب العمومية من قبيل المحافظة على الامن العام اذ لا تنقضي ليلة لا نسمع في غدها خبر خصام أو نزاع ووقوع قتيل أو جريح في أماكن الفحشاء أو ما مجاورها . وقلما تتبعنا السبب الا رأيناه يتصل بما قدمناه من اطلاق السبيل الى هذا الحد وليس من الانصاف أن نلوم الحكومة ولا نلوم الشبان واكثرهم من أهل البيوت المعروفة وفيهم جماعة من تلامذة المدارس . ومن العار على من تعلم الفضائل واستنار بنور العلم أن يطرح آدابه ويحتمه في تلك المصارف المنجسة

الانتحار

الحاد والمزمن^(١)

الانتحار او قتل النفس قديم بقدم الانسان لانه من نتائج الضعف البشري والانسان ضعيف من فطرته . وأقدم ما ذكرناه من حوادث الانتحار مقتل شمشون في اوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد ومقتل شاول في أواسط القرن الحادي عشر على ما جاء في التوراة

وأما حوادث الانتحار في التاريخ القديم فعديدة من أفضعها ان فرقة من الجند الروماني على عهد تروكوس الاول انتحرت كلها سنة ٦٠٦ ق م تخلصاً من عار توهموا انه لحقهم بأوامر صدرت لهم ان يحنقروا أسراباً للأقذار العامة . وهناك حوادث اخرى انتحروا فيها الملوك والقواد والفلاسفة وغيرهم ومع ذلك فالشرائع اليونانية والرومانية كانت تعد الانتحار من أفضع الجرائم

وكانت تحرق اليد التي تعتمد ذلك دون سائر البدن - فضلا عن غضب الكنيسة على المنتحر لاي سبب كان . وكانت تحلل الاستيلاء على ماله وعقاره . ثم تعدلت تلك القوانين ونخفت فاكثفوا بصلبه على متصلب الطرق عبرة للناس . ثم تعدلت مرة أخرى سنة ١٨٨٢ ولكن المنتحر لا يزال الى الآن يدفن ولا يصلون على جثته

وللعلماء بحث طويل في الانتحار وأسبابه وعلاقته بالفصول والاعمار والمهن والبقاع والاجناس وغير ذلك . وقد وضعوا الاحصاءات المختلفة عن حوادث الانتحار في ممالك أوروبا باعتبار الزمان

ويظهر من مقابلة هذه الاحصاءات ان الانتحار في ايرلندا أقل مما في سائر ممالك أوروبا . وفي سكسونيا أكثر مما فيها كلها . ويظهر بالاجمال ان سكان جزائر بريطانيا العظمى وايطاليا أقل تعرضاً للانتحار من سواهم

وقد بذل العلماء قصارى جهدهم في ارجاع هذه الفروق الى أسباب متصلة بالشعوب أو بالاقليم أو بالازدحام أو بأحوال أخرى ولكنهم لم ينهوا الى نتيجة قطعية . وبحث آخرون في علاقة ذلك بالجنس بين الذكور والاناث وبالسنة بين الشباب والكهولة وبالمهن ودرجة التهذيب . فانضح من هذه الجهة أن الانتحار أكثر في المتعلمين مما في سواهم ولذلك رأيناه يتزايد بتوالي الاعوام

أما بالنظر الى الجنس فقد اتضح أن الانتحار في الاناث لا يقل عن ١٥ ولا يزيد على ٣٠ في المئة من معدل وفيات الانتحار في أي بلد كان وما بقي فهو من الذكور . ومع ذلك فانه يختلف باختلاف الامة فهو على معظمه تقريباً عند الانكليز فقد كان معدل وفيات الانتحار في نسائهم الى سنة ١٨٧٦ نحو ٢٦ في المئة من مجموع المنتحرين ثم أخذ في التناقص . وكذلك الحال في فرنسا . واما في بروسيا وسائر المقاطعات الجرمانية فمعدل الانتحار في النساء عشرون في المئة من مجمل الحوادث

أما السن فتأثيرها في الانتحار اقرب الى القياس والضبط ويؤخذ من الاحصاءات التي وضعوها في هذا الموضوع ان للسنة تأثيراً في حوادث الانتحار يكاد يكون واحداً في كل الممالك مع اعتبار ما يشاركه من العوامل الاخرى التي تختلف باختلاف الاقاليم والامزجة ويظهر من هذه الاحصاءات أيضاً ان حوادث الانتحار آخذة في الازدياد كل سنة عما قبلها

وقد ثبت أن وطأة الانتحار تزايد بسرعة من سن العاشرة الى الخامسة والحسين وتبقى على وتيرة واحدة تقريباً عشر سنين ثم تتناقص بفترة . ومما يستحق الذكر ان نسبة الانتحار في الاناث الى الاعمار تختلف عما في الذكور وللمهن تأثير على حوادث الانتحار ولكن تحقيق تلك النسبة صعب . على ان الدكتور اوكل قد بذل العناية في استخراج ذلك في المدة من سنة ١٨٧٣ - ١٨٨٣ في انكلترا وويلس فجمع تسعة آلاف حادثة انتحار لاناس اصحاب مهن معروفة فوجد اكثر المهن تعرضاً للانتحار الجندية وحوادث الانتحار فيها تزيد على سائر الحوادث زيادة فاحشة - ولعل السبب في ذلك اقتدار اصحابها على الانتحار في أي وقت كانت لوجود الاسلحة معهم دائماً . ثم يأتي بعد الجند أصحاب النزل والحانات ممن يدمنون المسكرات . ثم رجال الطب والصيدلة والمطارة لسهولة توصلهم الى العقاقير السامة ومعرفتهم أنسبها للقتل بلا ألم . ولاحظ الدكتور أوكل أيضاً ان أصحاب المهن البدنية على الاجمال أقل تعرضاً للانتحار من أصحاب المهن العقلية . وبالجملة ان الانتحار في المتعلمين اكثر مما في أهل الجهالة - نقول ذلك مع الاسف الشديد

وللفصول تأثير شديد في الانتحار فقد تحققوا بالاحصاء والمراقبة انه اكثر حدوثاً في مايو ويونيو مما في سائر الاشهر . ويكاد ذلك يكون عاماً في كل الممالك الا في بافاريا وسكسونيا فان معظمه يقع في يوليو . ويظهر تأثير الفصول في الانتحار في الاناث اكثر مما في الذكور وخصوصاً في ايطاليا ويعمل ذلك بعضهم بان الاناث يفضلن الانتحار غرقاً وهذا ميسور لهن في الصيف اكثر مما في الشتاء

وطرق الانتحار تختلف أيضاً باختلاف البلاد فالانكليز يفضل رجالهم الانتحار شنقاً ونساءهم غرقاً . والايطاليان اكثر ما يكون انتحارهم باطلاق الرصاص والنساء بالغرق والبروسيان اكثر من نصف حوادث الانتحار عندهم بالشنق رجالاً ونساءً . وهناك طرق اخرى لا نخوض فيها لضيق المقام

قلنا - ولم يتأت لاحد ان يضع احصاء لحوادث الانتحار في بلادنا ولكن بالقياس على البلاد الاخرى يجب أن يكون ذلك المنكر قد تكاثر فيها من اواسط القرن الماضي ثم تزايد زيادة فاحشة في أواخر ذلك القرن . وسيتزايد في اوائل هذا القرن بناء على ما تقدم من علاقة تلك الجريمة بانتشار العلم وتزايد انتشاره للاسباب

التي قدمناها . ولان التعليم وسائر وسائل الحضارة تضعف القوى البدنية وتزيد حساسة القوى العصبية فتعظم الانفعالات النفسية حتى تسدل على العقل حجاباً كثيفاً فيعمل صاحبه ما لا يعمل الا المجانين - والانتحار ضرب من ضروب الجنون وخصوصاً ارتكابه للاسباب التافهة التي قد لا تخرج عن اعتبارات وهمية لا حقيقة لها في الواقع . فالمتحجر اذا كان مصاباً بداء عضال لا يرجو منه شفاء مطلقاً وهو يقاسي منه آلاماً مبرحة قد لا يلام اذا احب التخلص من هذه الحياة وعجل اجله اياماً او اشهرآ وان كان ذلك مما لا يجيزه الشرع ولا الدين

ولكن أكثر الذين عرفناهم من المنتحرين شبان في مستقبل العمر صحاح الابدان والعقول يرجون مستقبلاً مجيداً وقد حامت الآمال حولهم . فلا نعلل انتحارهم بغير الجنون الموقت - والا فيستحيل على عاقل أن يقدم على ارتكاب جريمة القتل من نفسه وهو اذا أراد احداً مسه بجراحة أعظم أمره وطلبه بعمله اما انتقاماً واما تقاضياً فكيف يقدم هو على قتل نفسه وفيه عقل ؟

على ان المنتحجر لا يمد تلك اليد الاثيمة لهدم ذلك البناء المقدس الا وهو مقتنع بما يسوغ له ذلك وربما عدَّ عمله هذا فضيلة . على انه لو اتقى على نفسه وكاشف احداً بعزمه او تربص ريثما يعود الى رشده لرجع عن جنونه

واكثر ما نسمع به من حوادث الانتحار سببه الفقر او اليأس من النجاح او الفشل في بعض الاعمال او الحيرة في بعض الامال . فالذي ينتحجر فراراً من الفقر انما هو جبان أدى به اعتقاده المعجز عن الارتزاق الى التخلص من الحياة بفعل منكر يفتقر الى اقدام أعظم كثيراً مما قد يحتاج اليه الارتزاق . فلو ان بدلاً من اقدامه على قتل نفسه نشط للسعي في أسباب الرزق بالاسفار أو الاخطار لكفى نفسه مؤونة هذا الذنب واختبر الحياة من وجه آخر - ولكنتنا لا نعد الانتحار اقداماً وانما هو جنون ناتج عن ضعف الارادة وانحطاط القوى الادبية

أما الذي ينتحجر لفشل في أمل فما أضيق مطامعه وما أقصر آماله - وما عليه اذا خابت آماله في جهة الا أن يحولها الى جهة أخرى وبعد خيبته درساً استفاده في حياته الدنيا فلا يعود الى تعليق الآمال وحصرها في جهة واحدة او في شخص واحد اعتباراً بقول الشاعر:

لست الملموم أنا الملموم لانني أنزلت آمالي بغير الخالق

لا نستثني من ذلك ما يحدث من هذا القبيل في حوادث العشق ونحوه لان الحب مهما يكن من سلطانه على القلوب فالعقل لا يزال يرقب سبله من قمة البدن فيستشرف حركات القلب ويهزأ بها ويعد أكثرها جنوناً - فلا يعدم الانسان بالعقل نذيراً في ساعة اليأس وما عليه الا ان يحجب انذاره بالتربص برهة ريثما يثوب الى رشده .
والغالب في المتربص أن ينجو من الموت ويضحك مما مرَّ في ذهنه من هذا الشأن ومن الاسباب المهمة للانتحار بين شباننا مطالمة أقاصيص الانتحار في الروايات الغرامية المنقولة الى لساننا وفيها من يتحجر او يتسرع في الانتحار لاسباب طفيفة وهمية ومؤلف الرواية يحسن ذلك العمل ويعدُّه من الفضائل . فاذا كان القارىء ضعيف الحكم انتقاد بما تؤثره عليه تلك الكتابة الى استحسان الانتحار والتشبه به عند الحاجة - فالانتحار فظيعة من الفظائع البشرية المحرمة شرعاً وادباً ولا يقدم عليها الا من مسه الخبل او غلب عليه الحين والضعف

(الانتحار المزمّن) على اتانرا بالغا في اعظام عمل المنتحرين « الانتحار الحاد » - ونريد به قتل النفس الذي يرتكبه المرء عن حدة او غضب او يأس فياتمس الموت العاجل - وفاتنا النظر في « الانتحار المزمّن » وهو قتل النفس على مهل ومرتكبوه يزيدون على اضعاف اولئك - ان بين ظهراينا مئات والوفاء يقتلون انفسهم بعادات تملك فيهم فتتخر عظامهم وتذيب اكبادهم وتقرح امعاءهم وتشوش أعمال ادمعتهم فتفسد آدابهم وتهدم منازلهم وتسقط بهم الى حضيض الذل والضعف - ولو أردنا تعداد الرذائل التي يعد مرتكبها منتحراً لضاق بنا المقام فنشير الى بعضها ونبدأ برأسها وهو المسكر « رأس المعاصي » - ألا تعدون السكير منتحراً وهو انما يستدني أجله بما يتعاطاه من تلك « الارواح الشريرة » فضلاً عما يأتيه من الاضرار في اثناء ذلك الانتحار « المستطيل » من القدوة السيئة وما قد يورث اولاده من العلل البدنية والعقلية كما فصلنا ذلك غير مرة

ومن ضروب الانتحار المزمّن « الفحشاء » وفي الاشارة اليها ما يغنينا عن تدنيس القلم في تفصيل اضرارها

ومن قيل الانتحار المزمّن أيضاً « المقامرة » فان الاسترسال فيها يضعف البدن ويورث العلل ويفسد الاخلاق وكثيراً ما كانت المقامرة علة للانتحار

وقل نحو ذلك في سائر الرذائل على اختلاف ضروبها . فانها مجلبة للاسقام والعلل وتنتهي بالموت . ومن يعمل الفكرة في ماجريات الطبيعة يرى من النواميس الادبية الثابتة ان الذين يحيدون عن طريق الفضيلة يعرضون انفسهم للهلاك وينتحرون « انتحاراً زمنياً » وشواهد الحال اكبر دليل

المسكر والهيئة الاجتماعية^(١)

لم تر المدنية سوساً انخر في جسمها من المسكر . وقد يعترض ان الفحشاء والمقامرة اكثر ضرراً واسوأ مصيراً . لكنك اذا نظرت الى العاقبة وفكرت في الاسباب والمسببات رأيت المسكر اكثرها ضرراً لانه كثيراً ما يكون الباعث على سائر المنكرات لان الانسان يعمل في سكره ما لا يجراً عليه في صحوه ولذلك قالوا « السكر رأس المعاصي » وهي حكمة مبنية على الاختبار وقد يتبادر الى الازهار اننا نريد بالسكيرين الذين يترنحون ويمربدون ويخلطون في اقوالهم او يفقدون رشدهم او يتقيأون ما في أحشائهم . نعم اننا نريد هؤلاء ولكننا نريد أيضاً طائفة من الادباء وأهل الوجاهة أدمنوا على المسكر بالاقتداء أو الاستطراق وهم لا يحسبون انفسهم في عداد السكيرين لانهم لا يمربدون ولا يترنحون ولا يفقدون رشدهم بل قد يكونون في حال سكرهم أوعى منهم في حال الصحو . ولكنهم مع ذلك مولعون بالشرب مدمنون عليه فاذا مالت الشمس انقبضت نفوسهم واطلمت قلوبهم ولا يزالون في تلك الظلمة الى أن تشرق شمس الحياء في الكأس ثم تدب في عروقهم ديب الافعى ولكنها تطربهم وتفرج همومهم فيعاقرونها ساعات متوالية وهي تزيد وجوههم اشراقاً وقلوبهم انبساطاً وربما دام سرورهم الى آخر الليل . وقد يثابرون على هذه الحال اياماً أو أشهراً أو اعواماً وهم لا يرون ما يكدرهم ولا ما يدعو الى العدول عن معاقبتها . وقد ترى جماعة منهم يزادون سمناً وصحة (بحسب الظاهر) فلا غرو اذا أعدها بعضهم علاجاً شافياً لكل الامراض فاذا أصابته الحمى عمد الى البيرة واذا خاف الوباء الوافد تدرع بالكنياك أو الويسكي

وهناك فئة ثالثة من مدمني الخمر يشربونها لتنبية شهوة الطعام أو للمساعدة على الهضم أو نحو ذلك من الفوائد الصحية (على زعمهم) . فهم لا يتناولونها الا قبل الاكل أو على المائدة ويقاخرون بتناولها ويصفونها لاصدقائهم واخصائهم دواء شافياً . ولكنهم مع ذلك قد أدمنوا عليها حتى أصبحوا لا يستطيعون طعاماً ولا بهناً لهم زاد الا اذا جعلوا فراشه كأساً أو كوؤوساً من العرقى أو الكنيك أو البيرة

وهناك طائفة أخرى من مدمني المسكر يريدون به ازالة الهموم أو استعجاب المسرات وهم السواد الاعظم من المدمنين واكثرهم من اواسط الناس واكبرهم وفيهم جماعة كبيرة من أهل الوجاهة يبتنا . منهم من يشرب في منزله ومنهم من يشرب في الحانات وأما كن اللهو وهم يفعلون ذلك ولا يعدون أنفسهم من المدمنين لانهم لا يسكرون ولا يعربدون . ولكن ضرر السكر لا يفوتهم واذا فاتهم ضرره الاجتماعي أو الادبي فلا يفوتهم ضرره الصحي . ان بضعة أقذاح من الخمر متى صارت عادة تتطلبها النفس ولا ترتاح الا بها يغلب أن تطلب الزيادة منها . نعرف غير واحد من خيرة الادباء ومتخرجي المدارس المالية سيقوا الى هوة السكر حتى أدمنوه وهم لا يشعرون وكانوا في بادئ أمرهم ينتقدون كل شارب ثم أجازوا لانفسهم قدحاً قبل الطعام على اعتقاد أنه لا يضر وهم في اثناء ذلك يمزأون بالمدمنين ويؤنبونهم ويستخفون احلامهم ويعجبون لتعلقهم بالشرب وكيف أنهم لا يستطيعون ابطاله ثم ما لبثوا أن تدرجوا هم حتى صاروا من المدمنين . وسواء زاد مقدار ما يشربونه أم ظل قليلاً ان الضرر واقع على الصحة لا محالة لان كبد مدمني المسكرات تختلف عن كبد سوام وشرايينهم تختلف عن شرايينهم ومعدم تختلف عن معدم كما فصلنا ذلك وصورناه في السنة الثامنة من الهلال

ويقال بالاجمال ان القوة الحيوية في مدمني الخمر أضعف منها في سوام ولا يظهر ضعفهم من هذا القبيل الا اذا طرأ عليهم مرض يشفي منه غير المدمن بأسبوع فلا يشفي منه المدمن بأسابيع . واذا كانت العلة شديدة تقضي على حياة السكير فلو لم يكن سكيراً لشفى منها . وشواهد ذلك كثيرة يعرفها الاطباء . فقد رأيناهم مراراً بجانب فراش العليل اذا سئلوا عن حاله وهل على حياته خطر أجابوا « لو لم يكن مدمناً المسكر لكان الشفاء مرجحاً أما وهو من المدمنين فالامل في الحياة ضعيف » - ولا ينتبه مدمن الخمر الى هذا الضعف وهو في حال الصحة لانه يرى جسمه يزداد سمناً

ووجهه اشراقاً ولو تفحص أحشاءه لرأى كبده تضر وشرايينه تتصلب وأمعاءه تضعف فتداهمه الشيخوخة قبل زمن الكهولة ناهيك بما يظهر من دلائل الضعف في عقله أو خلقه أو آدابه . لان المسكر لا يقتصر ضرره على الابدان فقط ولكنه يتطرق الى العقول والاخلاق والآداب ولا يثبت ذلك صريحاً الا الاحصاءات الطبية والاجتماعية وهي شهادة الارقام لا سبيل الى دفعها . فقتصر على احصاء اضرارها في العقول والآداب وقد تقدمت الاشارة الى اضرارها البدنية

ويؤخذ من الاحصاءات الاخيرة عن حوادث الجنون في العالم المتمدن نقلاً عن كشوف المستشفيات المينة فيها الاسباب ان الحوادث الناتجة عن ادمان المسكرات تتراوح بين ربع عدد المصابين ونصفهم باختلاف الممالك والاقاليم أقلها في ذلك انكلترا وويلس وأكثرها باريس على هذه الصورة نقلاً عن تقارير المستشفيات في البلاد المذكورة

حوادث الجنون الناتجة عن المسكر

اسم الاقليم

من ٢٥ - ٣٠ في المئة

الولايات المتحدة

» » ١٤٠٦

انكلترا وويلس

» » ٦٢

اسكتلاندا

» » ٥١

باريس

» » ٤٠

فيينا

» » ٤٥

بروسيا

وأما تأثير المسكر على الاخلاق والآداب فيستدل عليه من احصاء الجرائم التي يسببها السكر وهذا جدول الجرائم الناتجة عن المسكر بالنظر الى مجموعها باختلاف البلاد الآتية

الجرائم الناتجة عن المسكر

اسم البلد

٩٠ في المئة

انكلترا وويلس

» » ٥١

ماساشوسيتس باميركا

» » ٤٦

اوبورن

» » ٩٠

اسكتلاندا

الجرائم الناتجة عن المسكر

اسم البلد

٨٠ في المئة

ايرلندا

» » ٤٣

المانيا

» » ٥٨

فيينا

» » ٨٣

باريس

وهناك ضرر عظيم الاهمية يرجع سببه الى المسكر ايضاً نغني الفقر . ويؤخذ من احصاء الفقراء في ماساشوسيتس ان ٣٩ في المئة من الفقراء سبب فقرهم المسكر وفي سائر الولايات المتحدة نسبتهم ٣٣ في المئة وفي انكلترا بين ٣٣ و ٥٠ وفي المانيا ٧٧ وفي جنيف ٩٠ في المئة

والخلاصة ان نحو ثلث الفقراء المتشرين في انحاء العالم المتمدن سبب فقرهم ادمانهم على المسكر هم أو آباؤهم فولدوا ضعاف البنية لا يقوون على العمل . وان نحو ربع المصايين بالخيل أو الجنون سبب جنونهم الادمان على المسكر وقل نحو ذلك في اصحاب الجرائم

ومما ينبغي الالتفات اليه من عواقب المسكر الضرر في النسل . ومن المقرر المشهور ان ابناء السكيرين اهل عاهات ويغلب فيهم البله والجنون والسكاح والصرع ويكثر فيهم سوء الخلق والميل الى المنكرات كالسرقة والفسق ويتسلسل ذلك في أعقابهم حتى ينقرض نسلهم

(١) الجامعة أو العصبية

والجامعة الاسلامية

تحدث الناس طويلاً وتناقلت الصحف فصولاً في معنى الجامعة الاسلامية او التعصب الاسلامي وتناقشوا في المراد من ذلك فرأينا ان نقول كلمة في هذا الباب من الوجهة التاريخية الاجتماعية بالنظر الى العالم على الاجمال والى الاسلام على الخصوص من عصبية العرب في الجاهلية حتى الآن

١ - العصبية على العموم

العصبية نسبة الى العصبية وهي « قوم الرجل الذين يتعصبون له وبنوه وقرابته لايه » ويريدون بها اجتماع القوم للدفاع عن مصالحهم المشتركة . والاصل فيها اجتماع الاقرباء من اهل الرجل لايه ثم اطلقوها على سائر الاهل والاقارب من القبيلة الواحدة او القبائل المتقاربة . ولما صارت العرب امماً وطوائف توسع المولدون في اطلاقها على الامة ثم ابدلوها بلفظ « الجامعة » يريدون بها مصلحة عامة او خصائص مشتركة يجتمع تحتها طائفة من الناس كالدين او الوطن أو النسب

والانسان اجتماعي من فطرته أي أنه ميال الى تبادل المنفعة بالاعانة والاستعانة . ولعل السبب في ذلك كثرة حاجاته وعجزه عن الاستقلال في قضائها فجره ذلك الى اتئحال أسباب الاجتماع وهي كثيرة مثل أسباب ضعفه . واقدم وسائل الاجتماع القرابة وهي عصبية النسب ثم الوطن والدين واللغة ثم العادات والاخلاق والمهن والحرف حتى الجنس واللون والزواج والعزوبة والشباب والسكولة والطول والقصر مما لا يمكن حصره . وقد يشترك الرجل بجامعة النسب مع واحد وبجامعة الدين مع آخر وبجامعة الوطن مع آخر . وهكذا من حيث المهنة والعادة واللون والسن والطول والزواج وغيرها . كأن يكون طبيباً فيجتمع مع الاطباء بجامعة المهنة او محام فمع المحامين او تاجر فمع التجار . وان كان متزوجاً فهو من جماعة المتزوجين او شاباً فمن الشبان او شيخاً فمن الشيوخ . ويجتمع بجامعة الرجولة مع الرجال وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى

ولا ينتبه أحدنا لهذه الجامعة او تلك الا عند الاضطراب الى الاجتماع للدفاع او هجوم او الاشتراك في مصلحة عامة . فاذا رأيت النساء ظالماً من الرجال مثلاً اجتمعن عليهم واتحدن بجامعة الاثوية كما يفعلن في العالم المتتمدن اليوم . ويجتمع اليوم الرجال من الجهة الاخرى بجامعة الرجولة للدفاع . وفي حال آخر يجتمع بعض نساء هذه الطوائف وبعض رجالها معاً بجامعة العصبية للدفاع عن الاهل او بجامعة الوطن للدفاع عن البلد او بجامعة الدين للذب عن حوضه . وفي كل حال لا يكون للجامعة معنى ولا هي تبدو للوجود ان لم يكن ثمت ما يبعث عليها من التماس التعاون على مصلحة مشتركة

وتتفرع الجامعة الواحدة الى فروع يشترك آحاد كل فرع منها على آحاد الفرع

الآخر واكثر ما يقع ذلك في الدين والوطن . فاهل القاهرة مثلاً تجمعهم مدينة القاهرة ولكن ابن هذه المدينة يجتمع مع ابن الاسكندرية على غير المصري ويجتمع مع أهل الشرق على أهل الغرب . والمصري المسلم يجتمع مع المصري غير المسلم بجامعة الوطن ومع السوري والعراقي بجامعة اللغة ومع الفارسي والهندي بجامعة الدين . واعتبر هذا التفرع في كل بلد ودين ولغة فترى الجامعات عديدة يشترك بها الناس بعضهم على بعض او مع بعض على التقاطع والتضارب . ولو رسمنا تلك العلائق خطوطاً بين الانسان ومن يشترك معهم بجامعة او غير جامعة لرأينا كلاً منا عبارة عن مركز تنبعث منه الخطوط انبعاث الاشعة من جسم منير حتى تتقاطع وتشبك بالخطوط المنبعثة من جسم آخر على شكل مرتبك متقاطع

فاسباب الاجتماع عديدة ميسورة لكل انسان ولكنه انما يجنح الى احدها اذا مسته الحاجة تبعاً لما يتوسمه من مصلحته بالاجتماع . فاذا خاف أهل عصبية او قيل من عدو يسطو عليهم اجتمعوا عليه بجامعة النسب وهم الاهل والاقرباء فاذا لم ينفعهم ذلك استعانوا بجامعة الوطن فاذا اعجزهم التغلب بها توسعوا بجامعة الدين او اللغة ويختلف ذلك باختلاف المصور وتباين الاحوال

واذا نظرنا الى الجامعة نظراً عاماً رأينا اوسعها واشملها اربع جامعات وهي : جامعة النسب وجامعة الوطن وجامعة اللغة وجامعة الدين . واذا راجعت التاريخ القديم رأيت الناس يختلفون من حيث اعتمادهم على احداها باختلاف حاجتهم اليها ويختلف ذلك في الامة الواحدة باختلاف ادوار تمدنهم

٢ — الجامعة عند الامم الاوربية

من اظهر اسباب الاجتماع عند الامم القديمة الوطن او اللغة فقد كان اليونان يجتمعون على الفرس والفرس على المصريين وكانت كل امة من هؤلاء تنقسم فيما بينها باعتبار البلاد فاهل اثينا يحاربون اهل سبارطة وهؤلاء يحاربون اهل طيبة وكل منهم يحارب رومية ولما اتسع نطاق مملكة رومية أصبحت اللغة أو الجنس أو الدولة جامعهم . ولما اعتنقوا النصرانية وصارت ديانة القياصرة غلبت عليهم جامعة الدين واللغة معاً وتفاوتت جامعة الدين على الخصوص لما ظهر الاسلام وفتح المسلمون بلادهم . حتى اذا ضعفت الدولة الرومانية في اوربا وتشعبت مملكتها الى فروع اخذ كل فرع بالاستقلال والنمو على حدة وجعلوا جامعهم التي يجتمعون بها ويدافعون عنها

اللغة فتكونت دول فرنسا واسبانيا وإيطاليا وغيرها - فاعتمد كيف استعانوا على الاستقلال بجامعة الوطن وأغضوا عن الدين . فلما نهضوا لمحاربة المسلمين واسترجاع بيت المقدس عادوا الى تلك الجامعة لأنها تشملهم جميعاً تحت راية واحدة وحملوا على الشرق الحملات الصليبية المشهورة . فلما دحروا وعادوا الى بلادهم وتنهت فيهم روح الارتقاء وطلبوا العلم مكنوا استقلالهم باغفال اللغة اللاتينية وهي بقية الجامعة الرومانية . فبعد ان كانت لغة العلم والسياسة عند الامم التي تخلفت عن دولة رومية نبذوها واتخذت كل امة لغتها بدلاً منها . فزادت العصبية الوطنية رسوخاً في تلك الممالك ولا تزال هي جامعتهم الكبرى

ومع ذلك فللجامعات الاخر آثار تظهر عند الاقتضاء لان الكاثوليك اذا رأوا من الأنجليين حركة يخافون ضرراً تضافرت الدول الكاثوليكية بجامعة الكتلكة على دفعها واذا رأى أهل اوربا حركة اسلامية في الشرق تباحثوا في الجامعة النصرانية . وكثيراً ما تباحثت الامم التي اصلها لاتيني كالإيطاليان والاسبان ان يحيا جامعة اللغة المشتركة باسم الشعوب اللاتينية وهكذا فعلت الشعوب التي تشترك باصل جرمانى فانها أحيت بينها جامعة الشعوب الجرمانية . وهم في كل حال لا يلتمسون هذه الجامعة او تلك الا عند الحاجة الى احداها

٣ - الجامعة الاسلامية

واعتبر ذلك في الشعوب الشرقية واقربهم عهداً منا العرب فقد كانوا قبل الاسلام أهل جاهلية ورحلة لا دين لهم ولا وطن فلم يروا بداً من اجتماعهم تحت راية النسب او اللغة وهما متلازمان فعنوا بحفظ انسابهم وتفاخروا بها وبالاموال في استقصائها على ما يبناه في الجزء الرابع من تاريخ التمدن الاسلامي . فكانت عصبية النسب جامعتهم الكبرى يجتمعون اليها ويختصمون بها فيتحد القحطانيون على العدنانيين واليمية على المضرية وقيس على كلب ونحو ذلك

وما زالت قبائلهم تتفاخر بالانساب وتتألب بالعصبية حتى جاء الاسلام واحتاجوا الى جامعة يحاربون بها الامم الاخرى فاجتمعوا باسم الدين واغفلوا عصبية النسب لانها كانت سبباً في اختلافهم واتقسام قوائيمهم . وأصبح المسلمون اخوة عربهم وعجمهم قحطانيهم وعدنانيهم فظلوا كذلك ايام الراشدين . حتى اذا تسلط بنو أمية واحتاجوا الى مناوأة بني هاشم ومن والاهم من المسلمين العرب وغير العرب لجأوا الى عصبية

النسب واعادوا ما كان قد تومي منها واصبح المسلمون مع اجتماعهم بالاسلام حزينين يجمع احدهما النسب العربي ويعرف الآخر بحزب غير العرب وهم الموالي او الشعوبية . والعرب انقسموا الى نحو ما كانوا عليه قبل الاسلام من اليمنية والمضرية وما يتشعب منها . وكانوا انما يلجأون الى هذه الجامعات لغرض سياسي على ما قدمناه عن ام النصرانية في اوربا

وكان العرب الى اوائل دولة الامويين لا يسألون بالوطن ولا يعرفون الجامعة الوطنية لانهم كانوا في صدر الاسلام لا يزالون على بداوتهم اذا ساروا للفتح ساقوا معهم اولادهم ونساءهم وابلهم وسائهم كما كانوا يتغازون في ايام جاهليتهم واذا فتحوا بلداً نصبوا خيامهم في ضواحيه مما يلي المدينة (مركز الخلافة) وقد نهام عمر عن الزرع فكانت نهام عن التخصر رغبة منه في استيفائهم جنداً محارباً لا يمنعمهم عن الجهاد عقار ولا بناء ولا يقعدهم عن القتال ترف ولا قصف . فكانوا يقيمون في معسكراتهم بضواحي المدن كما يقيم جيوش الاحتلال في هذه الايام وكانوا يعبرون عن ذلك بالحامية او الرابطة . فكان المسلمون في عصر الراشدين فرقاً تقيم كل فرقة في ضاحية مدينة من المدن الكبرى وتسمى جنداً وكانت عساكر الشام اربعة اجناد تقيم في ضواحي دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وعساكر العراق كانت تقيم على ضفاف الفرات مما يلي جزيرة العرب في معسكرين صارا بعدئذ مدينتين هما البصرة والكوفة . وكانت جنود مصر تقيم في معسكر على ضفاف النيل في سفح المقطم مما يلي بلاد العرب حيث بنيت القسطة بعد ذلك

فاما طال مقامهم في تلك المعسكرات وافضت الخلافة الى بني امية ورجعوا في الشام عن الحجاز هان على المسلمين اغفال امر المدينة وسائر الحجاز وطاب لهم المقام في الشام وسائر الامصار وانغلوا وصية عمر فاقتنوا الارضين والضياح وغرسوا المغارس فتحولت تلك المعسكرات بتوالي الاحيال الى مدن عامرة اشهرها البصرة والكوفة والقسطة والقيروان مما بناه المسلمون غير المدن القديمة التي استوطنوها في الشام ومصر والعراق وفارس وغيرها . وما زالوا حتى اقتنوا المغارس والضياح وابتنوا المنازل والقصور واشتغلوا بالزراع وتعلموا أشغال اهل المدن من تجارة وصناعة ونشأت فيهم الجامعة الوطنية في اهل كل بلد الى بلدهم

ومما حمل المسلمون على اتخاذ الجامعة الوطنية انقسام الاحزاب السياسية يومئذ باعتبار المدن ، واول خلاف وقع بين بلدين اسلاميين الخلاف الذي وقع بين الشام والكوفة في ايام عثمان بن عفان ثم حدث الانقسام الوطني السياسي بعد مقتله وكان اساسه الميل الى احد طلاب الخلافة يومئذ وهم علي ومعاوية وطلحة والزبير فكان اهل الشام مع معاوية لانه اميرهم ومعظمهم من قريش وكان اهل المدينة مع علي وهم الانصار وتبعهم مصر وكان اهل الكوفة مع الزبير واهل البصرة مع طلحة . فلما كانت واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وقتل طلحة والزبير انحاز اهل العراق الى علي فضلاً عن اهل المدينة ومصر وظل اهل الشام مع معاوية . ولما كانت واقعة صفين ومسألة التحكيم سنة ٣٧ هـ وغلب عمرو بن العاص بمكره فبوع معاوية وترك مصر لعمرو ابن العاص صارت مصر في حوزة معاوية . ولما قتل علي سنة ٤٠ هـ ومات الحسن ثم قام الحسين يطالب بالخلافة بعد موت معاوية وخلافة يزيد استعان الحسين باهل العراق وسافر اليهم فبايع اهل الحجاز لابن الزبير . فاصبح الحجاز مع ابن الزبير والعراق مع الحسين والشام ومصر مع معاوية - وهؤلاء انما لجأوا الى الجامعة الوطنية لانها توافق ما في نفوسهم من طلب التغلب

وكان لاهل كل بلد غرض خاص في السياسة عبرنا عنه بالعصية الوطنية وهي غير عصبية النسب اذ قد يجتمع اهل البلد الواحد على غرض واحد ويعرنون بجامعة واحدة كاهل البصرة والكوفة والشام والفسطاط وهم اخلاط من قبائل شتى . فكان لكل بلد في عصر بني أمية جامعة خاصة يجتمع بها ويحارب باسمها . وهو مؤلف من قبائل تختلف نسباً وعصبية وفيهم قبائل اليمن ومضر وربيعة وغيرها يقيم كل منها في حي خاص بها يعرف باسمها فكانت البصرة مثلاً مؤلفة من خمسة اقسام تعرف بالاحماس كل خمس لقبيلة وقس على ذلك سائر البلاد

ولما طمع بنو العباس في الخلافة واستعانوا على نيلها بالفرس اشتغل المسلمون عن اللغة او الجنس وافترقوا الى حزبين كبيرين فاصبح الفرس في جانب والعرب في جانب وطال اختصاصهما حتى غلب العنصر الفارسي على الخصوص بعد مقتل الامين وانتصار المأمون باخواله الفرس وضعف العنصر العربي . ولما تولى المعتصم واستكثر من الاجناد الاتراك ظهرت العصبية التركية وأخذت تتقوى بتوالي الاجيال حتى انشأوا الدول الكبرى . ثم ظهر المغول والشركس والاكراد وغيرهم . ولم ينقض القرن

السابع للهجرة حتى اصبح المسلمون أحزاباً تحارب بعضها بعضاً من بادية تركستان في الشرق الى شواطئ اقرينيا الغربية في الغرب غير انفسام العرب بعضهم على بعض وناهيك بالاحزاب المذهبية الدينية . وكل طائفة انما اتخذت الجامعة التي تتوقع التغلب بها . وانغضوا عن الجامعة الإسلامية لذهاب الحاجة اليها بضعف الدول غير الإسلامية عن مناوأتهم او لاستغلالهم بالاختصاص فيما بينهم عن محاربة اعدائهم

حتى اذا نهض الافرنج تحت راية الصليب وتألبوا لاكتساح الشرق وفتح بيت المقدس شعر المسلمون بافتقارهم الى جامعة الدين فانغضوا عن كل جامعة غيرها وتكاتفوا لرد هجمات الصليبيين تحت راية الاسلام . ولم يحسن الصليبيون الاجتاع كما أحسنه المسلمون فغلبوا على ما في ايديهم من بلاد الشام وعادوا الى بلادهم

ولما فرغ المسلمون من تلك الحرب الدينية رجعوا الى ما كانوا فيه من الاختصاص من قبل . واكثر اختصاصهم بين السنة والشيعة او الترك والفرس لاستغلال أهل اوربا عنهم بانشاء دولهم الحديثة . حتى اذا شعر المسلمون بضعفهم في العصر الاخير ورأوا مطامع تلك الدول في بلادهم عادوا بطبيعة العمران الى البحث عن جامعة تلم شعنتهم فلم يروا خيراً من جامعة الدين فلجأوا اليها وقاموا ينادون بها - وهو أمر طبيعي لا غرابة فيه ولا هم يلامون عليه

أما ما يترتب على المناداة بتلك الجامعة فليس من شأن الهلال البحث فيه لكننا بالنظر الى ما نعلمه من قواعد الاجتماع ونواميس العمران وما نعهده من أحوال المسلمين في الاقطار المختلفة الآن لا تتوقع من وراء هذه الجامعة خطراً سياسياً . على اننا نرجو للمسلمين منها نفعاً ادبياً أو مالياً بما ينجم عن الاتحاد من تبادل المنافع التجارية أو العلمية والتعاون على الاعمال الخيرية بين مسلمي الشرق من اقصاده الى اقصاده ولا نظنه يتعدى ذلك - الا اذا تهور المتطرفون في تقرير العامة واثارة خواطرم حتى يبدو منهم ما يسميه المتمدنون تعصباً دينياً فينقلب ارجوناهم من النفع لهم ضرراً عليهم والله اعلم

نظام الاجتماع في فرنسا^(١)

نظام الاجتماع من حيث أساسه واحد في كل بلد وإنما يختلف في تفاصيله باختلاف العصر والاقليم . فالهيئة الاجتماعية في أبسط أحوالها مؤلفة من العائلة والحكومة والكنيسة . فإذا ارتقت نشأت فيها المدارس والجمعيات الأدبية والشركات الاقتصادية . وتختلف هذه الجماعات في كل بلد باختلاف طبائع أهله ونوع مدنيته وسائر أحوالهم . ف نظام الحكومة يختلف بين الاستبدادي والدستوري والجمهوري . ونظام العائلة في الشرق غير ما هو في الغرب وفي هذا العصر غير ما كان عليه قبله . كانت العائلة عندنا الى أوائل القرن الماضي على شكل الحكم المملكي المطلق - الأب رئيس العائلة يستبد في أهله استبداد السلطان المطلق في رعيته يزوج من شاء بمن شاء ويعهد الى من يريد بما يريد من عمل أو سفر أو إقامة - لا يرون في ذلك غرابة . ثم تعدل هذا النظام بعد دخولنا في المدنية الحديثة فأخذت العائلة تقترب من النظام الدستوري لكنها ما زالت أقرب الى الحكم المطلق ويختلف ذلك باختلاف الأمم والأديان

وبناء على ما للأقليم أو البيئة من التأثير في أبدان الناس وعقولهم وطبائعهم فاختلاف الاقليم اوجب اختلاف الأمم في كل ذلك فلتنظر في طبائع الأمة الفرنسية على الأجمال

طوائف الفرنسيين

الفرنساوي عامل نشيط يدأب على العمل بحماسة وهمة . ولا سبأ أهل الزراعة منهم فانهم اقوياء الابدان يعملون في حقولهم بنشاط . ولا تجد في فرنسا بقعة تقبل الزراعة غير مزروعة . وكذلك العمال والصناع وسائر طبقات الناس فانهم نشيطون في ذهابهم وايابهم وفي كلامهم واشغالهم وفي أسفارهم - فان احدهم ينزل من القطار ويحمل حقيبته (الشنطة) بيده فإذا كان منزله قريباً سار الى بيته ماشياً لا يرون في ذلك بأساً . على أنهم اذا طلبوا غلاماً أو رجلاً يحمل لهم الحقيرة في أثناء الطريق لا يجدون . وهي صفة بشرك فيها أهل أوربا كافة . ويتأثر بها الشرقي حالماً بطأ تلك القارة . وتقوم في نفسه رغبة في الهمة والنشاط فإذا رجع الى بلده عاد الى طبعه . الا اذا توطن أوربا

طويلاً - ومرجع ذلك الى طبيعة الاقليم . والفرنساوي ذكي الفؤاد سريع الخاطر حاضر الذهن فصيح خفيف الروح فيه ميل الى الفنون الجميلة وذوق في الصناعة الجمال

ولفرنساويين ذوق في الجمال لا تضارعهم فيه امة . يظهر ذلك خصوصاً في الباريسيين فانهم قدوة الامم في الازياء على اختلاف أشكالها . ولهم ذوق في توليد الجمال مما لا جمال فيه من نفسه بترتيب أجزائه على شكل لا قاعدة له الا الذوق . وهو على أرقى درجاته في باريس . نجد المرأة القبيحة الحلقة تنزيا بزي يناسبها وتصفف شعرها تصفيفة تناسب ملامح وجهها فتظهر جميلة . ولهم في تصفيف الشعر واختيار شكل البرنيطة ولونها طرق تختلف باختلاف تقاطيع الوجه ولونه وشكل الانف والعينين والحيهة والفم وغير ذلك فيوفقون التصفيفة (التواليت) والبرنيطة على حال الوجه فيظهر جميلاً

ويتبع ذلك ميلهم الى تزويق الحديث فانه من قبيل رغبتهم في الجمال الخارجي . فكما يوفقون بين تصفيفة الشعر وحجم البرنيطة وشكل الوجه حتى يظهر جميلاً فهم ايضاً يحسنون الحديث حتى يلائم ذوق السامع فتنبسط نفسه له . لكنسه لا يرى النتيجة دائماً كما كان يتوقعها . فالفرنساوي فيه ميل الى اتقان الظواهر أكثر مما الى اتقان البواطن وهو من قبيل حبه الجمال . ويخالفه الانكليزي في ذلك كما سنبينه فيما بعد . ومن قبيل ميلهم الى الجمال واقتدارهم على توليده ما تجده في مخازنهم وشوارعهم من الزخارف التي يراد بها التحسين . اي ان تظهر السامة المعروضة احسن مما هي . ومن هذا القبيل استخدام المرايا في الواجهاات لايهام الناس أنها اكبر مما هي . واذا كان الحانوت صغيراً جعلوا جدرانهم من المرايا فيظهر أضعاف ما هو

الاقتصاد والترتيب

والفرنساوي مقتصد من فطرته وترى الاقتصاد ظاهراً على الخصوص في القرى فان اصحاب المزارع الصغرى يعيشون عيشة بسيطة . والفلاح يشتغل وامرأته تشتغل واولاده يشتغلون كل على قدر طاقته وحسب مياله . ولا بد لكل منهم ان يقتصد شيئاً من ربحه مما كان قليلاً فيحفظ به لنفسه . وهم يستخدمون الفرش البسيط عكس اهل المدن وكذلك ملابسهم . فالفلاح الفرنسي بسيط في لباسه واخلاقه ومما يكن من فقره فانك تجدده نظيف الثوب نظيف الفراش بأكل على المائدة

بالشوك والسكينة بترتيب ونظافة . فلا تستكف اذا دخلت بيته من ان تجلس على مقعده وتأكل من طعامه وتشرب من كأسه . وليس كذلك الفلاح المصري . ولا سبيل الى اصلاحه الا بتعليم المرأة وتثقيفها وهي المدبرة لكل ذلك

معرفة الواجب

ومن خلال الحميدة الشائعة في معظم اوربا ونحن في حاجة اليها « معرفة الواجب » وهي تشمل كل اعمال الانسان . نعي ان يشعر الانسان بما عليه فيؤديه من تلقاء نفسه بدون استحثاث او ارهاب او ترغيب - لو فعل ذلك كل انسان لاستغنى الناس عن الحكومات وابطلت المحاكم . ولكن الناس يتفاوتون في هذا الباب واكثرهم شعوراً بالواجب اقربهم من المدنية والارتقاء . وهو يستلزم الامانة وهي اساس المعاملات واكبر اسباب النجاح - ما اجمل ان يشعر الانسان بما عليه فيؤديه بلا وازع او مراقب . والفرنساويون من اكثر الامم شعوراً به وكذلك الانكليز . وربما ظهر الانكليز اكثر قياماً بالواجب لانهم يعملون كثيراً ويقولون قليلاً . واما الفرنسيون فيله الى زخرف الكلام يظهر اعماله قليلة . لكن الشعور بالواجب قوي في كليهما

ومما يجدر ذكره ان قومساري الترامواي لا رقيب (مفتش) عليهم وهم لا يسلبون الشركة باستعمال التذكرة مرتين او قبض الثمن بدهن اداء التذكرة لان القومساري الفرنسي او الانكليزي نشأ وقد غرست والدته في ذهنه من طفولته ان يعرف ما له فلا يطمع بسواه . ولو اراد السائق ان يطمع فان الشعب ارقى من ان يتساهل في هذا لانه تربي تربية راقية وعرف ما له وما ليس له فهو يعلم ان تساهله مع القومساري في امر التذكرة انما هو مشاركة له في السرقة . ولكن كثيرين عندنا يتساهلون في ذلك وبعضهم يحرض القومساري على السرقة . والسبب في ذلك ضعف اخلاق العامة عندنا . وان مثل الترامواي هذا على بساطته يدل على اخلاق العامة

الثقة وقيمة الوقت وصدق المواعيد

ومن قبيل الامانة المدنية على معرفة الواجب وما يترتب عليها من الثقة المتبادلة ان بعض باعة الجرائد في فرنسا وانكلترا يضمنون اعداد الجريدة فوق طاولة على الرصيف خارج المحلات وبجانبا عليها . فمن اراد ان يتساع جريدة وضع ثمنها في

العلبة وتناول الجريدة ولا رقيب عليه . وصاحبها لا يخاف أن يسرقه المارة فيأخذ أحدهم الجريدة ولا يدفع الثمن . وقس على ذلك اثمة المتبادلة في سائر الحرف دخلنا مطعماً في لندن يوم وصولنا من باريس . وبعد الفراغ من الطعام دفعنا لصاحب المطعم ليرة فرنساوية فاعتذر بأن النقود الفرنسية لا تقبل عندهم . ولم يكن عندنا نقود غير فرنساوية . فوقعنا في حيرة وأردنا أن نترك الليرة له ريثما نعود وقد بدلنا النقود . فاعاد الليرة لـبدنا وقال « دعها معك ومتى بدلتها تدفع ما عليك » وكانت هذه اول مرة رأنا فيها الرجل . أليس ذلك من الاخلاق الراقية ؟ ان صاحبها لا يتصور رجلاً عليه حق لا يبادر الى دفعه من تلقاء نفسه . ولا يدل هذا على خلو تلك البلاد من أصحاب الاخلاق الضعيفة ولا كنههم أقل مما عندنا . كما اننا لا نعي ضعف الثقة عندنا في كل الطبقات . وانما نريد الاغلبية

ومن جميل ما نستخدمه عليه معرفة قيمة الوقت وهو يتوقف على معرفة الواجب أيضاً فانهم يقسمون أوقاتهم ويفرقونها على أعمالهم فلا يفصرون بما عليهم ولا يضيعون أوقات اصدقائهم بالزيارة الحبية كما يفعل كثيرون عندنا . فان بعضهم يزورك في ساعة شغلك ولا شغل له ، يعلم انك مشغول فلا يختصر زيارته ولا أنت تجرا على الاعتذار منه لثلاثتهم بالفضاظة . ولكن هذه العادة آخذة بالزوال من بيننا في الطبقة الراقية واعتبر ذلك في صدق المواعيد فانه تابع للشعور بالواجب . وهو ينقصنا لكنه آخذ في الشيوع بين المتعلمين

لا يعني

ومن الاخلاق الفرنسية الشائعة في باريس اشتغال كل منهم بنفسه عن سواه فلا يتعرض أحد الى شؤون جاره بالاستطلاع أو التجسس . وهو من طبائع أهل المدن الكبرى وطبيعي شيوعه في باريس وهي ثالثة مدائن العالم . وتجسس الاخبار والدخول في أحوال الآخرين يكثر في القرى الصغيرة لتفرغ أهلها للأحاديث ولأنهم مطلعون على عورات جيرانهم ولا يخلون من التحاسد أو التباغض . وكلما اتسعت المدينة قلت تلك العادة فيها . ولذلك كان أهل باريس من أكثر الناس بعداً عنها . فان أحدهم يمشي وهمه نفسه ولا يلتفت الى سواه . او يجلس في القهوة ولا يلتفت الى جليده من هو . وقد يكون بجانبه رجل وامرأة يتغازلان أو يتداعبان فلا يهمه ذلك . وهذا ما نعتبره بضعف الخيرة ولا يستطيع الشرقي احتماله . أما

الفرنساوي فيحتمله ولسان حاله يقول « لا يعنيني »
ولكنه مع ذلك جنوح الى النجدة وفيه اريحية اذا استحثته على منقبة اندفع
اليها بكلية ولو جرّه ذلك الى خسارة أو حمله مشقة
المفاخرة بالرجال والحرية

ومن سجاياهم أنهم يفاخرون برجالهم ويعظمون النابغين منهم . وحينما مررت
بشوارع باريس نجد تماثيل العظماء منصوبة في متصالب الطرق أو واجهات القصور
أو في الساحات العمومية يزيد عددها على مئة وستين تماثلاً كبيراً للقواد والملوك
والكتاب والشعراء والفلاسفة والعلماء . وبينها تماثيل بعض مشاهير الأمم الأخرى
مثل دانتي شاعر الايطاليان ووشنطون محرر اميركا وشكسبير الشاعر الانكليزي
وغريالدي القائد الايطالي . غير التماثيل الرمزية عن الحرية أو الاتحاد أو نحوها .
وغير التماثيل المنصوبة في المتاحف والمسارح والمدارس والكنائس والمنازل وهي
عديدة جداً . وأكثرها شيوعاً تماثيل بونابرت على اختلاف أقداره وأشكاله . والتماثيل
تثير في النفوس الحماسة والميل الى الاقتداء بأولئك العظماء . وهي وسيلة حسنة
لاستنهاض الهمم واستحثاث القرائح لا مثيل لها عندنا - الا قليلاً

ويمتاز الفرنسيون عن سائر اهل اوربا بالنزوع الى الحرية على اختلاف
اوجهها . وقد مرت اجيال كانوا فيها نصراء الحرية يأخذون بأيدي طلابها
وينصرونهم بانال والرجال . وأشهر الشواهد على ذلك نصرتهم للاميركان في طلب
الاستقلال من سلطة الانكليز . ومن قبيل تعشقهم الحرية مغالاتهم في مطاردة بعض
الجماعات الدينية لكنهم تطرفوا في ذلك حتى خرجوا به الى عكس المراد بالمدينة .
ففترت الحساسات الدينية ونزع الناس الى الشك في الدين وآل الامر في بعض الاحوال
الى فساد الآداب . لان العامة لا تستغني عن وازع ديني يصلح من آدابها . ومن
أكبر اسباب الفساد لقاء الشكوك الدينية في اذهان الناس

طعامهم وشرابهم

والفرنساويون يكثرون من اكل اللحوم في طعامهم وهو شأن أكثر سكان اوربا
وخصوصاً في البلاد الباردة لاحتياجهم الى المواد اللحمية في مقاومة البرد . ولهذا
السبب ايضاً يكثر من شرب الخمر وتكاد لا تجد بينهم من لا يشرب الخمر على
المائدة رجالاً ونساء واولاداً . وكثيراً ما يجر ذلك الى ادمان المسكر فكثير المدمنون

عندهم ولا سيما في الطبقات السفلى كالعمال والصناع . اما شرب الخمر الاعتيادية فانه عام ولا يشترط أن يكون على المائدة . ولذلك ترى وجوه الفرنسيين مشرقة او مشربة حمرة - ولا يدل ذلك على الصحة دائماً وقد يدل على المرض . و ترى صاحبه يميل الى التعاس بعد الطعام . ويظهر ذلك في ساقه المركبات بباريس . لان أحدهم اذا لم يكن سائقاً مركبته لا يراه الا نائماً على كرسيه ورأسه متدل على صدره وقد احمرت وجنتاه وانتفخت أوداجه . وحوادث المسكر بمصر على كثرتها قليلة بالنسبة الى تلك البلاد . لكننا نشكو من شيوع الحشيش بمصر رغم منعه رسمياً . على اننا سمعنا بوجوده في باريس أيضاً بامكانه يعرفها طالبوه

بقي علينا النظر في امرين مهمين من نظام الاجتماع عندهم نعتني طبقة العامة والمرأة

العامة

ومن قبيل النظام الاجتماعي ان تكون الامة مؤلفة من طبقات ترجع الى طبقتين: الخاصة والعامة ويختلف حال كل منهما باختلاف الامم والاعصر وان تشابهها على الاجمال في كل بلد . فالخاصة وهم أهل الوجاهة والثروة يغلب أن يكونوا ممتازين في نفوذهم ومعيشتهم ويكون العامة تابعين لهم في احوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على تفاوت في ذلك بتفاوت أحوال المدنية وأنواعها

فالعامة في التمدن القديم كانوا كما قال الامام علي « همج رعاع اتباع كل ناعق » وقال معاوية انهم « اشباه البهائم ان جانبوا ساموا وان شبعوا ناموا » وهم نحو ذلك في الشرق الى الآن الا في بعض البلاد الراقية . أما في الغرب فقد تغيرت أحوالهم حتى اوشكوا ان يقبلوا نظام الاجتماع ولا سيما في الممالك الجمهورية ومنها فرنسا وهو موضوع كلامنا في هذا الباب

العامة في فرنسا

ان العامة في فرنسا يختلفون عن عامتنا بامور كثيرة : منها انهم ارقى تربية وأوسع تعليماً فلا تجد فيهم من لا يحسن القراءة والكتابة . وحيثما توجهت ترى البوابين وساقه المركبات وصغار الباعة وخدم المنازل والقهوات حتى مساحي الاحذية يطالعون

الجراند والكتب ويهتمون بالشؤون العامة ويبحثون في السياسة ويتناقشون في حقوق الأحزاب وينتقدون أعمال الحكومة . والسبب في ذلك « التعليم » فانه عام في كل بلد وقرية فتنبت الازهار وتفتح الاعين وتعلم العامي معنى الاجتماع والاتحاد وخصوصاً بعد الانقلاب الذي جعل كل شيء في ايدي العامة لانهم قلبوا الحكومة واستبدوا في الشرفاء والامراء . فتشكلت الاحزاب من العامة وأرقت نفوسهم . ورافق ذلك كثرة الاختراعات الصناعية التي أغنت أصحاب الاموال (الخاصة) عن كثير من العمال فتضايق العمال وهم من العامة واضطروا الى الاجتماع والاحتجاج والمطالبة وهو الاعتصاب . وساعدهم على ذلك شيوع مذهب الاشتراكية واحتياج النواب الى العامة في التصويت عند الانتخابات النيابية وكل نائب يجتهد في اكتساب رضي القوم في البلد الذي ينوب عنه حتي يصوتوا له . فازداد العامة نفوذاً وطمعاً واكثروا من الاعتصاب حتى اتعبوا أصحاب الاموال وحملوهم خسائر عاد معظمها على الجمهور لانها آلت الى ارتفاع الاسعار

فالحربة التي نالها العامي الفرنسي صانت حقوقه من جهة لكنها أضرت به وبالامة من جهة اخرى . لان العامي مهما بلغ من ارتقائه لا يبرح قصير الادراك وانما يتدرب على الاجتماع والصباح مع الصائحين فينحاز الى هذا الحزب أو ذاك لا عن تفطن وادراك وانما هو يساق بهواطفه ويندفع بما يخطر له حسب المؤثرات الخارجية . والعامي الفرنسي مدمن للمسكر كما تقدم . أضف الى ذلك حدة مزاجه فاذا ضربت له على وتر حساس كالدين أو الوطنية أو غيرها اندفع لما تريده منه . فالغلبة لمن يستطيعون استهواء هؤلاء العامة لاغراضهم بالفصاحة أو نحوها

والنفوذ الحقيقي للخاصة لانهم أقوى عقولاً وأكثر وسائل - ذلك هو شأن الجماعات في كل بلد : يختصم الخاصة على السيادة أو الكسب فيستصرون العامة بعضهم على بعض بما يستطيعون من الاساليب فينصرونهم وينفذون أغراضهم والعامة يتوهمون انهم يفعلون ذلك من تلقاء انفسهم . مهما بلغ من رقي العامة وحرية الخاصة هم أصحاب السيادة الحقيقية وهم كالاولياء على العامة يسنون لهم الشرائع ويضعون لهم القوانين ويدربونهم في شؤونهم السياسية والاجتماعية حتى أحوالهم اليومية . فان الحكومة الفرنسية نهتم بها كثيراً وقد فرضت على العامل أن يرتاح يوماً في الاسبوع فاذا لم يفعل عدٌ مذنباً . واذا كان عمله لا يأذن له بالراحة تخدمه المطاعم

والقهوات ونحوها دبرت الحكومة وسيلة تمكنه من الراحة. وذلك أنها أمرت العامل من هؤلاء أن يختار يوماً من الاسبوع يرتاح فيه وعينت من يقوم مقامه في ذلك اليوم ويستولي على أجرته. وعندهم طاقة من العمال تحت الطلب لهذا الغرض. فهذه الوسيلة يشغلون سبع العمال ويريحون جمهورهم. لكن بعض العمال يشتكون من هذه المعاملة لأنها تضيع عليهم سبع دخلهم ولأنهم ينفقون في يوم الراحة أكثر من يوم الشغل. ولأنكيز عناية مثل هذه أو أشد منها في تدبير شؤون العامة سنأتي عليها فيما بعد

المرأة

كانت المرأة في العصر المظلمة بأوروبا وغيرها مرذولة محتقرة تعدُّ من قبيل المتاع. وكان للرجل أحياناً أن يبيع امرأته بالمزاد العمومي. وتفنن الكتّاب والشعراء في هجائها واتقادها. وتباحث اللاهوتيون طويلاً في « هل للمرأة نفس » وزعموا أنها « باب جهنم » و « معمل أسلحة الشياطين وصوتها فحيح الاقاعي » وأنها « نبال الشيطان » و « سامة كالصل وحقودة كالتيين » وقال الشاعر العربي :

ان النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

فلما بزغ نور التمدن الحديث وتحولت العلوم والمعارف من النظريات والتقاليد إلى الاختبار والدرس كان في جملة ما همهم « المرأة » فادركوا خطورة مركزها في الحياة الاجتماعية وإن النجاح معقود بتعليمها وترقية نفسها. لأنها قوام العائلة ومربية الأبناء وشريكة الرجل في أحوال الحياة. فقدموها وعلّموها ورفّعوا منزلتها فقامت تطالب بحقوقها. واختلف الكتاب في مقدار تلك الحقوق لكنهم اتفقوا على احترام المرأة واجلالها حتى مثلوا بها الفضائل والمفاخر. فاذا أرادوا تصوير الحرية مجسمة نحتوا لها تمثال امرأة. وهكذا فعلوا بتمثيل الاتحاد والبلاغة والعمل وغيرها من الفضائل المجردة فانهم يمثلونها بصورة امرأة والفرنساويون من أكثر الأمم احتراماً للمرأة

المرأة الفرنسية

أخرجوا المرأة من ظلمات الجهالة وأطلقوا سراحها واعترفوا بحقوقها وساووها بالرجل ما له وما عليه. فبرزت من خدرها وتعاطت أعمال الرجال وسابقتهم في كثير من أعمالهم لأنها أقل أجرة من الرجل فكثير استخداما في ما تستطيعه من المناصب

والمهن . فمن النساء عندهم بائعات في المخازن وعاملات في المناجم والمصانع والمعامل وخدمات في المنازل وكاتبات في المتاجر والشركات وفي بيوت التلفزيون والتلفون والبريد وحاسبات في المصارف . وقد تعاطين أهم المهن العلمية كالحمامة والطب والتمجير والشعر والتأليف والوعظ والعمل في معامل الكيمياء والبكتريولوجيا وغير ذلك . وانشأت الجمعيات العلمية والادبية والاندسة الاجتماعية . وألقت الأحزاب السياسية المطالبة بحقوقهن . وتعاطين كثيراً من الصنائع الحقةرة او المتعبة فمنهن غارسات في الحقول ومنظفات في الشوارع - حتى سوق المركبات فقد شاهدنا واحدة منهن تسوق مركبة بالاجرة في شوارع باريس فادهشنا ذلك فاخبرنا صديق كان معنا ان في باريس ١٢ سائقة مثل هذه

والسبب في نزول المرأة هذه المنزلة عندهم ان الفتاة الفرنسية تنشأ في منزل والديها كما ينشأ الغلام تعلم كما يتعلم ويطلب منها أن تتكسب بالشغل كما يتكسب هو . وهي تجالس الرجل وتحدثه وتباحثه في كل موضوع كأنها رجل مثله وتسافر للسباحة والاكتشاف وحدها لا ترى في ذلك بأساً او غرابة مما لم نألفه في بلادنا . فان فتاتنا تعلم او لا تعلم ثم تمكث في منزل والديها في انتظار نصيبها للزواج وزينتها الحشمة والحياء ولا يخطر لاهلها أن تعمل عملاً . فهي اما أن تزوج او تبقى عانساً في بيت ابيها ولا تشتغل الا نادراً . وأكثر أشتغالها بالتعليم او الحياطة ويندر أن تعاطى عملاً آخر . ومهما بلغ من حريتها فهي لا تجالس غير معارفها وذوي قرباها

أما الافرنجية فخالما تخرج من المدرسة تمضي الى السوق كما يمضي الشاب فاذا أتتها النصيب تزوجت فيشغلها الزواج عن الارتزاق اكتفاء بعمل زوجها . والا فانها تشتغل هي أيضاً . ولا يخفى ما في ذلك من تضاعف الابدى العاملة في الامة الفرنسية أي ان العمال من الجنسين نحو ضعفي العمال عندنا بالنسبة الى عدد السكان .

والمرأة الفرنسية في القرى والبلاد الصغيرة مثال الاقتصاد والترتيب والعطف على أولادها والأمانة لزوجها وكذلك المرأة في العائلات الراقية من الطبقة الوسطى والعليا . لكن هذه الحرية أدت في المدن الكبرى الى تشويه ذلك الجنس اللطيف في طبقة معينة من العامة . وهذا التشويه أخذ في الامتداد ويخشى ان يجر الى انقلاب اجتماعي وخصوصاً في باريس ام المدائن الجميلة

كنا نشكو من جهل الفتاة الشرقية وحجبها ونحسد الفتاة الافرنجية على تعلمها

وحريتها فلما رأينا حالها في باريس انقلبنا شكوانا وكدنا نرضى بالحجاب والجهل -
 انهم أساءوا الى ذلك المخلوق اللطيف بتلك الحرية المتطرفة. أرسلوا المرأة الى الاسواق
 تخالط الشبان وتبايعهم وتساومهم وتماشرهم وهي ضعيفة حساسة فتعرضت لمفاسد
 كثيرة . وأغراها الشبان بالمال فخدعوها . فلما خرجت من صف الحرائر خدعتهم .
 ثم آل أمرها الى ضياع العمر في الشوارع والازقة لا تجد رزقاً الا باستهواء الشبان .
 وفي القاهرة مثال صغير من تلك الطبقة يعرفن بينات الرصيف . اما هناك فانهن
 ألوف ولا تكاد تخلو منهن حديقة أو منزله أو شارع ولا سبياً في أثناء الليل ولا حرج
 عليهن بحجة الحرية الشخصية . والحكومة الفرنسية تبيح الفحشاء على شروط
 وضعتها وقوانين سنتها . فباحث للمتجربين بالاعراض أن يبتوا المنازل والقصور
 ويحشدوا فيها الغواني أصنافاً وألواناً يعرضون عرض السلع او الاثاث بلا عيب ولا
 حياء ولهم سمسرة في أيديهم شهادات من الحكومة تخول لهم معاطاة تلك المهنة .
 ولهذا الطبقة من المتهتكين مجالس وأندية وجرائد وكتب لترويج تلك البضاعة . وليس
 ذلك جائزاً في اسكترا . ولكن مصر اقدت فيه بالفرنساويين كما اقدت بسواه
 من اسباب تمدنهم . وما كان أجدرنا أن نأخذ الحسن النافع من أسبابه ونعرض عن
 القبيح الضار

الرسايات المصرية

ومن قبيح هذه الحرية في باريس ان من تلك الشباك الجهنمية كثيراً في حي
 يعرف بالحى اللاتيني (quartier Latin) فيه اكثر المدارس العالية التي ترسل مصر
 شبانها ليتلقوا فيها الحقوق أو الطب أو غيرها . ولا مندوحة لهم عن الاقامة هناك
 والتعرض لتلك الاخطار في المراقص والملاعب حيث يختلط الشبان بالشابات . فلا
 ينجو من ذلك الخطر الا قوي الارادة ثابت العزيمة . ولكن الانسان ضعيف
 ولا سيما الشاب القادم من بلاد لا يرى فيها المرأة المحتجبة وهو في بلده بين أهله
 ومعارفه بمنع الحجل من مخالطة غير المحتجبات . اما في باريس وكل شيء فيها مباح
 فانه يرى الشبان والشابات في الطرق أزواجاً (غير مطهرة) ذكراً وانثى بلا حرج
 ولا خجل يتداعبون ويتغازلون . ويجد من رفاقه من يغريه على الرذيلة ويحببها اليه
 باسم الحرية فاذا احجم غيره بالضعف . فهل يلام اولئك الشبان على السقوط ؟ وانما
 اللوم على الذين يرسلونهم الى تلك المدارس . واذا كان لا بد للحكومة المصرية أو

الآباء من ارسال ابنائهم الى مدارس فرنسا فمن الخطأ ارسالهم الى باريس وتعريضهم لتلك الاخطار

على ان هذه الطبقة من النساء ليست كلها من أهل تلك العاصمة فان فيهن كثيرات من أهل الارياف الفرنسية او من خارج فرنسا . وبعضهن من روسيا والمانيا وغيرها . ويندر بينهن القادمة الى باريس بقصد العهارة . وانما يفداكثرهن اليها للارتزاق ببعض المهن فيعرضن للوقوع في تلك الفخاخ ويعينهن الفقر على الوقوع فيها . لان البائنة في مخزن واجرتها فرنكان أو ثلاثة في اليوم تنفقها على الطعام واللباس والتمام يقع نظرها كل يوم على عشرات من شبهاها في الحلقة أو أقل منها جمالاً وكل منهن قد تأبط زندها شاب كساها أحسن الاقشة وزينها باجمل الحلي فاذا قويت هذه البائنة المسكينة على محاربة الحسد فانها لا تقوى على مدافعة من يتعرض لها من أولئك الشبان الذين يغرونها بالموايد العريضة . ويخبيون اليها باطراء جمالها يشكوى الغرام وغير ذلك فتقع في الشرك . ولا يباشرها ذلك المفرم الا مدة ثم ينتقل الى سواها . فتصبح غير قادرة على العمل في مهنتها الاولى ويهون عليها الارتزاق من أمثال ذلك الشاب . واعتبر كيف تكون حالها متى ذهب شبهاها وذوى جمالها !

فالعلة الاصلية في شيوع التهلك بباريس انما هو اطلاق سراح الفتاة ومساوانها للرجل وتكليفها الارتزاق مثله واباحة الحكومة للفحشاء رسمياً . وزد على ذلك ان الفتور الديني شائع في فرنسا حتى اصبح شبهاها يعدون العهارة ضرباً من التجارة ولا فرق عندهم بين الفحشاء والتمتع بسائر ملاذ الحياة كالطعام والشراب والسماع ونحوها . فيغرون المرأة على ذلك فتليعنهم . وايس اقبح من قور المرأة في الدين لانها اقرب الى التقوى من الرجل واكثر تعففاً من طريق الدين خوف العقاب . وهي دقيقة الاحساس سريعة التأثر فاذا لم يشتغل قلبها بالتقوى والرهبة من العقاب خيف عليها السقوط اذ ليس لها ما للرجل من قوة الارادة . ومع ذلك فانه اكثر سقوطاً منها لكن الناس لا يعيون سقوطه كما يعيون سقوطها - وذلك من جملة مظالم نظام الاجتماع

في شوارع باريس الوف من الفتيات لولا هذه الاسباب لكن امهات وربات عائلات يرين أبناءهن رجال المستقبل على الفضيلة بدلا من ضياع شباهن في الرذيلة

ويضيع معهن الوف من الشبان بلا عقب . لان هذه الاباحة من اكبر أسباب العقم في فرنسا اذ يمسك الشبان عن الزواج تخلصاً من متاعبه وهمومه واكتفاء بملاذنه الوقتية بمن قليل لا مسئولية بعدها ولا تعب . فلا نبأ ان اذا قلنا ان فرنسا بين يدي خطر اجتماعي يهددها ولا تخرج منه الا بعد انقلاب عظيم

بلغ عدد اللقطاء في باريس للعام الماضي ثمانية عشر ألفاً لا يعرف آباؤهم فهم من نتاج هذه الرذيلة . من نتاج الافراط في الحرية والفتور في الدين . ان الجهل والحجاب يضران المرأة ويؤخران الهيئة الاجتماعية عن أسباب المدنية . لكن الحرية الزائدة مع العلم أو بدونه تفسد المجتمع الانساني وتضر بالعائلة . وحال فرنسا الاجتماعي اكبر شاهد على ذلك لان احصاءها يكاد يكون الآن كما كان منذ أربعين سنة . ولم تبقى امة الا تضاعف احصاؤها في اثناء هذه المدة

خلقت المرأة أما تدبر العائلة وتربي الاولاد . وتعليمها ضروري للقيام بمهمتها الطبيعية في الشؤون العائلية . وأما تكليفها بأعمال الرجال فانه خارج عما خلقت له . الا اذا اضطرت اليه لاسباب قهرية . ولكتنا نرى بعض كبار العلماء يجيزون لها كل عمل يعمل به الرجل وان تعاطى كل صناعة أو مهنة لانها مساوية له . وبعضهم الف كتباً في هذا الموضوع خلاصتها ان المرأة يجب ان تعمل كل أعمال الرجال من صناعة او علم او تجارة أو زراعة بحجة تضاعف الثروة بتكاثر الايدي في العمل . وهو رأي نظري لا ينطبق على حاجة المجتمع الانساني . اذا نزل الرجل والمرأة الى السوق من يربي الاطفال ويدربهم ويعنى باحوالهم ؟ فان قيل ان المراضع والخدم يفعلون ذلك قلنا ان الطفل لا تربيه الا امة . واذا فرضنا قيام الخدم مقامها فالتنفقات التي يستلزمها استخدامهم تستغرق ما تكتسبه المرأة بالعمل خارج بيتها

ومهما بلغ من ارتقاء الجنس البشري في الاكتشاف والاختراع فانه لا يقوى على قلب نظام الاجتماع . وهذا النظام يقضي على الام ان تربي طفلها بحيث لا يخرج من دائرة عنايتها . وان يكون هو أهم مشاغلها مع تدبير بيتها وليس ذلك بالشئ اليسير . ان القيام بشؤون العائلة لا يقل اهمية عن أعظم عمل من أعمال الرجال في التجارة او السياسة او الصناعة او غيرها

الخلاصة

في مدينة فرنسا وغيرها من مدن اوربا حسنات كثيرة يجب علينا اقتباسها

والاستفادة منها . ولكن فيها سيئات يجب تجنبها والابتعاد عنها فالحسنات التي يحسن بنا اقتباسها هي :

١ معرفة الواجب ٢ المحافظة على الوقت وصدق المواعيد

٣ تهذيب أخلاق العامة بالتربية الصحيحة

٤ تعليم المرأة وتثقيفها ٥ ترقية التعليم والتوسع في الآداب

٦ العمل والجد

أما ما يجب علينا تجنبه من أدران تلك المدنية فاهم

١ الإفراط في الحرية واستخدامها في غير موضعها

٢ ما يخالف الحشمة الشرقية . على أن نأخذ من العلم والتربية القدر

الملائم لعاداتنا

٣ الفتور في الدين والمجاهرة بالكفر فانه من أسس ذلك الخراب

نظام الاجتماع في انكلترا^(١)

نظام الاجتماع في انكلترا يشبه على اجماله نظام سائر الممالك الاوربية من حيث العائلة والحكومة والمدرسة والكنيسة . لكنه يمتاز في انكلترا بخصائص لا يخلو ذكرها من فائدة هالك أهمها :

١ — طبقات الامة

لا يخفى ان انكلترا ام الحكومات الدستورية وأقدم من اعترف بحقوق العامة . ومع ذلك فالامة عندهم مؤلفة من طبقتين متباينتين لا تختلط احداها بالآخرى - نفي الخاصة والعامة او اشرقاء والمال أو الاعيان والعموم . وذلك من بقايا القرون الوسطى التي كان فيها اللورد صاحب الارض وله السيادة هو وأهله على بلده وسائر الناس أعوان له أو عمال في مزارعه . وكان ذلك شأن أكثر امم اوربا في عصر الاقطاع . لكن أكثرهم عدلوا عنه وساووا بين طبقات الامة في الحقوق والواجبات . الا الانكليز فلا يزال لاهل السيادة القديمة حقوق يمتازون بها عن سواهم في بعض

الاحوال السياسية والاقتصادية ، ولكل من هاتين الطبقتين شأن خاص مستقل عن شأن الطبقة الاخرى . ونواب الامة طبعان في مجلسين مجلس الاعيان ومجلس العموم وقد ترى مثل هذين المجلسين في بعض الائم الاخرى لكنه عند الانكليز مبني على تسلسل الارستوقراطية من الاجيال الوسطى . ولا يزال كثير من الارضين ملكاً للشرفاء يتوارثونها ولا يبيعونها بيعاً قاطعاً . وانما يبيعون مرافقها الى أجل معين . والغالب ان يبيعك الشريف الارض تملكها الى ٩٩٩ سنة فتدفع له ثمنها او هو حق صيرورتها اليك بعد تلك المدة . ويبقى له عليك مال يتقاضاه كل سنة يتم الاتفاق عليه يسمونه في اصطلاحهم تشيف (Chief) وقد يحثلون في تملكك الارض حيلة شرعية فيتفق الشاري والبائع على مبلغ يدفعه الشاري مرة واحدة بدل الاقساط السنوية نحو ما تفعل الحكومة المصرية في استبدال معاش المستخدمين . فاذا دفع الشاري ذلك المال صار مالاً للارض . عرفنا صديقاً لنا في منشستر ابتاع منزلاً من أحد الشرفاء بالفي جنيه دفعها معجلاً وبقي عليه الاقساط (التشيف) نحو مئة جنيه يدفعها كل سنة . وأخبرنا انه ينوي ان يستبدل الاقساط بالفي جنيه أخري فيصير المنزل ملكاً له

فالانكليز عندهم الحرية والاخاء وليس عندهم المساواة . على أنهم عاملون على نزع تلك الامتيازات من الشرفاء . وقد أقبلحوا في كثير من مطالبهم لكن المساواة الكلية يبطئ الوصول اليها لتأصل الارستوقراطية في نفوس القوم من أجيال متوالية . حتى نراها في كثير من آدابهم الاجتماعية . ومن آثارها المحسوسة انه ليس في قطر السكك الحديدية درجة وسطى بين الاعيان والعموم . فالقطار عندهم فيه عربات من الدرجة الاولى وعربات من الدرجة الثالثة . ولا نجد درجة ثانية في قطارهم الا ما يتصل منها بالفطر الفرنسية وغيرها على الحدود

٢ - ضرائب الدخل

لا تخلو دولة من ضرائب تضربها على رعاياها تسدُّ بها نفقات رعايتهم والقيام على حراستهم او القضاء بينهم . لكن الانكليز يزيدون على ذلك نوعاً من الضرائب اقتضاه تفاوت الثروة في طبقات الامة . فجعلوا مقدار الضريبة بنفسه تلك الثروة ويولون في تقديرها على الدخل لا على رأس المال . فيفرضون على الغني أو التاجر

مبلغاً من دخله السنوي يسمونه ضريبة الدخل . أصلها اعانة فرضتها الحكومة على الأمة للاستعانة بها على محاربة الفرنسيين سنة ١٥١٢ فقرر البرلمان يومئذ أن يدفع العامة ٢٠ من دخلهم تلك السنة والكمينة الخمس . وفي سنة ١٧٩٨ زادوها لمثل ذلك السبب وما زالوا يزيدون الضرائب وينوعونها حتى بلغت ما هي عليه الآن . وهي تختلف حسب السنين ولكنها نحو خمسة في المئة من الدخل أو شلين في الجنيه . ولا يدفع هذه الضريبة الا اندي يبلغ دخله ١٦٠ جنيهاً في السنة فما فوق . ولهم شروط لمن يزيد دخله على ذلك الى ٧٠٠ جنية فهو يؤخذ بعقوبتهم من بعض الضريبة . أما من زاد دخله على ٧٠٠ جنية فيدفع الضريبة كاملة . وقد بلغ دخل الحكومة من هذه الضريبة نحو ٣٢٠٠٠٠٠٠ جنية في السنة . غير ضرائب الجمارك وعوائد الروحيات وسائر المسكرات والمخدرات . وغير حق الرخص والاذن في معاطاة المهن على اختلاف أشكالها

٣ - العامة والعناية بهم

للأمة في انكلترا مشاكل من اعتصاب واضراب كما في فرنسا لكن لانكلترا عناية خاصة بهم ولا سيما طبقات العمال والخدم . لعل ذلك من بقايا واجبات الارستوقراطية في العهد القديم . لان رب البلد (اللورد) كان يرى نفسه مسئولاً عن حال اتباعه من حيث أسباب معاشهم . ولو تتبعنا تاريخ وضع ضرائب الدخل المتقدم ذكرها لرأينا تنوعت وتعدلت طبقاً لمصلحة العمال أو الفقراء من أصحاب التجارات الصغرى . كانت في أول وضعها شاملة كل انكليزي . هما قل دخله . ثم أخذوا يعدلونها حتى أنقوا منها أصحاب الدخل القليل الذي لا يزيد على ١٦٠ جنيهاً . وخففوها عن الذين لا يزيد دخلهم على ٧٠٠ جنية . وأبقوها على سائر الناس كما رأيت . ولا يخفى ان الاموال التي تجمع من الضرائب تنفق في مرافق الأمة بلامميز بين الغني والفقير - او هي لمصلحة الفقير أكثر مما لمصلحة الغني . وهي عناية بالأمة كالزكاة في صدر الاسلام تؤخذ من الاغنياء وتنفق في الفقراء

والحكومة الانكليزية تعد نفسها وصية على الفقراء من رعاياها فتضع القوانين لمصلحتهم ونجبرهم على اتباعها . او هي تتولى تنفيذها عليهم - لعلها تتقي اعتصابهم أو اضرابهم . من ذلك قانون صدر في الصيف الماضي ونحن في انكلترا وضعت الحكومة لمتفعة الخدم وصغار المستخدمين اسمه (National Insurance act) في ١٤٠

صفحة كبيرة . مآله ضمانه مستقبل كل مستخدم في المملكة الانكليزية سنة ١٦٠٧ سنة يقل دخله السنوي عن ١٦٠ جنيهاً وكل عامل يشتغل بيده لحساب نفسه ولو زاد دخله على ١٦٠ جنيهاً في السنة . فتفرض على كل من هؤلاء أن يحتزن من دخله مالا يعينه في شيخوخته او مرضه - جملة ذلك احبارياً لا يرى العامل مفراً منه بوجه من الوجوه . وهو يشمل المثاليين في المراسح وأساتذة المدارس الصغرى واثانوية وكتاب المصارف والمتاجر وخدام المخازن وعمال المعامل وفيهم أصحاب العاهات البدنية وساقاة المركبات والنوتية وغيرهم وكل عامل له رئيس يدفع له أجرة وكيفية ذلك الضمان ان الحكومة طبعت أوراقاً كالسراكي أو الاسهمارات في اصطلاحنا تفرقها في العمال . وعلى العامل أن يقدم واحدة منها كل اسبوع وعليها طوابع مختومة يشترك هو ورئيسه والحكومة في دفع قيمتها . وتختلف تلك القيمة باختلاف راتب العامل . فالرجل الذي تزيد أجرته على شلنين ونصف شلن في اليوم يدفع هو أربعة بنسات في الاسبوع ورئيسه يدفع ثلاثة بنسات والحكومة تدفع بنسين . الجملة تسعة بنسات (نحو ثلاثة قروش ونصف) تلصق بقيمتها طوابع على الاسهمارة وتختتم وتقدم للحكومة كل أسبوع . واذا كان العامل صاحب هذه الاجرة امرأة تعامل مثل معاملة الرجل الا ما تدفعه هي فيكون ثلاثة بنسات بدلاً من أربعة ويختلف مقدار المدفوع باختلاف درجة العامل ومقدار أجرته والحكومة تحفظ للعامل ما يقدمه كل اسبوع وتحتزنه لحسابه وقد تستثمره له فيضمن مستقبله رغم ارادته . ومعظم هذه الضمانات من رئيسه والحكومة وهي لا تضرها ولكنها تنفع العامل المسكين . وفي ذلك القانون شروط واحكام تفصيلية لا محل لها . ولكنها بلا شك من أحسن ما استنبطته القرائح لمصلحة العمال وضمان مستقبلهم على نفقة الحكومة وأصحاب الاموال . فضلاً عما فيها من المشقة على أصحاب التجارات او المعامل فان كل واحد منهم مكلف بالتوقيع على السراكي او الاسهمارات بيده كل اسبوع وقد يكون عنده مئة عامل أو ألف

أفكار الانكليز

١ - الثبات والتعويل على الحقيقة

للانكليز أخلاق بارزة واضحة تختلف عما لسواهم من الأمم يمكن تلخيصها

بكلمتين يعني (١) « أنهم ينجحون في أعمالهم وشؤونهم الى الحقيقة المحسوسة دون الظواهر » (٢) « أنهم ثابتون في مبادئهم وعاداتهم ومشاريعهم ». فاذا عرفت ذلك فيهم هان عليك تحليل أكثر ما يعرض لك من أخلاقهم . والانكليزي هادي الخلق يندر ان تغلب عليه الحدة حتى تخرجه عن طور ارادته ولذلك تبهيم ينجحون في أهم المسائل وأخرج المشاكل و ينجادلون ويتناقشون بهدوء وسكينة . ويغلب في أدلتهم أن تبني على العقل أكثر مما على العواطف . ويظهر لك الانكليزي جامداً وقد ترى في نفسك تفوقاً عليه بسرعة الخاطر لكنك عند العمل تجده اثبت منك قدماً وأصبر على التعب وأقدر على المشاريع الكبرى . وترى فيه سكوتاً وطول اناة في موقف يستفز سواه ويهيج غضبه وليس ذلك من بلادة في طبعه وانما هو من قيل ثباته في أعماله وتمويله على الحقائق فلا يكثر بالصغار بل يجهل همه الغرض الذي يسعى اليه لا يبالي بما يقف في طريقه من العقبات ولا سيما اذا كانت تلك العقبات أموراً وهمية كالكلام في الصحف ونحوها اذا لم يكن مبنياً على حقائق محسوسة - فهو يهمل أن يصل حماره الى العباسية ولا يلتفت الى شقشقة المسكاري في أثناء الطريق

٢ - الكرياء والامانية

ومن الاخلاق المشهورة عن الانكليز أنهم متكبرون يترفعون عن مخالطة سواهم من الامم . وهي تهمة لا تخلو من الحقيقة . ان الانكليزي معجب بنفسه بفتح ربدولته وامته وينفرد عن سائر الامم فلا يزاوجهم او يختلط بهم الا بما تقتضيه المصلحة التجارية او السياسية . ولا عجب فاقا في عصر الانجلو سكسون كما كان العرب في ابان دولتهم والرومان قبلهم . ولكل أمة عصر اذا تفوقت فيه على سواها توهمت امتيازها الفطري عليهم بالجيلة الاصلية - وهي طبعاً لا تقال ذلك التفوق الا لما هو فيها تمتاز بها عن سواها

ومما يوجه على الانكليز من الانتقاد أنهم انانيون يحبون الاستئثار بالمنافع لأنفسهم وهو خلق فطري في الانسان لا يختص بامة دون اخرى . لكنه يظهر في الانكليزي لأنه لا يبالي ان يظهره ويتمسك به . ولا يهمه ما يسميه الآخرون اريحية أو نجدة وبعدها من اسمى المناسق فهو لا يعرض نفسه للخسارة لمنفعة سواه كما يفعل الفرنسيون مثلاً او كما يفعل العرب وبعدها من مفاخرهم . ولذلك كان العرب اسرع احتلاطاً بالفرنساويين مما بالانكليز

ومن مقتضيات الجنوح الى الحقائق ان الانكليزي صريح في اقواله واعماله لا يقول غير ما يعتقد ولو ساءك قوله . فيظهر ذلك منه مظهر الجفاء . ولكنه يعدُّ الجملة ضرباً من العبث فلا يزال يحبك حتى يتعرفك ويثق بك فيمد لك يده ويصافحك ويكون عند ذلك من اخلص الاصدقاء واظرف الجلساء .

٣ - التربية الادبية والعقلية

ومن مقتضيات ذلك الخلق ايضاً ما تراه من ثبات الانكليز في افضل وسائل التربية البدنية والعقلية ولا سيما الرياضة وهم قدوة الامم فيها . وقد اف ديمولان الكاتب الفرنسي كتابه عن سر تقدم الانكليز ليحرض قومه على الاقتداء بهم في التربية والاخلاق والتعليم وغير ذلك . واختص غوستاف لوبون اخلاق الانكليز بالاطراء في كتابه « العوامل الاخلاقية في تكون الامم » فالانكليزي رأى بعين الحقيقة ان هذا الضرب من التربية مفيد له فاتبعه ووضع له قواعد اساسها الفائدة الحقيقية بلا زخرف ولا نميق . وزادهم ثباتاً فيها انهم فطروا على احترام آراء رجال التاريخ واصحاب المواهب منهم والعمل بها بلا جدال او نقد - لعله من بقايا خضوعهم للشرفاء في عصر الاقطاع . ولهذا المنقبة فضل كبير في جمع كلمهم وتأيد مساعيهم لان الامة اذا عملت برأي عقلائها كانت كلها عقلاء . بخلاف الامم التي يزعم كل من افرادها انه صاحب الرأي الا صوب والتفوذ الاعلى ويرى الانصياع لرأي سواء صفاراً ومذلة كما هو شأن الامم الضعيفة التي صارت الى الشيخوخة واذن الزمان بفساد امورها وانقضائها .

٤ - الصدق والوفاء

المشهور ان الانكليزي على الاجمال بطيء الخاطر غير مفرط الذكاء . لكنه ناجح على الغالب في اعماله ومشاريعه فانه علة نجاحه ؟ العلة الحقيقية انهم يعملون بالقواعد التي قرر عقلاؤهم انها وسيلة النجاح وقد رسخت في اذهانهم بالتربية للاسباب التي قدمناها . وهي تعلمهم ان التاجر او الصانع يجب أن يعمل في اعماله على الحقائق مع المنفعة المتبادلة . فعملوا معولهم على الصدق والامانة والثبات وهي أهم اسباب نجاحهم في اعمالهم الكبرى والصغرى . وقد اشتهر ذلك عنهم حتى جرى مجرى الامثال . والمشهور بين تجار الارض ان الانكليزي اذا سأله عن سعر بضاعته انطلق آخر سعر يوافقه ولا يفتح باباً للاخذ والرد أو المساومة كما تفعل سائر الامم

٥ - المحافظة على التقاليد

قد رأيت الأمة الانكليزية لا تزال حتى الآن محافظة على الارستوقراطية رغم اعراقها في الدستورية - حتى الدستور عندها لا يزال محفوظاً بالتقليد أي أنهم لم يدونوا قواعده وشروطه بما يسميه الثمانيون القانون الاساسي أو نحوه . وإنما يجرون فيه على التقاليد الماضية فيحكمون في شؤونه بالقياس على احكام سابقة اصدرها اسلافهم مع مراعاة مقتضيات الاحوال واذا عرضت مسألة لم يسبق الحكم فيها حكموا فيها وعدوا حكمهم سابقة لمن يأتي بعدهم

فلا نكيز من اكثر الامم محافظة على التقاليد المتوارثة . وذلك من قبيل الثبات في اخلاقهم . ولهذا السبب كانوا من اشد الناس احتراماً لرجال التاريخ منهم ينصبون لهم النمايل ويعملون باقوالهم . ولنفس هذا السبب جروا في استعمارهم على احترام تقاليد الامم التي تدخل في سلطانهم او حمايتهم . فلا يتعرضون لهم في شيء من اديانهم أو عاداتهم . بل يساعدونهم على القيام بشعائرهم الدينية او الوطنية . ولذلك كان الشرقيون اكثر ارتياحاً الى سيادتهم مما الى سواها لولا ترفعهم وبعدهم عن المجاملة

٦ - التدبّر والنظام

ومن قبيل الثبات والمحافظة على التقاليد أنهم متمسكون بمقائدهم الدينية . ورغم تطرف اكثر الامم من جيرانهم وزملائهم في الحرية الدينية حتى جاهرُوا بمساواة رجال الكهنوت ومطاردة الجمعيات الدينية فلا نكيز ما زالوا متمسكين باهداب الدين يحافظون على طقوسه وتعاليمه ولا سيما الراحة يوم الاحد فقد ذكرنا في الهلال الماضي كيف يقفلون الحوايت والمحازن وغيرها في ايام الآحاد والاعياد

ومن هذا القبيل ايضاً خضوعهم للنظام وتقديسه والرضوخ له باحترام وافتخار لا يستنكف من ذلك كبيرهم ولا صغيرهم . ولا يرى الملك بأساً ان يعترف بالخطأ بين يدي اصغر رعاياه ولا يعد ذلك حطة . وإنما هو من نتاج جنوحهم الى الحقيقة واحترامهم اياها . ونجد كتبهم المدرسية مشحونة بالحكايات التي تعلم هذه المنقبة وامثالها من الصراحة بالقول والاعتراف بالخطأ . غير القدوة الحسنة التي يستفيد منها التلاميذ من اساتذتهم او والديهم او كبارهم في هذا السبيل

٧ - الشعور بالواجب

ان الشعور بالواجب عام في الممالك الراقية لسكنه ظاهر كل الظهور في اخلاق

الانكليز . قالانكليزي يعرف ما عليه من حق ادبي او مادي فيؤديه في حينه بلا مطالبة او استعثات . يفعل ذلك بهدوء وسكينة . لانه من اكثر الناس عملاً واقليم كلاماً . فاذا وعدك بزيارة كن على ثقة انه منجز وعده . واذا كلفته بخدمة فمن التأدب عندهم ان لا يؤكد لك نجاحه فيها وانما يقول « اني سأجرب » فاذا قال هذا قائل منهم عدوا قوله وعداً اكيأ . وهكذا اذا عزم أحدهم على تكليف آخر بخدمة او مطالبة بحق له او وعد يتوقفه فانه يجعل طلبه بصورة الاستفهام أو الشك فيقول مثلاً « ماذا تظن لو فعلت كذا » فيجيبه « اظني فعلاً كذا » فيعد ذلك وعداً لا بد من قضاائه . وهذه التعابير تكون غالباً في الطبقة الراقية من القوم

٨ — المرأة الانكليزية

المرأة في انكلترا تشبه سائر نساء اوربا في أكثر الاحوال الاجتماعية والادبية لكنها تفرق عنهم بما يقتضيه الخلق الانكليزي أو التربية الانكليزية من بعض الوجوه . فهي أميل الى الحقائق في آدابها وعاداتها وازيائها . ويمتاز الزي الانكليزي غالباً بالبساطة لانهم يلاحظون فيه المنفعة الحقيقية — شأنهم في كل شيء . واذا رأيت انكليزية بثوب مزخرف فأما تقلد به غير الانكليز

ومن هذا القبيل انصرافها الى الرياضة البدنية بالاعاب المشهورة عندهم حتى لعب السيف وركوب الخيل . ولذلك كانت الانكليزية صحيحة البنية نشيطة الحركة ممشوقة القوام مشرقة الوجه قوية الارادة . وقد أخذت تتشبه بالرجال وتجارهم في أعمالهم . وتطرفت طائفة من المهوسات حتى طلبن حق التصويت في مجلس النواب وبالغن في ذلك وخرجن به عن طورهن الذي خلقن له واستخدمن العنف في مطالبهن . ولا نظنهن الا راجعات الى الصواب . وحكما على المرأة الانكليزية من هذا الوجه مثل حكمنا على المرأة الفرنسية عند كلامنا عن أخلاق الفرنسيين :

« ان المرأة خلقت لتهم بشؤون بيتها وعائلتها فاذا تحولت عن ذلك الى أعمال الرجال خرجت عن طبيعتها »

على ان المرأة الانكليزية في أصل فطرتها كثيرة الخضوع لرجالها تستهلك في سبيل راحتها وراحة سائر العائلة مهما كلفها ذلك . لكنها وهي عذراء تتمتع بما يتمتع به الشاب من الحرية الشخصية في ذهابها وايابها وقيامها وقعودها . فاذا تزوجت انقطعت الى بيتها ولم يعد يهمها سواه مع احترام زوجها ومعرفة حقه

٨ - طرفتهم في الاستعمار

وترى الخلق الانكليزي الاسامي - نفي التعويل على الحقيقة مع الثبات -
 ظاهراً في طرقهم السياسية كالاستعمار مثلاً فان لهم فيه طريقة تخالف طرق سائر
 المستعمرين . فهم ينظرون من وراء الاستعمار الى الفائدة الحقيقية لا بهمهم زخرف
 السيادة وأبهة الدولة والتفاخر بسمه السلطة بقدر ما بهمهم المصلحة الحقيقية في
 الاستعمار . وقد وجدوا بعين العقل ان المصلحة الحقيقية من الفتح او الاحتلال إنما
 هي المرافق الاقتصادية او المالية فيوجهون سعيهم اليها . ولا بهمهم بعدها أن تكون
 لهم سيادة ان لم يكن الغرض منها المنفعة الاقتصادية . ومن ثباتهم وطول اناتهم صبرهم
 على استثمار مظاهرهم الاستعمارية اعواماً متطاولة ترسخ في أثارها أقدامهم أو تسنح
 لهم فرص بغتيمونها ويؤيدون بها حقوقهم

ولهذا السبب رأيتهم لا يتعجلون وضع الحماية او اعلان السيادة بل بعكس ذلك
 يتساهلون مع مستعمراتهم في الاستقلال الاداري حتى لا يبقى فرق يذكر بينه وبين
 الاستقلال الحقيقي . وبهمهم من البلد الداخل في حيازتهم او تحت نفوذهم أن
 تكون مصالحهم المادية رائجة فيه - ولا يبالون ان يجيئهم ذلك بطريق الاحتلال
 أو الحماية او الاستعمار . وعلى هذا المبدأ حلوا قيود استراليا وكندا والترانسفال
 وغيرها . ولا ترى مانعاً من أن يفعلوا ذلك في الهند وغيرها اذا تحققت ضمان مصالحهم
 الاقتصادية وبقاء علائقهم الودية وأن تكون لهم الافضلية من الحثيات الاخرى

فالسطة التي بلغت اليها الامة الانكليزية في هذا العصر تتوقف على أخلاقهم
 أكثر مما على ذكائهم . ان الاخلاق التي ذكرنا أمثلة منها جعلت أربعين مليون
 انكليزي يحكمون نحو ٣٥٠ مليون نفس من امم شتى في القارات الخمس . وفيهم
 الفوقاسي والمغولي والهندي والزنجي وغيرهم من طبقات الناس يتكلمون عشرات من
 اللغات المختلفة . ان الانكليز استطاعوا ذلك باخلاقهم المتينة واساسها الثبات والتعويل
 على الحقيقة . والا فان بين الامم الداخلة في سلطانهم شعوباً لا يقلون عنهم ذكاء
 ويفوقونهم في كثير من المواهب العقلية . وانما تنقصهم الاخلاق اللازمة للتغلب
 او الاستقلال

١٠ - المدنية الحديثة ومدنية العرب

فالانكليز من أوضح الامثلة للاخلاق الملائمة لروح هذه المدنية - وان كانت

لا تلائم المدنيات الاخرى . اذ لكل مدينة قواعد تبني عليها دعائمها ولا تصلح الا بها . فمدينة العرب أساسها مناقب العرب في صدر الاسلام أهمها الأريحية والنجدة والجوار والوفاء والحلم وسعة الصدر وكرم الخلق ونحوها مما لا يلائم المدينة الحديثة . كان الخليفة او الأمير يعفو أحياناً عن القاتل لاعتبار قام بنفسه من قول سمعه أو فكر خطر له وبعد ذلك أريحية . وكان القوم يتواصون بالعفو عند المقدرة والاخذ بأسباب الكرم يقيمون بيوت الضيافة ينزل فيها الاضياف أشهراً لا يسألهم أحد من هم . وكان لهم ضرب من الارتزاق بالسخاء من الخليفة فمن حوله واتباعهم وحواشيهم وأعوانهم يقيم في بيت الأمير او العامل عشرات او مئات من الناس يأكلون ويشربون ويلبسون ولا عمل لهم وقس على ذلك مما فصلناه في تاريخ المدن الاسلامي . فهذه المناقب بعيدة عن مقتضيات المدينة الحديثة التي أساسها مبادلة الحقوق والواجبات لا حلم ولا عفو ولا أريحية ولا نجدة . وانما ينال المرء من الرزق أو المنصب على قدر سعيه ومواهبه بمقتضى القواعد الاقتصادية والاعتبارات السياسية . فلا يرتقي في هذا السلك غير العارف بأحكام السياسة الذي ينظر الى حقائق الاشياء بالنظر الى مصلحة الامة ويحافظ على العدالة وشروطها لا ينفق قرشاً الا في طريقه . وغير ذلك من المناقب الشائعة في أوروبا لهذا العهد - ولكل أيام دولة ورجال

الشجاعة في الحرب^(١)

الشجاعة شدة القلب وقوة النفس عند اليأس وهي ضرب من الصبر . وقالوا هي حياة للقوة الفضوية متوسطة بين التهور الذي هو الافراط واللين الذي هو التفريط . وأساسها الضمير وقوة الارادة . فالرجل القوي الارادة اذا اقتنع بامر تمسك به واذا رأى الصواب في قتال ثبت فيه او في قول جاهر به . ومن دله ضميره على عمل واجب ولم يعمل به فهو جبان . ولذلك عرف الشجاعة بعضهم بقوله « تظهر الشجاعة بان لا نعمل في الخفاء الا ما يمكننا عمله أمام كل الناس » لان الضمير عندهم خير

(١) عن الهلال سنة ٢٠ ص ٢٠٩

الشاهدين . وقال كوثقوشوس « من رأى الحق ولم يأخذ جانبه فهو جبان » وقالت العرب « الشجاعة عماد الفضائل ومن فقد هالم تكمل فيه فضيلة » وقال شيشرون « من بعدّ الالم أعظم مصائب الحياة لا يقدر ان يكون شجاعاً . ومن بعدّ الملذات أعلى مطالب الدنيا لا يقدر أن يكون معتدلاً »

وبشترط في الشجاعة ان تستعمل معها الروية وصدق النظر وقياس الاسباب والنتائج لئلا يقدم صاحبها على عمل ثم يرى خطأه فيفشل . وإنما يجب عليه أن يتدبر الامر فاذا تحقق وجه الصواب أقدم عليه وصبر الى النهاية . ومن اكبر اسباب الشجاعة « الحب » فان الشجاع يكون أثبت في حربه وجهاده اذا كان جهاده من أجل شيء يحبه ويفار عليه . وقد يكون ذلك الشيء شخصاً أو وطناً أو رايأاً أو مبدأً أو غير ذلك . فالشجاعة بهذا الاعتبار ضروب كثيرة ترجع الى ضربين : الشجاعة في ساحة الوغى دفاعاً عن دين أو وطن أو غرض وهي الشجاعة البدنية . والجرأة في الرأي أو الشجاعة في الدفاع عن رأي أو مبدأ أو علم وهي الجرأة الادبية او الشجاعة الادبية

الشجاعة في الحرب

هي الصبر في حومة الوغى بثبات جأش وصدق عزيمة . وهي عند رجال الحرب ثلاث مراتب : الاولى اذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران وتكالحت الاحداق برز من الصف الى وسط المعترك من ينادي هل من مبارز . والثانية اذا نشب القوم واختلطوا ولم يدر أحدهم من أين يأتيه الموت فيكون رابط الجأش ساكن القلب حاضر الالب لا يخالطه الدهش ولا تأخذه الحيرة فيتقلب قلب المالك لاموره القائم على نفسه . والثالثة اذا انهزم أصحابه فيلزم الساقة ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم ويقوي قلوب أصحابه

واسكتنا نرى فوق هذه المراتب مرتبة رابعة هي تضحية النفس عن اختيار في سبيل ما يدافع عنه . فان أصحاب المراتب الثلاث المتقدم ذكرها لا يخلو أحدهم من أمل في البقاء ولو كان في أشد الضيق أو الخطر . وأما المرتبة الرابعة فهي ان يقال لصاحبها « الق نفسك في هذه النار لانقاذ وطنك او في الثبات على رأيك » فاذا صدق والتي نفسه فقد بلغ ارقى مراتب الشجاعة . وسنقصر بحثنا هنا على أصحاب هذه

المرتبة من الشجعان . وهؤلاء اما ان يفعلوا ذلك في سبيل الدين او الوطن أو الشرف الشخصي

١ - الاستهلاك في الدفاع عن الدين

النصرة الدينية من أشد النعرات تأثيراً في نفوس الناس فهم يغضبون لدينهم أكثر مما يغضبون لأي شيء آخر من المصالح المشتركة . والذين استهلكوا في سبيل نشر الدين أو الدفاع عنه كثيرون لما يتوقعونه من الاجر على صبرهم وعذابهم . والحروب الدينية كثيرة واخبارها طويلة لا حاجة بنا الى ذكرها . وأكثر الشهداء في سبيل الدين يدخلون في باب الجرأة الادبية ثباتهم في رأيهم وسنعود اليهم . وانما نكتفي هنا بالإشارة الى جان دارك لانها ضحت بنفسها في سبيل الوطن بدعوة دينية وتاريخها مشهور . وقد فعلت ما لم يفعله الرجال في حرب فرنسا وانكلترا بأوائل القرن الخامس عشر . فدافعت عن فرنسا دفاعاً لم يسمع بمثله وعرضت نفسها للقتل مراراً بإرشاد هاتف كان يدعوها الى ذلك . ولما قبض الانكليز عليها وحاكموها كانت تحيب بشجاعة وثبات عزيمة . وقد قتلوها حرقاً وهي رابطة الجأش لا تبالي ولا تخاف . وآخر كلمة سمعوها منها « يسوع »

ويشبه ذلك او هو أدل منه على الشجاعة الحقيقية ما فعلته الخنساء مع اولادها في حرب القادسية وهي يومئذ عجوزٌ ولها اربعة اولاد حرضتهم على الثبات في القتال . فلما حمى الوطيس تقدموا واحداً واحداً ينددون الرجز يذكرون فيه وصية والدتهم حتى قتلوا عن آخرهم . فلما بلغها الخبر قالت « احمد الله الذي شرفني بقتلهم »

٢ - الاستهلاك في الدفاع عن الوطن

ثبات الامم^(١)

في الدفاع عن اوطانها

ان ما ابداه أهل طرابلس الغرب من التفاني في الدفاع عن وطنهم على اثر حمل الايطاليان عليهم بجيوشهم وأساطيلهم - دفاعاً لم يكن يرجى ممن في مثل حالهم - بثنا على كتابة مقالة في أشهر ما جرى من هذا القيل في التاريخ على سبيل العبرة والموعظة: تتفاوت الامم في الدفاع عن الوطن بنسبة ما فطروا عليه من التمسك بالاستقلال أو ما نشأوا عليه من العادات أو ما يحيط بهم من الاحوال والمؤثرات . وفي التاريخ حوادث كثيرة تدل على أن الوطن عزيز على أهله وان الاستقلال اشهى ما تتطلبه النفوس الالية . فلا غرو اذا رأينا انما تتفاني في الاحتفاظ به وتفضل الفناء في سبيله على الحياة بدونه . والشواهد على ذلك تتصل باقدم أزمنة التاريخ

ان أطول حصار ذكره التاريخ القديم حصار ازوت أمام جند بسامتيك العظيم فانه دام نحو ٢٩ سنة . يليه في الطول حصار طراوده سنة ١١٨٤ ق م . واستمر ١٠ سنين . وقد وصفه هوميروس صاحب الالياذة . وقس على ذلك حصار كثير من مدن التاريخ القديم كحصار مدينة صور سنة ٥٧٢ و ٣٣٢ ق م . وحصار مراقوسه سنة ٤١٤ ق م و ٢١٢ ب م . وحصار ساجتم سنة ٩١٢ ق م . وحصار اورشليم سنة ٥٩٠ ق م و ٧٠ ب م . وقد ثبت الاورشليميون في هذا الحصار الاخير ثباتاً

يذكره لهم التاريخ مع الاعجاب والثناء . وقد فصله يوسفوس تفصيلاً حسناً وذكره سواء

حصار اورشليم

وخلاصة ذلك ان طيطس امبراطور الرومانيين حمل على اورشليم سنة ٧٠ يريد فتحها . فامتنع أهلها فحاصرها بجند يزيد عدده على ٣٠.٠٠٠ مقاتل : وكانت اورشليم يومئذ في ابان مناعتها يحيط بها ثلاثة أسوار الواحد داخل الآخر . وكان جند طيطس أربع فرق أقام ثلاثاً منها في شمالي المدينة على مشافة ميل من السور الخارجي وفرقة أقامها في شرقها عند جبل الزيتون . ومع جند الرومان العدة والسلاح وآلات الهدم وهي يومئذ الكباش والمجانيق والدبابات . وكان بين معسكر طيطس في الشمال وسور المدينة الخارجي أرض عامرة فاخربوا ابنيها واقتلعوا اشجارها ليسهل على الجند الزاحف المرور فيها بعدته ومهاته - قضوا في ذلك ٤ ايام ثم زحفوا من الشمال وعسكروا في مكان يشرف على زاوية السور الخارجي وبنوا لانفسهم أبراجاً نصبوا فيها مجانيقهم وألحوا على الاسوار بالقنابل (الحجرية)

وكان الاورشليميون يرون في الدفاع عن مدينتهم دفاعاً عن وطنهم ودينهم وكتائبهم فبثتوا جهد طاقتهم . ولكن اسلحة الرومانيين كانت اقوى من اسلحتهم وفيها الكباش وهي كالمركبة الكبيرة تجري نحو الاسوار على عجالاتها وفيها الرجالة يحميمهم اخوانهم بالدفاع عنهم من فوق . حتى يصل الكباش الى قرب السور فيأخذون في قبه برأس الكباش لا يبالون بما يرمى عليهم من النبال أو غيرها

فتمكن الرومانيون بذلك من فتح ثغرة في السور الخارجي . وكانت الفرقة الشرقية على جبل الزيتون ترمي اليهود بالمجانيق تصوبها نحو الهيكل وترسل عليه النفط المشتعل . فخاف اليهود على هيكلهم واجابوهم باطلاق القنابل من مجانيق كانوا قد غنموها من حروب ماضية . ثم علموا باتلام السور الشمالي فينسوا من الدفاع عنه فتقهقروا . فلحق الرومانيون بهم وبنوا الابراج لحصار السور الثاني . وهم في اثناء ذلك يطلبون اليهم التسليم وحجب الدماء والاورشليميون يرفضون

لكنهم عمدوا الى حيلة عسكرية اتبعوا بها الرومانيين - وذلك انهم اسقطوا تلك الابراج باحتفار سرداب دهليز تحت الارض من داخل السور الى اسفل معسكر الرومانيين . فسقطت الابراج وخسر الرومانيون بذلك خسارة عظيمة ولم يستطيعوا

ترميم تلك الابراج الا في بضعة ايام . ثم ألحّثوا في الحصار وأكثروا من رمي القنابل على اورشليم وأهلها حتى اضطر قائدهم سيمان للانسحاب الى داخل السور الثالث . وهو آخر ملجأ لهم لانه يحيط بالمدينة والهيكل وفيه كل الذخائر المقدسة عندهم

وجمع الرومانيون هناك كل قواتهم وعادوا الى مخابرة اليهود بانصلح فابوا وعمدوا الى حفر سراديب أخرى هدموا بها كثيراً من حصون أعدائهم . فعاد الرومانيون الى تشييدها وازدادوا نفمة وغيظاً وشددوا الحصار . وما زالوا يلحون بالمجانيق والسكباش حتى اخترقوا السور الثالث . وقد لعبت النار في الهيكل فاحترق معظمه . ولم يسلم منه الا قدس الاقداس لمائة حجارة فلم تؤثر النار فيه الا قليلاً . والاورشليميون لا يزالون يجاهدون في الدفاع . قاغتم طيطس ضعفهم وتضعضعهم وطلب اليهم التسليم بشروط وضعها لهم فلم يقبلوها . فعاد وألح في الهدم والاحراق مما يطول تفصيله . وأخيراً دخل المدينة عنوة وأمر في أهلها قتلاً وسيياً . قالوا انه قتل العجائز والاعلاء وباع الاطفال بيع الارقاء واستعبد الباقين . غير الذين هجروا تلك المدينة وتفرقوا في اطراف العالم

وقس على ذلك ما أتاه البوير في التراانسفال منذ بضع عشرة سنة في محاربتهم انكلترا فانهم وهم شه ذمة قليلة شاغلوا سيدة البحار أكثر من سنتين فانفقت في سبيل اذلالهم نيفاً ومئتي مليون جنيه وألوفاً من الجنود . نعم ان البويريين خرجوا من تلك الحرب مغلوبين لكن الناس لا يزالون يحدّثون بشجاعتهم وثباتهم ويعجبون بصدق وطنيتهم وقد سجل التاريخ ذلك لهم

واعبر ايضاً ثبات غوردون باشا ورجاله في الخرطوم لما حاصرها محمد احمد المهدي السوداني فانهم ذاقوا الجوع والمرض حتى اكلوا جذور الذرة والعظام والجلود وظلوا ثابتين حتى قتلوا بالسيف بعد دخول المهدي عنوة سنة ١٨٨٥

بطل سنكات

ومن امثلة الثبات في الدفاع عن الاستقلال والمحافظة على الواجبات العسكرية دفاع توفيق بك محافظ سواكن في اثناء الحوادث السودانية . وذلك انه كان مكلفاً بخفارة الطريق بين سواكن وكسلا في السودان الشرقي فاستخدم لذلك شيخاً من

الاعراب اسمه محمد الامين ليتفق مع العربان في حماية الطريق . فاساء محمد الامين
النصرف مع العربان فغضبوا وكرهوه فطلبوا الى المحافظ توفيق بك أن يبدله بسواه
فأبى فغضبوا ونفروا من الحكومة وهم كثار . واتفق في اثناء ذلك بجي عثمان دقنة
أحد امراء المهدي بمنشور منه يدعو الناس الى بيعته . فبايعوه فاشتد ازره فسار بهم
لماواة الحكومة في سواكن وضواحيها فضايقوها والحكومة ترسل الجند لمقاومتهم
عناً . وقد حاصروا سنكات وطوكر فضاق اهلها ذرعاً وجاعوا . فبعثوا الى الحكومة
يطلبون المدد . فاعدت الحكومة سنة ١٨٨٤ حملة بقيادة باكر باشا سارت الى سواكن
لفتح الطريق بينها وبين بربر فلقبها الدراويش وغلبوها فعادت بنجفي حنين . وكان
توفيق بك محافظ سواكن قد سار الى سنكات عرضاً ودخل في جملة المحاصرين .
وكان شهماً باسلاً فظهر في حصاره ثباتاً لم يعهد الا في القليلين من الناس

وسنكات قرية لا تزيد حاميتها على ستين رجلاً وقد ضيق عثمان دقنه السبل
عليها وقطع المؤن عنها حتى كاد اهلها يهلكون جوعاً . فكتب عثمان الى توفيق ان
يسلم فلا يقتله فأبى الا البقاء على ولاء الحكومة . فلما جاء باكر باشا وعاد خائباً بعث
عثمان اليه ثانياً ان يسلم فيسلم وان الامر بانقاذه قد انقطع فلم يجبه الا بالثبات . ولما
رأى توفيق بك أخيراً ان المؤن نفدت والجند جاءت وأهل البلد ملت جمع اليه
رجالهم وأهل سنكات وشاورهم في الامر وحشهم على الثبات في ولاء الحكومة .
فقالوا نحن على ما تريد فقال « قد نفذ زادنا والطريق مقطوع ينتسب وبين المدد
فلنخرج مستقلين فاما أن نسير الى سواكن واما ان يلاقينا العصاة فندافع عن انفسنا
حتى الموت »

فخرجوا في أوائل فبراير سنة ١٨٨٤ بعد ان هدموا الطواحي وأخربوا المنازل
وما ساروا ميلين حتى لاقاهم عثمان دقنة برجاله وهاجمهم فقاتل توفيق بك حتى قتل
شهيد الامانة والبرائة ولم ينج من رجاله وأهل القرية الا نفر قليلون

تفاني القرطاجيين في الدفاع عن وطنهم

على ان ما تقدم ذكره لا يعد كثيراً بالنظر الى ثبات القرطاجيين أهل قرطاجة
بحوار طرابلس الغرب منذ النفي سنة في حربهم مع الرومانين المعروفة بالحرب البونية
أو القونية وبطلها هنيبال القائد القرطاجي أشهر من أن يذكر . وقد فصلنا تاريخها

في الهلال السادس من السنة التاسعة . وانما أردنا هنا الإشارة الى ما أدهش العالم من ثبات القرطاجيين في الدفاع عن وطنهم مما لم يسبق له مثيل . وهم اسلاف الطرابلسيين الذين يحاربون الايطاليين مع الجند العثماني اليوم دفاعاً عن حقوق الدولة العثمانية . أما حديث القرطاجيين فإليك خلاصته :

فاز القرطاجيون أولاً في حربهم مع الرومانيين حتى اخترقوا اوربا وقطعوا جبال الالب وحاصروا رومية وأوشكوا أن يفتحوها ثم عادت العائدة عليهم . وبعد حوادث كثيرة حمل عليهم الرومانيون في بلادهم وحاصروهم في مدينتهم « قرطاجة » (بقرب تونس) وقد اهكت الحروب قواهم وهلك قوادهم واكثر رجالهم . وكان الرومانيون يتوقعون منهم التسليم حالاً بلا مراجعة - كما كان الايطاليان يتوقعون من الطرابلسيين العثمانيين بالامس . فلما وصل الرومانيون الى قرطاجة أمروا اهلها أن يسلموا اسلحتهم وهم يعرفون عجزهم عن الرفض . فسلموا السلاح وهم يحسبون هذا كل ما يطلب منهم . ثم ابغهم قائد تلك الحملة ان مجلس الشيوخ الروماني يأمرهم أن يهجروا مدينتهم وينبؤا مدينة اخرى بلا حصون ولا اسوار وان تدك قرطاجة الى اساسها . فعظم ذلك على القرطاجيين ولطموا وجوههم وشقوا جيوبهم وتمرغوا بالتراب وتضرعوا الى آلهتهم واعنوا الرومان على قساوتهم . فلما فرغوا من النهيب عادت اليهم شجاعتهم وعزموا على الدفاع الى آخر نسمة من حياتهم حتى يموتوا تحت أسوار مدينتهم

افرج القرطاجيون ما في وسعهم لتحصين مدينتهم فجعلوا الهياكل حصوناً وهدموا الابنية العمومية واستخرجوا أخشابها ومعادنها وقضوا الليل والنهار نساء ورجالاً في اصطناع الاسلحة منها . وقطع النساء شعورهن وجدلنه اوتاراً للاقواس وأمراساً للمجانيق . ولم يمتض قليل حتى تساح القرطاجيون باحسن الاسلحة

وكان الرومانيون في اتيكا فزحفوا الى قرطاجة وهاجموها وهم يحسبونها لا تستطيع دفاعاً . فاذا هي محصنة بالابراج والمجانيق والرجال مما لا يسهل التغلب عليه فحاصروها سنتين والقرطاجيون ثابتون ثبوت الجبال

وفي السنة الثالثة تولى قيادة الجند الروماني هناك قائد اسمه شيبو اميليانوس فادنى معسكره من المدينة حتى اصبح على مرمى قوس من اسوارها وقطع ما بينها وبين البر ولم يبق للقرطاجيين سبيل الى الاقوات الا بالبحر . فعمد شيبو الى قطعه

بسد البوغاز بمرقاً من الحجارة الضخمة . وحاول القرطاجيون في أثناء بناء المرفأ أن يمنعوا الرومانيين من بنائه بسفن أرسلوها لمحاربتهم فلم تصل في الوقت المناسب ولم تأت بفائدة . فازداد الحصار ضيقاً وهجم الرومانيون من جهة المرفأ فظنهم القرطاجيون هاجمين على المدينة من تلك الجهة فاحرقوا أخشاباً كانت هناك . ولكن الرومانيين تحولوا الى الجهة المقابلة وهاجموا المدينة والقرطاجيون مشغولون في الجهة الأخرى . فدخل الرومانيون المدينة واحتلوا أسواقها فالتجأ أهلها الى القلعة فنبههم الرومانيون والنبال تتساقط عليهم من سطوح المنازل . واشتبك القتال في وسط المدينة بالسهم والحراب . فامتلات الطرق بالقتلى ودوى الجوبانين الجرحى وبكاء الاطفال وعويل النساء وصياح الرومانيين . حتى اذا وصلوا الى القلعة أمر شيبو باحراق المدينة ففعلوا فتصاعد الالهب وخرج جماهير الشيوخ والاطفال والنساء والعجزة من منازلهم فراراً من الحريق ولكن كيف يفرون وهم بين النار والسيف

وظلت النيران متقدة ستة ايام متوالية وفي اليوم السابع بعث القرطاجيون المحاصرون في القلعة الى جند الرومان يعرضون التسليم على شرط استبقائهم في قيد الحياة . فاجابهم شيبو انه يستبقي الجميع الا الهاربين وكان عددهم تسعمائة التجأوا الى هيكل اسكولايبوس بقيادة حسدروبال . وكان الهيكل على أكمة منيعة فما زالوا محاصرين فيه حتى غلب عليهم التعب والجوع . فخرج حسدروبال خلسة وغدراً وسلم نفسه الى شيبو فاجلسه هذا عند قدميه والقرطاجيون ينظرون اليه من أعلى الهيكل ويلعنونه ويميرونه بالجين والخيانة . ولما يئسوا من النجاة احرقوا الهيكل والقوا انفسهم في نيرانه ولسان حالهم يقول النار ولا العار

ويقال ان امرأة حسدروبال جاءت به بعد تسليمه ومعها طفلاه وهو جالس عند قدمي شيبو وخاطبت شيبو قائلة « ويل لكم ايها الرومانيون اهلكتمونا وانتم لا تخافون الآلهة ولكن آلهة قرطاجية ستجازي حسدروبال هذا لانه خاني وخان أولاده وآلهته » ثم تحولت الى حسدروبال وقالت له « ويل لك ايها الخائن الشقي انك اجبن الناس . وهتي رأيت هذه النيران تحرقني وتحرق ولديك هذين ما يكون عذرك يا قائد القرطاجيين وما الذي ينجيك من نقمة هذا . . الذي انت جالس عند قدميه ؟ » قالت ذلك وهمت بالطفلين فقضمت حلقوميهما ورمت بهما الى النار والقت نفسها فوقهما

فحسب أن يكون في نفوس الطرابلسيين من صدق العزيمة والثبات في الدفاع عن الوطن ما كان في نفوس أسلافهم . وان تكون نتيجة ذلك فوزهم في نصرة الدولة العثمانية وإخراج الأعداء من بلادهم ان شاء الله فيخلد لهم التاريخ ذكراً لا تمحوه الأيام

هل السوريون عرب

أو ما هم^(١)

فاضت صحف الأخبار بعد الدستور في السوريين هل هم عرب واختلفت الآراء في ذلك فكتب الينا غير واحد يسألوننا رأينا فيهم فقول :

السوريون قبل الاسلام

ان السوريين ويراد بهم غالباً اهل الشام والعراق وما بين النهرين وفلسطين يصعب تعيين أصولهم لكثرة ما توالى عليهم من الدول قديماً وحديثاً . فقد كانت هذه البلاد في أقدم أزمنة التاريخ مأهولة بشعوب سامية تتقارب نسباً ولغة . أما قبل نزول الساميين فكانت مقاماً لأم لا يعرف أصلها وكانت الساميون أقوى منهم فغلبوهم واستقروا فيها واخذوا لك بالانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهالك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال الى الجنوب - الآرايون (السريان والكلدان) الفينيقيون فالعبرانيون فالأنباط . وخالطتهم امم شتى غير سامية أقامت بين أظهرهم في بقاع مختلفة من بلادهم غير بقايا الشعوب الأصلية مما يطول بيانه ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعاً وعاشت أديانهم وآدابهم وعاداتهم

على ان مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الامم القديمة كالحثيين والمصريين والاشوريين والفرس فكانوا يتناوبون فتحها واكتساحها وتتقاطر شعوبهم اليها . ولكن الامر لم يستقم لدولة من الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء الاسكندر . فان هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع

قبل الميلاد واوغل فيها ثم صيرها خلفاؤه يونانية وتوافد اليها اليونان واقاموا فيها واختلطوا باهلها ولا سيما بعد ظهور النصرانية . وقد دخلت في سلطة الرومان ولكن العنصر اليوناني ما زال متغلباً عليها واكثر تغلبه على سواحل بحر الروم ويضعف شأنه في الداخلية تدريجاً

ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها ولا سيما اليهود فانهم مع ما أصابهم من الاضطهاد والسي ظلوا من حيث الآداب والدين نحو ما كانوا عليه في أيام داود وسليمان الا ما أصاب لغتهم من التغير في اثناء السبي ببابل فانها اختلطت بالسريانية والسكلدانية وعرفت باللغة الآرامية او السكلدانية وبها كتبوا التلمود وانقسموا الى اليهود والسامريين . أما من بقي من الشعوب السامية ولا سيما الآراميون فتنصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم واكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين وأعلى سوريا الى فلسطين

فكانت حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب فيها العنصر اليوناني . وحدودها الشرقية مما يلي البادية يغلب فيها العنصر العربي . وكان هناك من اوائل القرن الرابع قبل الميلاد امة عربية عرفت بالانباط أو النبط كان مقامهم وراء فلسطين شرقاً جنوبياً على انقاض الادوميين وهي دولة بطرا التي فصلنا اخبارها في كتابنا « العرب قبل الاسلام » فانهم اختلطوا باهل الشام وفلسطين اجيالاً متوالية . ولما ضعف شأنهم ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق أجيال جديدة من العرب اتخذهم الفرس حلفاء يردون غارات اخوانهم اهل البادية او ينصرونهم في الحروب التي كانت تنتشب بين الدولتين قبيل الاسلام . فاقام حلفاء الروم في جهات حوران وهم الفساسنة وأقام حلفاء الفرس على شاطئ الفرات في الحيرة وهم المناذرة . فاذا انتشبت الحرب بين الروم والفرس تجند الفساسنة لاروم والمناذرة للفرس ودافع كل منهما عن أصحابه . ولتحو هذا السبب أقام العرب على الحدود بين الفرس والروم في ما بين النهرين والعراق وفيهم بطون من اياد وريعة

فسكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الآراميين الاصليين في الشمال والشرق . واليهود والسامريين في الجنوب وبقايا الانباط في الجنوب الشرقي يليهم العرب الفساسنة والمناذرة ثم قبائل اياد وريعة بين النهرين . ويتخلل هذا المجموع شتات من امم اخرى كالجرارحة في جبل الاسكام والجرامقة في الموصل واخلاق

من مولدي اليونان والرومان على الشواطئ ومولدي الفرس والاكراد في الشمال
السوربون بعد الاسلام

ولما رسخت قدم العرب في الشام والعراق اختلطوا باهلها وأقاموا في مدائنهم
نزع اليها غيرهم طلباً للرزق ونزلوا الارياف . ولما قامت الدولة العباسية وعظم شأن
الفرس وتولوا الاعمال في المملكة نزع جماعة منهم الى الشام والعراق . ثم تكاثرت
الجند التركي في الدولة فكثرت تقاطر الاتراك وأقاموا فيها وكانت الدولة تستعين في
حربها برجال من الاكراد والديلم والارمن . وتزايد الاكراد على الخصوص في
عهد الدولة الايوبية ثم تكاثرت الاتراك والجركس في عهد الدولة السلجوقية والنورية
والسلاطين المماليك . فلما تسلمت الدولة العثمانية اضيف اليهم جماعة من الانكشارية
وهم اخلاط من امم شتى وجماعة الارناؤط وغيرهم - ناهيك بتقاطر الافرنج الى سوريا
في أثناء الحروب الصليبية وما بعدها وفيهم الفرنسي والانكليزي والالمانى والايطالى
وقد اجتاحتها الثغور والاراضي المقدسة وأقاموا ردها من الزمن في مملكة معززة
الاركان بمن كان يأتيها من نصارى الافرنج وقد بقي منهم جماعة توطنوا وتناسلوا

وكانت المهاجرة متواصلة الى سوريا من جيرانها سكان شواطئ البحر المتوسط
من الغرب وسكان البادية من الشرق ولا سيما اليونان وعرب حوران فان مهاجرهم
اليها لم تنقطع حتى الآن . وفي سوريا كثير من العائلات المسيحية ترجع بانسابها الى
احدى هاتين الامتين

فالسوربون الان ينقسمون من حيث اصولهم الى قسمين كبيرين المسلمين
والمسيحيين . فلتنظر في اسباب كل منهما على حدة . أما اليهود فانسابهم محفوظة
قلما طرأ عليها تغيير

انساب المسلمين في سوريا : ان انساب مسلمي سوريا ترجع بالاكثري الى العرب
لانهم اول من نزلها من اهل الاسلام بعد الفتح كما تقدم . وخالطهم بعد ذلك من
جاءها من الامم الاسلامية كالترك والجركس والاكراد والفرس والديلم ونحوهم ومن
اعتنق الاسلام من مسيحييها او يهودها او اليونان او غيرهم فمن حفظوا انسابهم العربية
بيوت الخالدي والحسيني والحزومي وغيرهم وفيهم بيوت بخالطها شيء من الدم
الارامي او اليوناني او الاسرائيلي

انساب نصارى الشام

أما نصارى سوريا وهم المراد من البحث الذي فاضت به الصحف فقد كان معظمهم عند ظهور الاسلام من الاراميين والعرب واليونان كما رأيت . والاراميون هم سكان البلاد الاصليون وجاءهم اليونان بحراً من الغرب فنزلوا سواحل بحر الروم ودخل عليهم العرب برّاً من الشرق والجنوب واكثرهم من غسان في حوران وتغلب وايد والنمر في ما بين النهرين . وكانت هذه القبائل عند ظهور الاسلام تدين بالنصرانية لكن قبائل ما بين النهرين نصرت العرب بجامعة الجنس أو اللغة لأنها كانت ناقمة على الفرس فعرف العرب المسلمون لها فضلها في ذلك . فلما هموا بوضع الجزية على أهل الذمة بعد الفتح أبت قبائل تغلب وايد والنمر ادائها وبلغ عمر بن الخطاب ذلك فاستشار أصحابه فقال له بعضهم « انهم عرب يأقون من الجزية وهم قوم لهم نكايه فلا تمن عدوك عليك » فوافق ذلك ما في نفسه ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين ولكنه اشترط عليهم ان لا ينصروا أولادهم قال ذلك طبعاً الى دخولهم في الاسلام . وكان عمر شديد المحافظة على الجماعة العربية لا يأذن للعرب النصارى في التوغل ببلاد الروم واذا فعلوا استرجعهم وخطب ملك الروم بشأنهم لانه يرى ذلك حقاً له . ذكروا ان الوليد بن عقبة لما سار لفتح العراق والجزيرة انضم اليه عربها النصارى الا قبيلة ايد فانهم تحملوا الى بلاد الروم فكتب الوليد الى عمر بذلك فكتب عمر الى ملك الروم « بلغني ان حياً من احياء العرب ترك دارنا وأتى دارك فوالله لنخرجنه او لنخرجن النصارى اليك » فاخرجهم ملك الروم فلم يبق على النصرانية من عرب الشام بعد الاسلام الا بقايا الفساسنة في حوران وتقف من اتباع المناذرة عرب العراق او من جاءهم من كندة ونحوها . فما كان في نصارى الشام من دم العرب والنسب العربي مرجعه بالاكثر الى الفساسنة . اما العرب الفاتحون الذين نزلوا الشام والعراق فكلهم مسلمون ونذر فيهم من تنصر فلم تدخل انساب السوريين المسيحيين شيئاً من انسابهم ولا دخلها شيئاً من انساب الامم الاسلامية التي نزلت الشام بعد العرب كالاتراك او الاكراد او الفرس او الجركس او غيرهم . ولكن خالطها كثير من انساب الامم النصرانية التي نزلت هناك كالارمن والروم والافرنج من زمن الصليبيين وما بعده لان هؤلاء كانوا اذا جاؤا

سوريا استقروا فيها وتنازلوا ونسبت أنسابهم وتكلموا العربية وتخلقوا باخلاق السوريين وعاداتهم وصاروا منهم

فأنساب نصارى الشام الآن ترجع الى أنساب أصلية وهي الآرامية (السريان والسكندان) وأنساب دخيلة أقدمها وأكثرها شيوعاً على سواحل البحر المتوسط اليونانية لان اليونان جاءوا سوريا واختلطوا بأهلها من أقدم أزمنة التاريخ وكانوا ينزلون شواطئها وزاد نزوحهم بعد زمن الاسكندر حتى صارت سوريا بلداً ثانياً لهم كما تقدم . وظلوا يتوافدون اليها بعد الفتح الاسلامي وما زالوا على ذلك الى الآن . وفي سوريا بيوت كثيرة تنتسب الى اليونان واسماؤها تدل على أصولها كبيت بني وباولي وكتسفليس وبانادوبلس وفيليبيدس وغيرهم . ومنها بيوت تبدلت اسمائها باسماء عربية وحفظت انسابها عند أهلها كبيت مشاقة في دمشق الشام فهم يرجعون بنسبهم الى يوسف بركي من كورفو ببلاد اليونان نزل طرابلس الشام وكان تاجراً بالمشاقة فعرف اسمه بها . وبيت مسرة فرع من اسرة يونانية نشأت في طرابزون جاء جدها الى ديار بكر فحلب وتفرعت في دمشق ومصر

اما النسب العربي في السوريين فانه قديم وعريق فيهم ايضاً لكن أكثره في شرقي الشام وجنوبها مما يلي جزيرة العرب لان أهل هذه الجزيرة كثيراً ما كانوا ينزلون ما جاورهم من القرى ويتحضرون . ولكن تلك الاصول القديمة قد ضاعت الآن وأكثر ما يعرف من النسب العربي في السوريين يرجع الى الغساسنة وهو متأصل فيها قبل الاسلام ثم توالى دخول الغساسنة الشام واندماجهم بأهلها جيلاً بعد جيل التماساً للرزق بالزراع أو غيره أو فراراً من العرب المسلمين في مشارف الشام . وأحدث ما يذكرونه من توافدهم الى سوريا مهاجرين في أواسط القرن الخامس عشر على اثر خصام وقع في حوران حملهم على الالتجاء الى المدن فتفرقوا في سوريا ونزل منهم جماعة كبيرة في جنوبي لبنان . وكثيرون من نصارى هذا القسم الروم الارثوذكس وغيرهم ينتسبون الى الغساسنة وقد نزل بعضهم المدن وتنازلوا فيها . وهناك عشائر نصرانية كبيرة ترجع بأصولها الى حوران فمشايخ بيت الحازن في لبنان ينتسبون الى أصل حوراني ويقولون ان جدهم جاء من اذرع في حوران في أواسط القرن الخامس عشر . وكذلك اسرة المطران في بعلبك وزحلة فانهم في الاصل من

جالية حوران . وهكذا يقال في بيوت جبارة وغنام وحوراني وعطية وشقير وطراد
وحداد وصفير وغصن وغيرهم

وأما سائر الانساب النصرانية فمنها الاصول الارمنية وهي كثيرة وكلها تعد من
جملة السوريين كبيوت هندية وخياط باشا وابكار يوس وورثبات وقرانيت وغيرهم .
ومنها الاصول الافرنجية وقد ضاعت اسماؤها الا قليلاً منها كبيت ايلان من الاسبان
وبيت طاسو من الايطاليين وبيت شرشل من الانكليز . وينتسب بيت كرم في
اهدن الى كولونل فرنساوي . وبيت طريه في طرابلس ينتسبون الى الفرنسيين
من زمن الصليبيين . وقس على ذلك سائر الامم المسيحية التي نزلت الشام واختلطت
بأهلها مما يطول شرحه

فالسوريون المسيحيون ليسوا عرباً من حيث النسب وان كان فيهم شيء من دم
العرب بل هم اخلاط من امم شتى ولكنهم يعدون عرباً لانهم يتكلمون العربية
وقد توالدوا في بلاد عربية وتخلقوا باخلاق العرب . فسوريا أصبحت بعد الفتح
الاسلامي عربية لنزول العرب المسلمين فيها واتخاذها وطناً لهم وقد نشروا فيها
لسانهم وعاداتهم وآدابهم فسكانها يعدون عرباً وان لم يرجعوا بانسابهم الى
قبائل العرب

والعرب بهذا الاعتبار ثلاث طبقات (١) أهل البادية الذين ينتسبون الى
القبائل العربية ولا يزالون محافظين على انسابهم (٢) العرب المسلمون الذين نزلوا
الارياف واختلطوا بغير العرب بالتزاوج واندج فيهم سواهم من الامم الاسلامية
غير العرب وهم سكان المدن في الشام والعراق ومصر والمغرب تجمعهم اللغة العربية
والدين الاسلامي (٣) العرب المولدون المنتسبون الى العرب وهم المسيحيون من
سكان هذه البلاد فانهم يعدون عرباً باعتبار لغتهم وعاداتهم وآدابهم لا من حيث
انسابهم . ومنهم نصارى الشام والعراق وأقباط مصر . وعلى هذا القياس يعد نصارى
بر الاناضول الذين يتكلمون التركية انراكاً وأكثرهم من اليونان وقس

السوريون وتجنسهم بالجنسية الاميركية

بحث اجتماعي^(١)

جاءنا من رصيفنا صاحب جريدة المناظر التي تصدر في سانباولو البرازيل كتاب يقترح علينا فيه باسم السوريين في اميركا ان نبدي رأينا في مناظرة دارت بينه وبين صاحب جريدة المهاجر التي تصدر في نيويورك بشأن مستقبل السوريين في اميركا من حيث تجنسهم بالجنسية الاميركية والاختلاط التام بالاميركان او البقاء على العثمانية والمحافظة على الوطنية السورية للرجوع الى سوريا فاجبنا اقتراحه وبعثنا بالجواب اليه ونظراً لما في هذا الموضوع من البحث الاجتماعي رأينا أن نشره في الهلال وهالك نص الجواب :

حضرة الرصيف الفاضل

وصلني كتابك الذي تقترح عليّ فيه باسم السوريين باميركا ان ابدي رأيي في ما دار بينك وبين الرصيف الفاضل صاحب المهاجر بشأن مستقبل السوريين في اميركا من حيث « التجنس بالجنسية الاميركية والاختلاط التام بالاميركان » وهي دعوة المهاجر . أو « البقاء على العثمانية والمحافظة على الوطنية السورية للرجوع الى سوريا » وهي دعوة المناظر . فاشكر لكما حسن ظنكما بهذا العاجز للحكم في مسألة هي من أهم المسائل السورية لان الحكم فيها يتناول الحكم على حال السوريين في سائر ديار هجرتهم في اميركا واوروبا وآسيا واستراليا وافريقيا فاذا كان الصواب في استبقاء جنسيتهم والرجوع الى بلادهم وجب اطلاق ذلك على السوريين كافة حينما نزلوا

على اني رأيتكما جعلتما السوري خيراً في اتباع أحد الرأيين وهو في الحقيقة مسوق الى أحدهما بطبيعة العمران شأن الانسان في سائر أحوال اجتماعه . فلو جعلتما موضوع البحث هل يرجع السوريون من ديار هجرتهم أم يقون فيها لكان ذلك أقرب الى مجازاة ناموس التاريخ - وقد قيل اذا شئت ان تطاع فسل ما يستطيع

قرأت كتاب الرصيف الكريم واطلمت في اعداد المناظر على ما دار بينكما في هذا الشأن وانا في رمل الاسكندرية وقد فررت من المحابر وهجرت الاقلام والدفاتر وأقيمت في هذا المصيف التماساً للراحة في اثناء احتجاب الهلال . ففكرت في هذه المسألة الخطيرة وانا مطل من نافذة قنق نحن مقيمون فيه بشرف على قطر التراء واي وهي ذاهبة جاثية تقل الناس بين الاسكندرية ومصايف الرمل فرأيتها تحمل العشرات والمئات وليس بينهم من الوطنيين الا جزء صغير والباقيون من الاجانب وفيهم جانب عظيم من السوريين اكثرهم من اهل الوجاهة وأرباب الثروة والنفوذ وأهل العلم والادب . وتذكرت كثرة السوريين في القاهرة وفيهم جماعة كبيرة من كبار الموظفين وأصحاب المناصب الادارية والعسكرية وأرباب الصحافة والتجار والحامين والاطباء وغيرهم . ومثل هؤلاء كثيرون أيضاً في انحاء القطر المصري - فقلت في نفسي لو صحت دعوة المناظر لوجب أن يعود هؤلاء جميعهم الى سوريا ويعود أمثالهم من أربعة أقطار المسكونة وهم يعدون بمئات الالوف وفيهم اهل الثروة والجاه وقد زادهم الاغتراب علماً واختباراً واقتبسوا من امم الارض أحسن ما عندهن من آداب الاجتماع وأساليب الارتزاق . وليست ثروتهم بالشيء القليل نعرف ذلك بالقياس على ثروة السوريين في القطر المصري فانها تقدر الآن بنحو ثلاثين مليون جنيه وهم لا يزيدون على بضعة عشر ألف نفس فكيف بثروة من بقي منهم في سائر ديار هجرتهم وعددهم نحو ٣٠٠ ألف نفس مع اعتبار ثروتهم في غير مصر أقل منها فيها فلو قدرناها بنصف ذلك او ربه لزادت ثروة مهاجري سوريا على ٢٠٠ مليون وهي تتضاعف بتوالي الاعوام فان ثروة السوريين في مصر كانت منذ عشر سنين ربع ما هي الآن - فاذا عاد السوريون الى سوريا بهذه الثروة سعدت تلك البقعة المباركة واجتمع فيها الاقرباء والاصدقاء يتمتعون بالنسيم العليل والاقليم النشط - وذلك غاية ما يرجوه الانسان من أسباب السعادة في دنياه ولكن :

نسج الريح على الماء زرد ياله درعاً منيعاً لو جمد

انها أمنية لا يرجى تحقيقها . فالسوريون باقون في ديار غربتهم وسيندمجون في أهاليها ويكونون بعضاً منهم يتفاهمون بالسنتهم ويتأدبون بأدابهم - ذلك هو رأيي نشرته في الهلال منذ بضعة أعوام ونشره صاحب المهاجر في رده . وقد كان في الاشارة اليه كفاية لولا ما تخال بحسبكما من ذكر الوطن وحياته والوطنية وجامعتها

كما ينقر على أوتار القلوب فيثير العواطف حتى تشوش على العقل سييله في احكامه .
والبحث الذي نحن فيه يستلزم النظر في الحقيقة المجردة والمصلحة الشاملة فاستأذن
الرصيفين الكريمين في تفصيل ما أجملته هناك

(المهاجرة) قديمة كالانسان وأقدم أسبابها الارتزاق . وهي من أقدم دعائم
ال عمران وأقواها لان البشر تسلسلوا من أب واحد وكانوا في بقعة واحدة فلما تكاثروا
ضاقت تلك البقعة عن معائشهم فهاجروا الى ما حولها التماساً للغرس والمرعى ثم تفرعت
هجرتهم للسبب عينه بتوالي الاجيال . وأقدم ما بلغنا من اخبار المهاجرة تفرق ابناء
نوح أو قبائلهم من أواسط آسيا الى اطراف المعمور وهم أرقى السلالات البشرية ومنهم
تسلسلت الامم المرتقية المعبر عنها بالشعوب القوقاسية . وكان القوقاسيون حينما نزلوا
في أثناء هجرتهم لقوا شعوباً من سلالات سافلة كالزنوج أو الهنود فكانوا يغلبونهم على
ما في أيديهم ويتولون امورهم . ثم انشأوا تمدناً لا يزال يرتقي الى اليوم - فكانت
الارض عمرت بالمهاجرة من سلالات بعضها ارقى من بعض تعاقبت وهي ترتقي
بتعاقب الدهور

واذا نظرنا الى كل بقعة من بقاع الارض على حدة رأينا آثار ذلك التعاقب
ظاهرة فيها . فوادي النيل مثلاً أقدم سكانه الزنوج ثم جاء النوبة وهم ارقى منهم
فطاردوهم نحو الجنوب وأقاموا مكانهم ثم جاء القوقاسيون فزاحوا النوبة وغلبوهم
ومنهم الفراعنة الذين انشأوا التمدن المصري القديم . ويقال نحو ذلك في شواطئ
افريقيا الشمالية فان الشعوب القوقاسية جاءت من الشرق والشمال وطردت برابرها
نحو الجنوب . ولما نزح الآريون الى الهند وجدوا فيها الهنود الاصليين وهم كالنوبة
في افريقيا فتغلبوا عليهم ومنهم الكهنة (البراهمة) والحكام وقس على ذلك نزوح
القبائل الآرية الى اوربا والسامية الى سوريا وفلسطين وبلاد العرب وغيرها

ناهيك بما كان من المهاجرات المتوالية في عهد التاريخ وخصوصاً بعد اكتشاف
اميركا واستراليا وغيرها من بلاد العالم الجديد . فقد نزح اليها أهل اوربا (وهم
القوقاسيون) فطردوا من كان فيها من سلالات الهنود ونقلوا اليها تمدنهم وفر الهنود
من وجه الافرنج في اميركا واستراليا كما فر النوبة من وجه القوقاسيين (الساميين)
في افريقيا قبل ذلك الزمن بقرون . ولا يزال القوقاسيون ينزحون الى العالم الجديد
من سائر اقطار المعمور ومهما اختلفت لغاتهم وعاداتهم وآدابهم فانهم سلاله رجل

واحد يجمعهم شكل الجمجمة وسمو المدارك وهم الذين انشأوا هذا التمدن ونشروه في العالم القديم والحديث ولو اتيح لهم اكتشاف عوالم اخرى لنزحوا اليها وعمروها ثم ان الامم تختلف ميلاً الى المهاجرة واقتداراً عليها باختلاف الاقليم وطبائع أهله . ومن أقدر الامم على المهاجرة واكثرهم سعيّاً فيها السوريون فقد كانوا من عهد الفينيقيين أهل رحلة ومهاجرة وقد استعمروا كثيراً من شواطئ البحر المتوسط قبل الميلاد بعدة قرون واشهر مستعمراتهم قرطاجنة في شمالي افريقيا ورحلوا الى بلاد التمدن القديم في آشور وبابل ومصر وكانوا خير واسطة لنقل ذلك التمدن بين تلك الامم (راجع الجزء الثالث من كتابنا تاريخ التمدن الاسلامي) . وكان ذلك شأنهم في عهد التمدن اليوناني ثم الروماني فكانوا ينزحون الى بلاد الروم والفرس والاسكندرية لهذه الغاية . وهذا هو شأنهم ايضاً في عهد هذا التمدن فانهم يطلبون الرزق ويسهل عليهم الانتقال في طلبه حتى اجتمع منهم نحو ٢٠٠ ٠٠٠ في اميركا وجماعات كبيرة في استراليا وتسمانيا وزيلاندا وفي زنجبار والترانسفال والسنغال وفي سائر سواحل افريقيا وأواسطها وفي الهند وفارس والصين واليابان وفي جزائر المحيط . غير مصر والسودان وتونس ومراكش وغير المقيمين في عواصم اوربا . وبالجملة فلا تكاد تخلو منهم بلد من البلاد العامرة في أربعة أقطار المسكونة وهم بحول الله حينما نزلوا أفلحوا

وللسوري طبيعة يمتاز بها عن سائر الامم وقد تمكنت فيه بتوالي الاغتراب فهو مع نشاطه وذكائه ذو اقتدار غريب على تكيف نفسه وتطبيق أخلاقه وأطواره على البيئة التي يعيش فيها واتقان اللغة التي يتفاهم بها أهلها . فاذا أقام في فرنسا مثلاً لا يمضي كبير زمن وهو يقلد الفرنسيين حتى لا تشك انه منهم وكذلك اذا أقام في اميركا او انكلترا فانك تحسبه اميركياً او انكليزياً . وتراه من اشد الناس غيرة على البلد الذي يستوطنه واكثرهم دفاعاً عنه وسعيّاً في خدمته

(الوطن والجامعة الوطنية) رأيت صاحب المناظر الفاضل مغالياً في اعتماده على الجامعة الوطنية في تأييد رأيه وقد عدّ تجنس السوري بالجنسية الاميركية خيانة للوطن . فاستأذنه في بيان الوطن والجامعة الوطنية بالنظر الى السوري . اما الوطن فهو البلد يقيم فيه اناسٌ مصالحهم مشتركة وحقوقهم متبادلة . والحنين الى الوطن من قيل الحنين الى الوالدين وكلاهما من نتائج العادة والالفة . فكيف لانحن الى بلد

عرفنا الشمس في سمائه وتنشقنا الحياة من هوائه واغذي بنا من حيوانه ونباته فاطلنا أطفالا وربانا احداثاً وشباناً . وقد تألفت ابداننا من عناصره وتكيفت أطوارنا تبعاً لاقليمه . وهو مجتمع الاهل والاقرباء ومقر الخلان والاصدقاء - فالحنين الى الوطن طبيعي حتى في الحيوان الاعجم فلا حاجة الى اثباته . اما البقاء فيه او الرجوع اليه فليس من الواجبات المفروضة كما ان البقاء في حجر الوالدين ليس من بواعث العمران ولا من قواعد الارقاء الا اذا قضت المصلحة بذلك . فالشاب اذا بلغ أشده طلب أسباب الرزق حينما توفرت له ولو قضى عليه ذلك بفراق والديه واهله فكيف بوطنه . وكما يطلب منه أن يذكر اهله ويحن اليهم ويسعى في راحتهم ولو بعد عنهم فكذلك وطنه اذا أصيب بنكبة فانه مطالب بنصرته واعاقته بما تبلغ اليه قدرته

هذا هو الوطن بالنظر الى كل فرد من افراده وأما بالنظر الى مجموع الامة أو الى الدولة فهو الجامعة الوطنية وهي في أبسط أحوالها عبارة عن اجتماع أهل البلد الواحد لدفع عدو يريد اغتياله . وقد يكونون في نزاع وخصام حتى يهددهم الخطر فيجتمعون وذلك طبيعي حتى في العجاوات . فان الأديك قد تتنازع وتتخاصم فاذا جمعتها في قفص وعذبتها بالجوع او نحوه تحابت وتآلفت . فاهل البلد الواحد يشتركون في الدفاع عن بلدهم او السعي في مصلحته بما يسمونه الجامعة الوطنية وهي من التعبيرات التي اقتبسناها من أهل التمدن الحديث في أوروبا ويراد بها عندهم تكاتف أهل المملكة الواحدة في الذب عن حياضها والسعي في مصلحتها وهي تقوم مقام جامعة الدين أو اللغة في الأمم الأخرى . وتقوى الجامعة الوطنية وتتوثق عراها بين أطراف المملكة كلما اشتد أمر الدولة وتوطد ساطانها وتبوءت أسباب الانتفاع بين العاصمة والبلاد التابعة لها . فقد كانت الدولة في أقدم أزمنة التاريخ تنحصر في مدينة واحدة تنسب اليها كدولة اثينا وسبارطة ورومية فاذا قوي سلطانها واتسعت فتوحها حتى صارت مملكة كبيرة نسبت المملكة الى تلك المدينة كالمملكة الرومانية مثلاً فانها عبارة عن مدينة رومية والبلاد التابعة لها . وكانت الجامعة الوطنية الرومانية تقوى وتضعف مع سلطان رومية

أما العرب فقد كانوا قبل الاسلام قبائل تجمعهم الانساب والاعصاب فلما أسلموا أصبح الاسلام جامعهم وأصبحت دولتهم اسلامية لا تنسب الى بلد معلوم . وانما كانت تسمى باسماء مؤسسيها أو أقرب اسلافهم قرابة من النبي كالعباسية والعلوية والمروانية

ونحوها . فلما تشعبت مملكتهم وحكمها غير العرب فرقوا بين فروعها بمواطن ملوكها أو لغاتهم كالترك والفرس والاكراذ وغيرهم . وقد يسمونها باسماء مؤسسيها كالدولة النورية والصلاحية والعثمانية . وكانت الدولة الرومانية قد أخذت في الانحلال وضعفت جامعها الوطنية فاصبح أهل اوربا دولاً صغيرة يتنازعون ويتخاصمون حتى اذا استفحل أمر المسلمين في الشرق وأراد الافرنج استخراج بيت المقدس من أيديهم لم يروا ما يجمع شتاتهم غير الدين . فاجتمعوا تحت لواء الصليب وحاربوا المسلمين . فلما انقضت الحروب الصليبية وأخذ الافرنج في نهضتهم الاخيرة واشتدت سواعدهم قام التنازع بين دولهم على الاستئثار بالنفوذ الاعظم في تلك القارة . فأصبح هم كل دولة منهم جمع كلمة أهلها لتقوى على الغلبة وكان الدين جامعهم الكبرى كما تقدم فلم يكن لتلك الدول ما يجمع افراد كل منها على حدة غير الوطن او الجنس . فالفرنساويون جعلوا جامعهم فرنسا او الشعب الفرنسي وكذلك الالمان والانكليز . فتشعبت الجامعة النصرانية في اوربا الى الفرنسيين والالمان والانكليز وغيرهم كما تشعبت الجامعة الاسلامية قبلها الى الفرس والترك والاكراذ وغيرهم . واذا أمنت النظر في تلك الجامعات رأيت أساسها في الحقيقة اللغة والدين . فان أهل كل مملكة من ممالك أوربا يتكلمون لغة واحدة هي لغة أهل الدولة ويغلب أن يضمهم مذهب واحد هو مذهب الحكومة

فالجامعة الوطنية لا معنى لها ان لم يكن لها دولة تؤيدها أو تدعو اليها للاتظام في خدمتها أو حمل السلاح في الدفاع عن استقلالها وان يكون لأهل الوطن حقوق على الدولة في مقابلة ذلك على أن تكون لغتهم لغتها . والسوريون - ويراد بهم هنا نصارى الشام - لا شأن لهم في ذلك لانهم من أهل المملكة العثمانية ولكنهم لا ينتظمون في جيشها ولا يحاربون عنها ولا يتكلمون لغتها فلا شأن لهم في الجامعة العثمانية والوطن السوري في غنى عنهم من هذا القبيل فما في بعدهم عنه خيانة أو نقصير . وخصوصاً لانهم هجروه مضطرين بالناساً للرزق بعد أن نفدت حيلهم في استدراره هناك وسعياً في الراحة . فكان الوطن تخلى عنهم واخرجهم منه رغم ارادتهم على حد قول الشاعر :

واذا رأيت العبد يهرب ثم لم يطلب فمولى العبد منه هارب
وقول الآخر

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ان لا تفارقهم قالوا احلون هم
والسوريون لا ينقصهم شيء من أسباب الارتقاء ولا يقلون في قواهم ومواهبهم
عن أرقى الأمم المتقدمة وقد رأيناهم يجارون الأفرنج حتى في بلادهم . فمنهم التجار في
أكبر مدائن أوروبا وأميركا فضلاً عن كبار التجار في مصر فإن أكبر محل تجاري فيها
للسوريين ومنهم كبار المحامين والأطباء والكتاب وأرباب المناصب وغيرها . وهم في
كل ذلك مثال الاجتهاد وعنوان الاستقامة والاخلاص . وإنما يعابون بضعف جامعهم
الوطنية ولا ذنب لهم في ذلك للأسباب التي قدمناها . ناهيك بتعداد المذاهب والمشارب
في بلادهم وقد زادهم الاغتراب تباعداً بما فطروا عليه من تكيف أذواقهم على
أذواق الأمم التي يعيشون بينها وهي متباينة

فعلاقة السوريين بوطنهم علاقة حنين وائتلاف لا علاقة هجوم او دفاع ولا علاقة
ملك واستفاد . وهم من أكثر الأمم حناناً إلى اوطانهم ولا يزالون يذكرون الوطن
ويحنون إليه ولو طال زمن اغترابهم ويملكون النفس في الرجوع إليه ويذلون جهدهم
في ذلك . وقد تتسع تجارة أحدهم ويقتني العقار ويبني المنازل في دار غربته وهو مع
ذلك يعد نفسه مقيماً إلى أجل اذا انقضى رحل إلى وطنه . فهو إنما يرجو ذلك من
حنينه ولكنه في الواقع لا يرجع - اخبرني صديق من وجهاء حاصيا الذين نزلوا
بيروت بعد نكبتهم الشهيرة سنة ١٨٦٠ ان والدته ما زالت إلى عهد غير بعيد اذا
احتاجت إلى بعض آنية المطبخ اوصت النحاس أن يصنع للمواعين حلقاتاً ليعلقوها بها
على البغال في اثناء رجوعهم إلى حاصيا ووالده من الجهة الاخرى يوسع تجارته
ويبني المنازل في بيروت ويثبت قدمه فيها . ونعرف جماعة من وجهاء السوريين في هذا
القطر اذا توفي لهم عزيز دققوه في حفرة موقفة على ان ينقلوا رفاة معهم إلى سوريا
عند رجوعهم إليها . ونعرف آخرين بمصر وغيرها يرسلون ما يجتمع عندهم من الاموال
إلى سوريا يتعاون العقار وينون المنازل هناك استعداداً للرجوع إليها متى فرغت
حاجتهم من الاغتراب . ولكنهم قلما يرجعون واذا رجعوا يندر أن يبقى أحد منهم
هناك . وأما اعقابهم في مهاجرهم فهم متجنسون بجنسية البلد الذي يولدون فيه
ويشبون بين أهله أراد أهلهم او لم يريدوا

ولا حرج عليهم وهم إنما يساقون إلى ذلك بطبيعة العمران كما يساق غيرهم من
الشعوب الذين هاجروا إلى تلك البلاد . فالولايات المتحدة إنما عمرت بشعوب هاجروا

اليها من انكلترا واسبانيا وفرنسا والمانيا وغيرها وقد تمازجوا واستبدلوا جنسياتهم الاصلية بالجنسية الاميركية وكل من نزع اليهم واقام بين ظهرانيهم وانخرط في جنسيتهم أصبح له ما لهم وعليه ما عليهم. فلا جناح على السوريين اذا آثروا البقاء في تلك البلاد العامرة واختلطوا بسكانها وتجنسوا بجنسيتها ووطنهم في غنى عنهم وهم في حاجة الى الوطن الجديد لما يجدونه فيه من ابواب الرزق واسباب الراحة فيستخدمون مواهبهم في العمل بنشاط واجتهاد ولكل مجتهد نصيب

على ابي اودث من صميم القلب ان يخطيء حكمي وألتي باخواني وخلاني في الوطن بسعة ورغد وسكينة فانها امنية كل محب لوطنه. والافاني احن الى ذلك الوطن حنين الولد الى والديه ولا احسب بعدي عنه خيانة او عقوقاً

بلادي وان جارت علي عزيزة واهلي وان جاروا علي كرام
اما بقاء السوريين في دور هجرتهم مع المحافظة على لغتهم وآدابهم وعاداتهم كما هو حال الالمان في اميركا مثلاً فلا بأس به اذا استطاعوا اليه سبيلاً. ولكنهم اذا استطاعوا ذلك فالى اجل قصير وخصوصاً في اميركا لضعف الجامعة السورية بالنظر الى جامعة الاميركان والقوي يأكل الضعيف - سنة الله في خلقه

(١) السوريون في مصر

يربو السوري في بلاد ما برحت منذ القدم مهدياً للتجارة وبين قوم متصل ارومتهم بالفينيقيين الذين هم اول من اخترق البحار ومال الى الاسفار بقصد الاتجار. ويعيش أبناء السواحل منهم بين ارباب التجارة والقاعين باعبارها ويخالطون فئات من الغرباء من جالية الافرنج وغيرهم ممن يأتونهم لترويج بضائهم. فيتدربون على ملكة البيع والشراء والاخذ والعطاء ويرون من طبيعة الاقليم عندهم ما يحسن لهم الاسفار وجوب الاقطار ثم لا يمر بهم يوم لا يسمعون فيه بمهاجرة عشرات منهم الى انحاء شتى من العالم طلباً للكسب وسعيّاً وراء الاثراء فيشبون على حب الاغتراب وطلب المعالي متمثلين بقول الشاعر

ترحل عن مكان فيه ضم وخلّ الدار تنهي من بناها .

فانك واجدٌ أرضاً بارض ونفسك لا تجد نفساً سواها

ومن كانت منيته بارض فليس يموت في ارض سواها

وهم عاكفون من جهة اخرى على تعلم اللغات واتقانها فاذا أتم السوري دروسه أو أتم تجارته ولم يتعاط عملاً يقعه عن السفر جعل دينه الاقلاع عما هو فيه من السعي وراء ما يكفيه مؤونة الحمول ورفع منزلته بين الاقران فيقدح زناد الفكرة في الجهة التي يختارها لمسيره فيفضل في الغالب الديار المصرية لانها ما برحت منذ تولاها المغفور له محمد علي باشا باباً واسعاً للتجار فكان يتقاطر اليها السوريون يتعاطون التجارة التي كانت اذ ذاك واسعة لاتصالها بالسودان وبلاد العرب وفارس والهند من الشرق واوروبا واميركا من الغرب

ومما كان يرغب اليهم اثار هذا القطر السعيد على سواه ما كانوا يرتاحون اليه من رابطة اللغة وسيادة الامن وما كانوا يؤانسونه في اخوانهم المصريين من حسن الوفادة ورقة الجانب فان المصري عنوان اللطف ومعدن الرقة ولكنه يؤثر الإقامة على الاغتراب ومعاناة الاسفار لما خص الله به تربة بلاده من الخصب وبما اولاه من حسن الرعاية وتأيد الامن وتكاثر أسباب الكسب السهل بعد ان دانت الديار المصرية للعائلة الحمديدية العلوية بما توخاه ولاتها من الرفق بالرعية وتسهيل أسباب معيشتهم فهم من أجل ذلك في أمن وسكينة لا تشوقهم الاسفار وهم لا يميلون الى استطلاع أحوال الامم لاستغنائهم عن ذلك بما يرد على بلادهم من اجناس الناس على اختلاف المذاهب والنزعات واللغات والازياء فيمر في أسواقهم كل يوم مئات بل الوف من الجالية القادمين من انحاء العالم وفيهم الاوربي والاميركي والشامي والتركي والفارسي والهندي والسوداني والحجازي واليميني وغيرهم مما لا يحصى عد وكل منهم آمن مطمئن أقام أو رحل استوطن أو نزع

فألف السوريون الإقامة بينهم يتعاطون اعمالهم التجارية حتى نبغ منهم جماعة اكتسبوا مالاً طائلاً بمجدهم واجتهادهم وهؤلاء هم في الغالب اغنياء السوريين في الديار المصرية . وهذا كان دأبهم الى الثلث الاخير من هذا القرن

أما في الازمنة الاخيرة فقلما يأتون هذه الديار للتجار لتضييق هذا الباب بفتح ترعة السويس واتصال البحرين الابيض بالاحمر فتحولت مجاري التجارة الى اوربا

وتزاحم الافرنج على أبوابها واتفق تولى الحديوي الاسبق اسماعيل باشا فخب اليهم الاستخدام في مصالح الحكومة برواتب باهظة فمالوا بكليتهم الى هذه الوجهة وآثروا نيل الراتب وجعل ذلك يتمكن فيهم حتى كادوا يفقدون ملكة التجارة الا فئة منهم فالسوري يأتي الديار المصرية الآن يلتمس خدمة في دوائر حكومتها غالباً وشتان بين مجيئه هذا ومجيء اسلافه من قبل وقد اصبح منذ رضي بالاستخدام خاملاً مغلول اليدين وقد قصرت باعه عن مباراة اسلافه ومعاصريه في اكتساب الاموال لانه قنع براتب يتناوله آخر الشهر ثم لا يكاد يدخل الشهر التالي الا وقد انفقته وربما استدان ما يعينه على نفقات باقي الشهر ولا فرق في ذلك بهظ الراتب او قل فانه منفقته لا محالة سواء كان مئة قرش او مئة جنيه او اكثر او اقل فان القاعدة العمومية اتفاق الراتب قبل انقضاء الشهر

ونحن نعرف بين هؤلاء الموظفين كثيرين من اصحاب الرواتب الباهظة ولا يخطر لنا مما نعلمه من ابواب النفقة عندهم انهم يحتاجون الى اكثر من نصفها ولكننا لانراهم الا وقد انفقوها واستدانوا فوقها . وهذه حالة توجب قلقهم وتستدعي تيقظهم لانهم يقضون ائمن سني حياتهم لا يجمعون شيئاً يرتكنون اليه وقت الحاجة . ناهيك عما يهددهم من استغناء الحكومة عنهم في زمن لا يعرفونه . فويل لمن يأتيه الامر بالرفق وهذه حالته فانه يصبح (الا فيما ندر) صفر اليدين مغلول التبعضتين كثير النفقات لما اعتاده من البذخ والاسراف والتأنق بالماكل والمشرب والملبس وهو مع ذلك لا يستطيع عملاً تجارياً كان او صناعياً لتعوده معيشة الترف وقضاء معظم اوقاته اما في اماكن اللهو واما بمطالعة الروايات او باشياء اخرى تختلف عن ذلك كثيراً فيقع في حيرة وربما قاده اليأس الى المهاجرة الى حيث لا يعرفه احد هذا اذا لم يكن مقيداً بعائلة او شيء آخر يحمله على البقاء تحت هذه الاثقال ولا ادري ما تكون عاقبة امره اذا لم يتوفق الى خدمة في احدى مصالح الحكومة ولكن بعد ان يذوق مرارة المذاب ويغض على نواجذ الندم ويندب الزمن الذي قضاه في ما لم يغن عنه شيئاً ويقسم ان يشير على كل من عرفه ويوصي اولاده واولاد اولاده ان يتعدوا عن هذه الخدمة

على ان للاستخدام حسنات ولا سيما في مصالح الحكومة المصرية ولكنها لا توازي نذراً يسيراً من سيئاتها لان السورى انما يغادر وطنه طلباً لكسب الحسن

حتى يستوفي ما ينسبه مشاق الاسفار والابتعاد عن الاهل والخلان . والسوريون اهل مهارة في اساليب التجارة يشهد لهم بها العارفون ويؤيد صحتها تاريخ اسلافهم الاقدمين وموقع بلادهم ولنا من شواهد الاحوال اقوى دليل قالك العيان ودع عنك الخبر ها ان في القطر المصري من التجار عدداً عديداً وهم اخلاط من سائر الطوائف والملل ولا ترى السوري فيهم الا من امهرهم في ابواب التجارة واقدرهم على اكتساب الاموال

واذا نظرت الى السوريين المقيمين في هذا القطر وتأملت طرق معاشهم تتضح لك عاقبة كل من التجارة والاستخدام لانك ترى الذين جمعوا مالا منهم انما جمعوه بطريق التجارة ليس الا ولا يفرنك من حسنات الاستخدام نيل المناصب والرتب والالفاظ وانما العمدة فيما تذخره لعائلتك واولادك ولا ترى واحداً في كل مشة من المستخدمين من اذخر شيئاً يستحق الاعتبار وربما لو بحثت تراه انما اذخره من غير باب الاستخدام

اما اذا احسن المستخدم التصرف في نفقاته واقتصد في طرق معاشه حتى يذخر شيئاً من راتبه مع ما يستحقه من المكافأة او المعاش في آخر ايامه فيكون قد اصاب الغايتين وتمتع بالحسنتين لان في خدمة الحكومة شرفاً واهية تتناول اليهما الاعناق وتشد اليهما الرحال ويكون من الجهة الثانية قد قام بخدمة هي من اجل الخدمات العمومية لمصلحة بني الانسان . ولكتنا نبغض هذه الخدمة الى من لا يعرفون كيف يقومون بها حتى تقوم بهم واذا داموا لها فانها لا تدوم لهم

وما يصح على السوريين من هذه الخيبة يصح على المصريين وان يكن هؤلاء احق بتولي تلك الخدمات وأجدر بالتمتع بمصالح البلاد الا اننا نرى من تكافهم على الخدمة وتعلق آمالهم بها وانقطاعهم اليها ما لا تحسن عاقبته فتصح لهم أن يوجهوا انتباههم الى باب من ابواب الثروة قد اختصت به الديار المصرية وقل أن يضارعها فيه غيرها من البلاد الا وهو باب الزراعة فان وادي النيل واد خصب كثير النتاج بما يحمله اليه النيل المبارك من السهاد بفيضانه كل سنة فاذا اعتنى الآباء في توجيه افكار اولادهم وترغيبهم في الزراعة وأدخلوهم في المدرسة الزراعية فان لهم مستقبلاً حسناً يعود على سائر القطر بالنفع الجزيل

العرب والترك^(١)

كيف التقت الامتان

لم يكن بين العرب والترك علاقة قبل الاسلام وكان كلاهما أهل بادية وسطو وغزو . ولم يلتقيا قط لما بينهما من الابعاد الشاسعة . فالعرب كانوا في جزيرتهم والترك في جبال الالطاي أو جبال الذهب في اواسط آسيا بين الهند والصين وسبيريا وبينهم وبين جزيرة العرب مفاوز واودية وجبال . وهم يختلفون عن العرب في تكاوينهم واخلاقهم وآدابهم ولغتهم اختلافاً كبيراً . ويستحيل التفاهم بينهم لتباعد اللغة التركية الاصلية في تركيبها والفاظها عن اللسان العربي يوم لم يكن فيها كلمة عربية ولا في اللغة العربية كلمة تركية فضلاً عن اختلاف اسلوب التعبير

فلما قام العرب بالاسلام وأخذوا ينتشرون بالفتح أو غيره وطئت حوافر خيولهم بلاد الترك وهم يعبرون عنها بما وراء النهر ففتحوا بخارا وسمرقند وفرغانة واشروسنة وغيرها من تركستان في أيام بني امية . وكان أهل تلك البلاد قبائل يتولاهم امراء او ملوك يعرفون باسم خاقان أو اخشيد أو غيرها . وكانوا لا يزالون على عبادة الاوثان فدخولهم في حوزة المسلمين بعث على احتكاكهم بالعالم المتمدن في ذلك العهد فاعتنقوا الاسلام وظهرت مواهبهم ونبغ منهم القواد العظام وانشأوا دولا حكمت العالم الاسلامي قروناً متواليه . وتقسم علاقة الاتراك بالعرب في الاسلام الى دورين الاول دور الخدمة والثاني دور السيادة . ونعني بدور الخدمة دخول الترك في خدمة العرب في صدر الاسلام . وبدور السيادة سيادة الترك على العرب بعد ذلك

سيادة العرب في صدر الاسلام

فطر العرب على الانفة والاستقلال فلما قاموا بالاسلام وفتحوا العالم زادوا عظمة واعتقدوا الفضل في انفسهم على سائر الناس وانهم من غير طينتهم . واصبح العربي يعد نفسه سيداً على غير العربي ويرى انه خلق للسيادة وسواه للخدمة . ولذلك لم يكن العرب يشتغلون في صدر الاسلام بغير السياسة والحكومة وتركوا سائر الاعمال لسواهم . ولم يكن ينازعهم في تلك السيادة أحد فكانوا يزدادون افتخاراً وخصوصاً على المسلمين غير العرب ويسمونهم الموالي يريدون انهم كانوا عبيداً لهم واعتقوهم -

وهم غير أهل الذمة . ويدخل في جملة الموالي الفرس والترك وغيرهم من المسلمين غير العرب . وبلغ من ترفعهم عنهم أنهم كانوا يكرهون ان يصلوا خلف المولى واذا صلوا قالوا اتنا تفعل ذلك تواضعاً لله . وكانوا لا يكتونهم بالكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقب ولا يمشون في الصف معهم ولا يتقدمونهم في المواكب الى غير ذلك مما تراه مفصلاً في تاريخ التمدن الاسلامي

وكأن العرب سيكروا بخمر السيادة والنصر لارتقائهم من رعاية الابل الى سياسة الممالك في بضعة عشر عاماً فتوهموا في فطرتهم ما ليس في سواهم من المناقب والسجاياء كما توهم الرومان قبائهم وكما يتوهم أهل هذا العصر في بعض الامم السائدة فيعتقدون امتيازها باصل فطرتها عن سائر الامم - وكان فضل العرب على سواهم يعد قضية مسلمة لا تحتاج الى دليل . فلما بالغ بنو امية في الاستخفاف بغير العرب بعد ان ذهبت دهشة النبوة أخذ هولاء في التذمر ونصروا آل علي وغيرهم من أعداء الامويين ونشأت طائفة لا تعترف بفضل العرب تعرف بالشعوية لم تظهر الا في الدولة العباسية بعد ان انحط شأن العرب

وبدا انحطاط شأن العرب على الخصوص بعد الاختلاف الذي وقع بين الامين والمأمون اذ استنصر المأمون الفرس على العرب رجال اخيه وكانت الغلبة للمأمون . فانحط شأن العرب وصار الخلفاء يعولون بعده على الاستعانة بالاعاجم وخصوصاً الأتراك واخذوا يجندونهم

خدمة الأتراك في الجند الاسلامي

يبدأ دور الخدمة منذ فتحت تركستان على عهد الامويين فكان القواد اذا فتحوا بلداً حملوا اسراهم وسباياهم الى اهلهم أو باعوه لمن يحملهم الى الاطراف فيباعون بيع الرقيق . ولما افضت الدولة الى العباسيين كانت تركستان تؤدي الجزية والخراج فكان العمال يحملون في جملة الجزية اولاداً من أهل بادية تلك البلاد يبيعونهم للرق وهم في الغالب من السبي أو الاسرى على جاري العادة في تلك الاعصر . وقد يختص الامراء باحسنهم فيخدمون في دورهم مع غيرهم من ارقاء الامم الاخرى ويعرفون بالماليك وكان الأتراك يمتازون عن سائر الامم التي دانت للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة في رمي النشاب والصبر على الاسفار الشاقة فوق ظهور الخيل والثبات في ساحة الحرب فاتخذ منهم الخلفاء بالتدريج جنداً واول من استخدمهم في الجندية من

الخلفاء المنصور العباسي ولكنهم كانوا شردمة صغيرة لا شأن لها في الدولة وإنما كان الشأن الأكبر يومئذ للخراسانيين (الفرس) والعرب . ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في أيام الرشيد وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الأمين وتسلط الفرس انصار المأمون واخوانه واستبدوا في الدولة كانت الحضارة قد اضررت بالمسلمين وازدهبت منهم قوة التغلب والفتح . ففكر المعتصم اخو المأمون في ذلك قبل ان تفضي الخلافة اليه وكانت امه تركية وفيه كثير من طبائع الاتراك التي ذكرناها مع الميل اليهم لانهم اخواله كما كان يميل المأمون الى الفرس

وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتطاولهم بعد قتل اخيه الأمين فأصبح يخافهم على نفسه ولم يكن له قوة بالعرب وقد ذهبت عصيتهم واخذوا الى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم فرأى ان يتقوى بالأتراك وهم لا يزالون الى ذلك العهد اهل بداعة وبطش مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش . فجعل يتخير منهم الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم في العراق او يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها فاجتمع عنده عدة آلاف وفيهم جمال وصحة فالبسهم اثواب الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وميزهم بالزي عن سائر الجنود وبذل العناية في تدريب جنده هذا وبنى لهم مدينة سامراً واطلق لهم الاعطية فاعتنقوا الاسلام وتحضروا ولم يقتصر على اقتناء المالك لكنه رغب كثيرين من الامراء واولاد الملوك في القدوم اليه فاشتد ساعد الاتراك وقويت شوكتهم وغلبوا على امور الدولة خصوصاً بعد ان انقذوا المملكة من بابك الخرمي وفتحوا عمورية في عهد المعتصم . فبعد ان كان التفوذ للوزراء الفرس صار الى الاتراك واصبحت ازمة الدولة العباسية بعد المعتصم في ايديهم ولا سيما بعد ان قام المتوكل لمقاومة الشيعة فزاد في تقديم الاتراك لانهم كانوا عوناً على ذلك . ثم اغرام ابنه المنتصر (او هم أغروه) على قتله فقتلوه وكان ذلك أول جرأتهم على الخلفاء . وولوا المنتصر بعده ولم تطل مدة حكمه اكثر من بضعة اشهر فمات وضميره يخزه . وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨ هـ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ هـ وقد استفحل أمر الاتراك استفحالاً عظيماً - ومما يحكى عن استبدادهم في الخلفاء انه لما تولى المعتز قد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم « انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة » وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال « انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره

« وخلافته » فقالوا له « فكم تقول انه يعيش وكم يملك » قال « مهما أراد الاتراك » فلم يبق في المجلس الا من ضحك .

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة فانهم جرّوه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدايس وخرقوا قميصه في الشمس بالدار فكان يرفع رجلاً ويضع اخرى لشدة الحر وبعضهم ياطمه يده . والمستكني سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس وبلغ من فقر القاهر بالله انهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفي رجله قبقاب خشب - فلا غرو اذ اصبح الخلفاء آله في ايدي الاتراك اذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب وبعد ان كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم

فهذا وامثاله انحط شأن العرب وقيل عنهم « لا يفلح العربي الا اذا كان معه نبي بنصره » واشتد ازر الاتراك فتدرجوا من الاستبداد في دور الخلفاء الى انشاء الدول فانتقلوا من الخدمة في دول العرب الى السيادة على العرب وغير العرب

سيادة الاتراك في القرون الوسطى

بدأت سيادة الاتراك بأثناء الامارات في ظل العباسيين واقدم اماراتهم الطولونية فالإيلكية فالأشيدية فالغزنوية ثم انشأوا الدول الكبرى واولها الدولة السلجوقية وفروعها في فارس وتركستان واسيا الصغرى والشام والعراق وغيرها ثم دول السلاطين المماليك في مصر والشام واخيراً الدولة العثمانية وبها يدخل تاريخ الاسلام في دور جديد . لانها انت العالم الاسلامي قد تمزق وتضعضع بما انتابه من صدمات المغول وغيرهم فجاءت هذه الدولة في ابان الحاجة اليها فافتحت القسطنطينية وقديس المسلمين من فتحها بعد أن حاولوه مراراً . وحارب العثمانيون أعظم ملوك أوروبا وطاردهم الى بلاد المجر وحاصروا فينا عاصمة النمسا وأخذوا الجزية من الارشيدوق فردينان واكتسحوا البحر الابيض الى شواطئ اسبانيا فارتعدت أوروبا خوفاً منهم . وفتحوا ناشرق الى العراق ثم ساروا جنوباً غرباً حتى فتحوا الشام ومصر وفيها بقية الدولة العباسية فتنازل العباسيون لهم عن الخلافة فامتدت مملكتهم في ايام السلطان سليمان (سنة ٩٢٦ - ٩٧٤ هـ) من بودابست على ضفاف الطونة الى اصوان على ضفاف النيل ومن الفرات بالعراق الى بوغاز جبل طارق . فاجتمع العالم الاسلامي الغربي تحت جناح الدولة العثمانية ولا يزال . وكان اجتماع الخلافة

والسلطة فيها سبباً لطول بقائها أكثر مما تقدمها من الدول الإسلامية حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم لأن سلطتهم أصبحت بعد القرن الثالث من إنشاء دولتهم أسما بلا رسم . والدولة العثمانية أول دولة إسلامية غير عربية جمعت بين الخلافة والسلطة ووافقها المسلمون عليه

أما العنصر العربي في أثناء ذلك فقد كان ضعيفاً إلا في الأندلس إلى زمن محدود . وحاول النهوض في أثناء الدولة الفاطمية بمصر فلم يكد ينهض حتى غلب عليه الأكراد فالأتراك فسقط ولم يبق للعرب قائمة في الدولة الإسلامية من ذلك الحين - إلا ما أبدته بعض القبائل من النهوض في بلاد العرب أو غيرها بدعوة سياسية أو دينية كقيام الوهاية في نجد والدراويش في السودان . ولما عزم محمد علي باشا مؤسس المائلة الخديوية على إنشاء دولة إسلامية كبرى في أوائل القرن التاسع عشر أراد أن يستعين على أنشائها بعصبة إسلامية وأقوى العصبيات بمصر يومئذ الترك والعرب وكانت العصبة التركية للدولة العثمانية فاخترت عصبة العرب فخامت الآمال حوله وخصوصاً بعد حربه الوهاية واجتماعه بشريف مكة وغيره من رؤساء القبائل . فاحيا العنصر العربي ونشط العصبة العربية بما أنشأه من المدارس والمطابع أو نشره من الكتب . فكان للعرب نهضة قلما أفادته في غرضه السياسي لما حال دون مطامعه من أغراض دول الأفرنج في المملكة الإسلامية . ولكنها أفادت أهل الشرق من العرب فائدة أدبية علمية بتمهيد السبيل للنهضة التي نحن فيها

القسم الخامس

في اللغة والادب والصحافة

الأكاديمية العربية^(١)

اللغة كائن حي خاضع لناموس النشؤ والارتقاء تنمو بالذثور والتجدد والتحول والتولد على ما تقتضيه الاحوال الاجتماعية والعلمية والسياسية . ولغة العربية تاريخ يؤيد هذه الحقيقة . ولو توفرت لنا اسباب البحث لرأينا لكل لفظ تاريخاً مرّ به في ادوار يسر وعسر وتقلب بين السعادة والشقاء . وان الوفاً من الالفاظ ماتت واندثرت وقامت الوفاً اخرى مقامها . ويغلب ان يصيبها ذلك على اثر الانقلابات الاجتماعية أو العلمية أو غيرها فيصيب اللغة تغير يلائم احوال المتكلمين بها . واهم التغيرات التي اصابته لغتنا في عصر التاريخ وقع في صدر الاسلام على اثر الانقلاب الديني بمحدث المعاني الدينية والاجتماعية . يليه تغير رافق الانقلاب السياسي بانشاء الدولة الاسلامية والحضارة الاسلامية في انحاء العالم العربي . وتغير اقتضاه نقل العلوم من اللغات الاعجمية بما فيها من المصطلحات العلمية . غير ما استلزمه اختلاط العرب بالامم الاخرى من اقتباس الالفاظ والمعاني مما يطول شرحه

وانما نريد الآن التغيير الاخير الذي اقتضاه دخولنا في المدنية الحديثة اقتداء بالافرنج . فنقلنا علومهم وفنونهم وقلدناهم في كثير من آدابهم الاجتماعية وأحوالهم السياسية والادارية فاقبلسنا معاني كثيرة لا نعرف لها الفاظاً عربية تؤدّيها . فنهج كل كاتب منهجاً في النقل أو التعريب فاختر بعضنا للمعنى الحديث لفظاً يرى انه يؤدي الغرض المطلوب واختار غيره غيره . فاختلقت مختاراتنا وتضاربت حتى أصبح للمعنى الواحد عدة الفاظ على ما تراءى للناقلين . فبعضهم وضع لفظاً من عند نفسه والبعض الآخر استخرجه من كتب العرب القدماء ومنهم من استبقى اللفظ الاعجمي على

(١) عن الهلال سنة ٢١ صحيفة ١٠١

حاله . فادي ذلك الى فوضى الانشاء وتضليل القراء واصبحت اللغة في حاجة الى من ينظر في أمرها ويتلافى الخطر الذي يهددها . واليك أمثلة من بواعث تلك الحاجة

الالفاظ العلمية : يدخل فيها مصطلحات العلوم الطبيعية وما تفرع منها على اختلاف مواضعها مما حدث أو اتسع في هذا العصر كالطبيبات والكيمياء والتاريخ الطبيعي والجيولوجيا والفيسيولوجيا . وعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد السياسي والفلسفة الادبية والعقلية وغيرها . فان لكل من هذه العلوم مصطلحات لفظية لمعان حدث في هذا العصر لم يكن العرب يعرفونها فلم يكن لها الفاظ في لسانهم . أو ربما كان لها الفاظ أهمات بتوالي الاجيال فلا نصل اليها الا بالبحث والتنقيب . وقد اشتغل المترجمون في النهضة الاولى على أيام محمد علي في التنقيب عنها فاستخرجوا كثيراً منها أدخلوه في مترجماتهم . وفعل مثل ذلك أيضاً المشتغلون بنقل هذه العلوم في المدرسة الكلية الاميركية في بيروت . ولكنهم اختلفوا في كثير من المصطلحات التي وضعوها للمعاني المتشابهة فاختلفت هولاء لفظاً لهذا المعنى واختلفت اولئك غيره وكلاهما اتصل اليه بالاجتهاد فمن مصطلحات علم النبات مثلاً :

الاصطلاح المصري	الاصطلاح السوري	الاصطلاح المصري	الاصطلاح السوري
الفصيلة الخيمية	الصيوانية	الرقص السنجي	الخوريا
الغاب	القصب	حنف القدم	قدم فدعاء
توت	كبش	مغضن معوي	قولنج
ذر	برعم	الجسم المندمل	الجسم الصلب
عضو التذكير	السداة	عين السمكة	مسمار
الريشة	سويق الجنين	داه الحرقفة	مرض الورك
الشيكوريا	الهندباء	لحمين	كرياتين
جذر كروي	قرم	حمى الدنج	ابو الركب
لقافة ظرفية	كوبس	غروبين	املسين
ذئب	رجيلة ارزند	سيانوز	الزوارق
خيطة عضو التأنيت	قلم	بشرة مخاطية	ابثيليوم
الشوكران	الكونيوم	طفح جلدي	نفاط
خوخ	دراقن	هربس	قوبا

الاصطلاح المصري	الاصطلاح السوري	الاصطلاح المصري	الاصطلاح السوري
عضو التأنيث	مدقة	مدة التفريح	مدة الحضانة
برقوق	خوخ	الم عصبي	نقر الحيا
طلع	بلن	تانة الفم	بخر
توت أرضي	كبش القش	فقاغة	بجل
عرق الذهب	ايكاك	الهاب رثوي	ذات الرثة
القرنفل المطري	كبش قرنفل	ضربة الشمس	رعن
ليفين نباتي	كاون	ومن مصطلحات الطبيعيات وغيرها	
ومن المصطلحات الطبية		الجبر	الكس
التسمم الكحولي	هذيان السكرى	القوة المركزية	قوة التباعد عن المركز
الذباب الهندي	الذراح	حلزونى	لولي
المنستر	الكستور يوم	عتلة	مخل
من القيظس	من الغاطوس	زيغان النور	استقطاب النور

وقس على ذلك سائر المصطلحات التي نقلوها يومئذ . ولا يخفى ما يترتب على هذا الاختلاف من الالتباس . واعتبر ذلك أيضاً في الالفاظ الادارية وفي جملتها مصطلحات الحكومة فان بين مصطلحات الحكومة المصرية والسورية بونا عظيماً . وأمرها مشهور لا يحتاج الى بيان . وهكذا يقال في العلوم الحادثة لهذا العهد وقد أخذ الكتاب في نقلها الى العربية كعلم الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع وعلم النفس (البسيكولوجيا) ونحوها . فهذه لا بد من اختلاف الناقلين في انتقاء الالفاظ المؤدية لتلك المعاني . وبعضها يحتاج الى اعمال الفكرة قبل تعريده مثل قولهم من مصطلحات علم النفس Subconscious و Subjective و Objective و Association وقولهم

من اصطلاح علم الاجتماع Genetic و Telic و Institution و Régime

المصطلحات السياسية : وناهيك بالمصطلحات السياسية والصحافية التي كثيراً ما يلتبس فيها النقل لعدم الاتفاق على لفظ معين لها . فلم تنفق حتى الآن على لفظ يميز بين Conference و Congress وبين Entente و Alliance وبين Convention و Treaty وبين Souverain و Suzerain وبين Colonie و Dependance

وين Marine و Sailor وقس على ذلك مصطلحات الجندية البرية والبحرية كقولهم Yeomanry و Militia واسماء السفن الحربية كالطرادة والنسافة والمدمرة ونحوها فان كثيراً منها لا يزال متبساً . ومن هذا القليل المصطلحات المالية والادارية كقولهم Deposit و Credit و Exchange ونحوها مما لم تتفق على الفاظ عربية تؤديه بلا التباس . وهكذا في سائر المصطلحات العصرية

الالفاظ المولدة : وهناك طائفة من الالفاظ العربية المولدة اقتضاها سير التمدن الحديث ولا نجد بدلا عنها في اللغة الفصحى مما استعمله العرب قديماً ولا نجد لها في كتب اللغة . مثال ذلك لفظ « معجم » بمعنى قاموس فان أصل معناها « النقط بالسواد » ومنه حروف المعجم وهي الحروف المقطعة التي تختص أكثرها بالنقط من بين حروف سائر الالم . فصار معناها بالاستعمال الكتاب المرتبة مواده على أحرف الهجاء مثل لفظة « قاموس » وهذه أيضاً ليست أصلية لهذا المعنى فانها وضعت في الأصل اسماً لمعجم الفيروزابادي . وأصل معناها البحر او أبعد موضع فيه سمي الفيروزابادي كتابه به المحيط اتساعة ثم أطلق على كل معجم . وكان العرب يسمون القواميس « كتب اللغة » . وقولهم « الوظيفة » بمعنى المنصب فان هذا اللفظ ليس له هذا المعنى في القاموس . ولكن جماعة من خيرة الكتاب استخدموه له وفي جملتهم ابن خلدون والمفريزي . وقس على ذلك طائفة كبيرة من الالفاظ العربية يستعملها الكتاب في اثناء التمدن الاسلامي لمعان جديدة لم يذكرها القاموس فهذه ينبغي ضبطها واعتبارها مولدة كما فعل علماء اللغة بغيرها من نوعها

فاللغة بهذا الاعتبار في حال من الاضطراب والتشويش لا تخرج منها الا اذا بادرنا الى اصلاحها . وهذا العمل لا يستطيعه فردٌ واذا استطاعه فلا يرجي أن يتبعه الكتاب في ما يراه او يذهب اليه . لان كل كاتب مفتون ببنات افكاره فلا بد من جمعية تتولى هذا العمل . وقد شعر أدباء اللغة بهذه الحاجة فالفوا الجمعيات لهذا الغرض منها المجمع العلمي الشرقي في بيروت والمجمع اللغوي العربي بمصر منذ بضع وعشرين سنة . واهتم نادي دار العلوم بهذا الموضوع أيضاً منذ بضع سنوات فقرر الفاظاً ومصطلحات كثيرة لكنها لم تشع على اقلام الكتاب اذ لم يكن لها صفة رسمية . فلا بد من تأليف جمعية تكون لها صفة رسمية وهذا ما أردنا اقتراحه على نظارة المعارف المصرية

نظارة المعارف

اما اختصاصنا بنظارة المعارف المصرية بهذا الاقتراح فسيبه ان مصر كما قلنا مراراً هي مركز العالم العربي وما برحت ملجأ اللغة العربية من قرون متباعدة وهي التي حافظت على الآداب العربية في اثناء عصر الانحطاط . وهي التي بدأت بالنهضة العربية في اثناء هذا التمدن . واقتدت بها البلاد الاخرى في الشام وغيرها . وهي اليوم ارقى البلاد العربية مدنية وصحافة وأدباً . فبعد أن ضربت الذلة على هذه اللغة أصبحت مصر ملجأها الوحيد للخروج من هذا المأزق ولا سيما بعد ان أخذت سعادة ناظر المعارف في احياء الآداب العربية . وهو أول من تصدى لذلك من وزراء هذه النظارة كما يتضح لك مما يلي :-

توالى على نظارة المعارف بضعة عشر ناظراً اولهم مختار بك أحد المتخرجين في اوربا من زمن محمد علي تولاهما سنة ١٨٣٦ وآخرهم لهذا العهد حشمت باشا . فالنظارة تأسست منذ ٧٦ سنة تقلبت في اثناءها على اربعة ادوار :

الدور الاول : يبدأ من ولاية محمد علي برئاسة مختار بك المذكور وينتهي في زمن الحديوي اسماعيل . وكانت تلك النظارة تعرف في اثناء ذلك الدور باسم « ديوان المدارس » وكان أعضاؤه من ابناء المصريين والارمن الذين تخرجوا في مدرسة باريس بامر الحكومة المصرية وبعضهم من الفرنسيين . وكان الغرض الاول من انشاء هذا الديوان التدريس الحربي لاجراج ضباط مصريين . ثم اتسعت دائرة التعليم فانشأوا المدارس المختلفة من ابتدائية وعالية للضباط والموسيقى والمشاة والفرسان والطبجية والبحرية والطب والهندسة والكيمياء والزراعة والالسن وغيرها . وكانت قاعدة التدريس فيها اللغة العربية فنبغ العلماء والاطباء والفوا في كل علم وفن باللغة العربية ولا تزال أمثلة من مؤلفاتهم في المكتبة الحديوية حتى الآن

الدور الثاني : يبدأ بنهضة التعليم الثانية في زمن اسماعيل وينتهي بالاحتلال . وفيه تشكل مجلس النظار سنة ١٨٧٧ على الشكل المعروف الآن . وتحددت النظارات وفي جملتها « نظارة المعارف » بدلاً من « ديوان المدارس » . وكان اسماعيل رغاباً في انشاء المدارس فكثر منها على يد وزيره علي باشا مبارك واتسعت دائرة العلوم والفنون . ثم افضت الولاية الى المغفور له توفيق باشا وفي أيامه حدثت الثورة العراقية

التي أفضت الى الاحتلال الانكليزي

الدور الثالث : يبدأ بالاحتلال وينتهي بوزارة حشمت باشا الوزير الحالي .
وحدث في اثناء هذا الدور تغيرات هامة في التدريس وطرق التعليم أهمها ان التعليم
تحول فيها من اللغة العربية الى اللغات الافرنجية الانكليزية او الفرنسية . وانصرفت
العناية من التعليم العالي الى الابتدائي بانشاء الكتاتيب ونحوها . واقفلت الارشاليات
الى اوربا وابطل التعليم المجاني وقلت العناية بتعليم آداب اللغة العربية . فكان لذلك
وقع سيء لدى الامة وارتفعت أصوات الجرائد والمجلات تطلب ملافاة ذلك . فاقترحت
الجمعية العمومية على الحكومة سنة ١٩٠٧ أن تجعل تعليم العلوم في مدارسها باللغة
العربية فاجابها ناظر المعارف يومئذ سعد باشا زغلول يعتذر بتمذر ذلك ويبين أفضلية
التعليم باللغات الاجنبية بالنظر الى حالة مصر . لكنه وعد أن يبذل جهده في اجابة
طلبهم . وقد فعل لكنه لم يستطع شيئاً كثيراً

الدور الرابع : وهو الذي نحن فيه يبدأ باسناد هذه النظارة الى حشمت باشا .
وبمتاز هذا الدور عما تقدمه بامور أهمها :

- ١ انه جعل التعليم في المدارس المصرية بالعربية في مدرسة الزراعة بالحيزة وفي
مدرسة مشهر المتوسطة التي انشأها . ومدرستي التجارة والمحاسبة . فضلاً عن
المدارس الابتدائية والثانوية . فان التعليم فيها أصبح كله باللغة العربية
- ٢ انه أعاد قلم الترجمة لتعريب الكتب كما كان في زمن المغفور له محمد علي باشا
وقد ترجم في السنتين الماضيتين ١٢ كتاباً في فنون مختلفة
- ٣ أدخل علوماً جديدة فنية تلائم حال الجمهور من حيث اعمالهم اليومية
وارتزاقيهم ومن حيث ترقية أخلاقهم وآدابهم
- ٤ اخذ في احياء آداب اللغة العربية . وهذا لم يتصد له وزير قبله فقرر طبع
بعض الكتب العربية النادرة وأخذ في اصلاح المكتبة الخديوية . وكثيراً ما سمعناه
يشكو من حال اللغة العربية واحتياجها الى الاصلاح أو الضبط ولذلك نجاسرنا على
عرض هذا الاقتراح عليه

الاقتراح

نقترح على سعادتكم الشاء مجمع علمي او اكاذمية تتولى هذا الاصلاح وغيره مما

يسهل عليه الطريق الذي يسعى فيه لآحياء الآداب العربية . كما فعلت الدول المتقدمة في أوربا منذ أجيال . فما من دولة متقدمة الا ولها اكاڤيمية لهذا الغرض أشهرها الاكاديمية الفرنسية التي انشأها ريشليو وزير لويس الرابع عشر في القرن السابع عشر . والاكاديمية الانكليزية نعي جمعية الآداب الملوكية أنشأها الملك جورج الرابع سنة ١٨٢٥ وقد الفوا منها سنة ١٩١٠ لجنة سموها اللجنة الاكاديمية على نسق الاكاديمية الفرنسية . الغرض منها النظر في ما تحتاج اليه اللغة الانكليزية وآدابها من الاصلاح في الانشاء والالفاظ والاخذ بناصر الآداب وتنشيطهم وتقدير الجوائز لمستحقى المكافأة منهم وغير ذلك . وهكذا يقال في سائر العالم المتمدن

فنقترح انشاء مجمع أو جمعية أو اكاڤيمية الغرض منها اصلاح اللغة العربية وضبط ما دخلها أو بدخلها وما تولد أو يتولد فيها من الالفاظ الحديثة على شكل يع استعماله في العالم العربي . لانا نعلم بالاختبار الطويل ان كتاب اللغة العربية في أنحاء العالم كله حتى في فارس والهند وغيرها يشعرون بهذه الحاجة . ولذلك فالذي نراه ان تألف هذه الاكاديمية من أهل الآداب على اختلاف طبقاتهم . بحيث يكون فيها العالم اللغوي والكتاب الصحفي والباحث الطبيعي والطبيب والمؤرخ والشاعر وعارفو اللغات الشرقية وامهات اللغات الافرنجية ولا سيما اليونانية واللاتينية . وان يكون لهذه الجمعية أعضاء مراسلون في أطراف العالم العربي يشتركون في هذا العمل . فيعرضون ما يرون الحاجة ماسة الى اصلاحه أو ادخاله أو تعريبه من الالفاظ أو المعاني أو نحت الالفاظ الجديدة التي يصعب تصريفها مثل تلفراف وتلفون فتشتق لها افعالا من لفظها يسهل استعمالها ونحو ذلك

والاكاديمية تنظر في ما يعرض عليها من الالفاظ أو الاوضاع وتعين اللجان اللازمة لدرسها وتقريرها . ثم تعرض ذلك على الجمعية فما أقرت على استعماله بالاكثرية يعان في الصحف ويدون في السكتب المدرسية بمصر . وينشر في سائر العالم العربي بواسطة الاعضاء المراسلين . ثم تشتغل بوضع معجم على النسق الحديث بحذف الالفاظ المهمة الضخمة التي حكم عليها ناموس الارتقاء بالدثور وازافة الالفاظ الجديدة من المعرب أو المنقول أو المنحوت أو المولد مما تكون الجمعية قد قررتة . وترجع في مواد القاموس الى اصولها التحليلية فتبين أصل كل مادة من أي لغة هو . وتتسع أعمال هذه الاكاديمية مع الزمان بحيث يكون لها ما للاكاديميات الافرنجية من تقرير الجوائز

المالية او الفخرية او الاخذ بناصر الادباء في نشر آثارهم او غير ذلك مما لا يمكن تعيينه الآن . اذ من العبث أن نطيل الكلام في موضوع لا يزال في حيز الفكر . فاذا حاز هذا الاقتراح قبولاً عدنا اليه وتوسعنا في درسه . ويحسن بالادباء الخوض فيه لاستجلائه بالبحث والمناقشة والله ولي الامر

حرية الصحافة^(١)

في انكارنا و، مصر

١ — الحرية على الاجال

تقسم الحرية في نظر علماء الاخلاق الى حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل . وقد يستغرب بعض أهل هذا الجيل قولنا « حرية الفكر » وكيف لا يكون الانسان حراً في فكر أي ان يفكر كما يشاء اذا كان لا يقدر أن يقول او يفعل كما يشاء . ولكن أهل الاجيال الوسطى ومن كان على شاكتهم من المفكرين بالعادات او الاعتقادات اولئك وأمثالهم لا يفكرون كما يريدون لانهم تعودوا الطاعة المطلقة والتسليم الاعمى لرؤسائهم أو أساتذتهم أو كهنتهم فلا يصدقون غير ما غرسوه في أذهانهم ولو كان مخالفاً لاحكام عقولهم وهو ما يعبر عنه بالتمصب الاعمى . ولولا ذلك لرأيت هداية الناس الى الصواب هينة ولكنها صعبة وأصعبها ما كان من قبيل الاعتقاد الديني فان الانسان حريص على معتقده ، مثل حرصه على كرامة نفسه وقد يرى الخطأ في جانبه فيغالط نفسه ويقيد فكره دفاعاً عن معتقده الذي اصبح جزءاً من حياته ولا يزال مكابراً حتى تجرد السيوف وتسيل الدماء — وكما سفكت في هذا السبيل دماء أهل الاجيال المظلمة . واذا نظرنا في سبب الخصام بفكر حر رأيناهم كانوا يختصمون على الاوهام

وقد يصل تقييد الفكر الى المكابرة بالحق الواضح مما يقع تحت الحواس الظاهرة كالقول مثلاً بدوران الارض فقد اضطهد صاحب هذا الرأي حتى اتهم بالكفر قبل شيوع مذهبه — ذلك كان شأن الامم من قديم الزمان وكانت افكارهم صدى افكار

قادتهم أو زعمائهم أو أساتذتهم فيدفعون كل فكر يخطر لهم اذا لم يوافق ما غرس في أذهانهم

ويمتاز عصر التمدن الحديث عن سائر الاعصر الماضية بشيوع الحرية فكراً وقولاً وفعللاً . فأخذ الناس منذ بضعة قرون يطلقون العنان لأفكارهم ولو خالفت ما قبلها وهم لا يخشون بأساً ولا رقيباً . اما انقول والفعل فلا يتيسر اطلاق الحرية فيها لئلا يؤدي الى الاذى بالآخرين . ولتقييد تلك الحرية اقيمت الحكومات وسنت القوانين وفرضت الشرائع وكان اهل الاعصر الماضية اكثر تقيداً منا فكراً وقولاً وفعللاً لان التقاليد حبست افكارهم والقوانين قيدت اقوالهم وافعالهم والحكومات الاستبدادية ضيقت عليهم طرقهم . فلما اطلقت قيود الافكار بعد عصر الاصلاح تبعها قيود الاقوال والافعال وقد جاهدت الامم المتقدمة في سبيل كسر تلك القيود جهاد الابطال . ويدخل في حرية العمل ان تنجو الامة من سلطة الاجانب وتقض على حكومتها بيدها فتخدم بلادها بحريتها كما فعلت اميركا بالنجاة من سلطة انكلترا ويترتب على حرية القول ان يقول الرجل ما يخطر له او يراه . ويدخل تحتها حرية التأليف . وكان التأليف قبل عصر الطباعة مقيداً بإرادة الرؤساء يراعي المؤلف فيه ما يرضي الملك او الامير او الرئيس او يميل فيه الى ما يوافق غرضه او غرض بعض محبيه . وقل من الف كتاباً بحرية تامة الا في العلوم التي لا سبيل لمراعاة الحظائر فيها . اما كتب التاريخ والادب فاكثرها كتب ارضاء لرئيس او حزب او جماعة التماساً للجائزة او فراراً من العقاب . حتى في عصر التمدن الاسلامي فقد كان لارادة الملوك او الخلفاء او الامراء دخل في المؤلفين والمؤلفات ولذلك رأيت الكتاب في عصر الدولة العباسية سكتوا عن حسنات بني امية ولم يذكروا الاسيئاتهم ارضاء للخلفاء العباسيين وقس على ذلك

ويدخل في حرية القول أيضاً حرية المطبوعات على العموم والصحافة على الخصوص لانها عبارة عن اطلاق الحرية للكتاب أن ينشروا ما يقولونه - وهو موضوع بحثنا

٢ - حرية المطبوعات

لم تقل ايم اوربا حرية المطبوعات الا بعد جهاد عظيم مثل جهادهم لنيل الاستقلال

ونحن لانستطيع تصور ذلك الجهاد لا تالم نجرب هذا ولا ذاك ولان حرية الصحافة أتنا غنيمة باردة مثل سائر أسباب المدنية الحاضرة . فقد وصلتنا العلوم والمصنوعات والاختراعات ناضجة نامة فاقطفنا ثمارها ونحن نيام . اما اصحاب هذا التمدن فقد بذلوا النفس والنفيس وضحوا بالمال والرجال قبل الحصول عليها . كانت الاقوال مقيدة قبل عصر الطباعة بقوانين كنائسية تمنع الناس التكلم او الكتابة الا ضمن حدود معينة ومن اسلحة هذه القوانين ديوان التفتيش . وكانت الحكومة تعضد الكنيسة في تقييد الاقوال وكان مجلس الاعيان في بلاد الانكليز يساعد الكنيسة في هذا التقييد فلا يؤذن لواعظ ان يخطب الا برخصة خصوصية . فلما اخترعت الطباعة انحصرت مراقبة حرية القول بالحكومة فاصبحت لا تسمح بطبع كتاب او صحيفة الا باذن منها يتناوله المؤلف ويكون بيده شبه حق يحصر منفعة الكتاب به

ولنتبع تاريخ حرية المطبوعات في انكلترا - فقد كانت مراقبتها تأول اما الى منع الكاتب من نشر كتابه بالكتابة او تأذن بنشره بعد تقييده او تعاقب ناشره اذا نشره بدون اذنها . وكانت تشدد على الخصوص في منع نشر ما يدور في مجلس البرلمان من المباحثات او ما هو من قبيل اجراءات الحكومة ويعاقب الناشر بالقتل . وفي عهد الملكة ماري سنة ١٥٥٦ حصرت الحكومة الانكليزية حق الطبع والنشر بشركة تشكلت يومئذ لهذه الغاية . وأصدرت الحكومة سنة ١٥٨٥ أمراً بحصر الطباعة في لندن واكسفورد وكمبريدج على أن لا يتجاوز عدد الطابعين ٢٠ طابعاً ومعههم أربعة من سابكي الحروف ولا تطبع شيئاً الا برخصة خصوصية . واذا اتهم احدٌ انه طبع شيئاً بلا رخصة عمدت الى يده وقتشته بالقوة على يد موظف يسمونه « رسول المطابع » . وشددت في منع ادخال الكتب المطبوعة في الخارج اذا كانت من قبيل الجدال الديني او الانتقاد على الحكومة او الكنيسة . وعينت لمراجعة الكتب قبل طبعها مراجع معينة حسب المواضيع : فالكتب القضائية تؤخذ اثر رخصة بطبعها من رئيس القضاة وكتب التاريخ بأذن بطبعها أحد نواب نظارة الداخلية والكتب العسكرية بأذن بطبعها قائد الجند العام . وأما كتب الدين والفلسفة والشعر ونحوها من الادبيات فيرجع بها الى رئيس اساقفة كنتبري

وفي أواسط القرن السابع عشر عهد النظر في مراقبة المطبوعات الى البرلمان فعين أناساً يراقبونها تحت مناظرة الشركة التي تقدم ذكرها . وتجددت قوانين المراقبة

سنة ١٦٨٠ بعد أن نظر فيها ١٢ قاضياً فقرروا « أن كل من يكتب أو يطبع أو يبيع مطبوعات فيها طعن على الناس أو على أحدهم تحجز ويعاقب صاحبها حسب القانون وكذلك ما يمس الحكومة وإن يعاقب كتبة الاخبار على التحريف في نقلها وإن لم يكن فيها طعن أو قذف »

وكانت رخصة الطبع تعطى لمدة سنتين فجعلوها لسبع سنين. وللطباعة علاقة كبرى بالصحافة فلتنظر في نيل هذه الحرية عن طريق الصحافة :

٣ - حرية الصحافة في إنجلترا

كانت الصحافة الانكليزية في اول امرها تابعة باحكامها لساير المطبوعات حتى اذا تولى جورج الثالث ملك انكلترا مع ضعف رأيه وشدة عناده ورغبته في تولى امور الدولة بنفسه دون البرلمان اضطرت انكلترا ونفشت الرشوة فيها وأصبحت المناصب تباع بأسعار محددة حتى عضوية البرلمان . فاصبح الشعب لا يأمن على مصالحه لانه ضاع بين عناد الملك وكبرياء مجلس الاعيان وارتشاء مجلس العموم فاصبح لا يثق باحدى هذه القوات الثلاث فلجأ الى قوة رابعة اسعفته ونصرته وآنالته مراده وهي « الصحافة » وكانت الى ذلك العهد تحت المراقبة مثل ساير المطبوعات . ولكن الشعب كان قد ارتقى وتشرب روح الحرية الشخصية وأن له أن يفتكر بحرية ويقول بحرية وكتأب الصحافة من ابناء العامة يشعرون بما يقاسيه اخوانهم من الضغط فاخذت الصحافة على عاتقها المناداة بشكوى العموم من اعمال الملك ووزرائه ومجلس البرلمان

واتفق في أثناء ذلك ان الحكومة الانكليزية عقدت مع فرنسا معاهدة باريس سنة ١٧٦٣ وفيها ما فيها من الاجحاف بمصالح الانكليز فالشعب لم يكن راضياً عنها . وكان بين الصحف يومئذ صحيفة اسمها « نورث بريتون » محررها عضو في مجلس العموم اسمه جون ويلكس فانتقد تلك المعاهدة وطعن على ارل بوت رئيس الوزارة لانه رضي بها وهي اول مرة تجرأ صحافي أن ينتقد وزيراً انتقاداً صريحاً ويسميه باسمه فتحدث الناس بذلك وتناقضت الصحف وهاج الرعاع حتى اضطر الارل المذكور أن يستقيل من منصبه

نخاف الملك جورج أن يصيبه ما أصاب وزيره ورأى ان وزرائه لا تقوى على نصرته بين يدي هذا التيار العظيم فلجأ الى مجلس العموم وتقدم الى وليم بت زعيم

ذلك المجلس أن يشكل وزارة جديدة . فرأى بت أنه عاجز عن مناهضة الشعب فاشترط على الملك إذا شكل هو الوزارة أن يجعل أعضائها ممن يرضاهم الشعب . فابى الملك وعهد بتشكيلها الى جورج غرانفيل فشكلها وأعضاءها من الحزب الضعيف رأياً وفعلاً وأول عمل عزمته عليه تكيم الصحافة وتأييد سلطة البرلمان في وضع الضرائب على المستعمرة الاميركية كما ذكرناه في مقالة « استقلال اميركا » -
 ويهم الشعب الانكليزي الغاء هذا القرار لانه يمس حرية الجمهور في انكلترا نفسها . وكان الشعب الانكليزي يكره غرانفل كما كان يكره ارل بوت فانقضت عليه الصحف بالظعن والقذف من كل ناحية وكتبت فيه المقالات السياسية الحادة وعرضت فيها بذكر الملك والفت عليه بعض التبعة وأثم ما كتب بهذا الشأن مقالة نشرت سنة ١٧٦٤ في نورث بريتون جريدة جون ويلكس المتقدم ذكره جاء في جملتها « ان خطاب الملك للبرلمان يشتمل على كذب صريح »

فاصدرت الحكومة أمراً مستعجلاً بالقبض على محرري الجريدة وصاحبها وطابعها . فقبض على جون ويلكس وسيق الى سجن برج لندن بدعوى كونه مجرمًا سياسياً وحمل الآخرون الى السجون الاخرى تحت الحفظ . ثم انتهت الوزارة الى تسرعها في مقاصة هذا المذنب وانها فتحت عليها مسألة سياسية دستورية - ولم يكن ويلكس بحد ذاته من الاهمية في شيء ولو لم تضطهده الوزارة وتعن بمطاردته مات خامل الذكر ولكن اضطرهادها اياه جعل له شأنًا كبيراً حتى أصبح نائباً عن مبدأ عظيم الاهمية يتعلق بالحرية والدستور أعني حرية الصحافة وساعده على ذلك ان قلوب الشعب كانت معه لانه كان يعبر عن احساسها . فكان من غريب امره انه وفق الى ثلاثة امور نالها الشعب الانكليزي على يده هي من أعظم أسباب تقدمه أهمها حرية الصحافة وقد ترتب عليها منافع دستورية هامة تتعلق بمجلس الاعيان وعلاقته بمجلس العموم

أما طابعو نورث بريتون فلم يطل حبسهم ونالوا عند خروجهم تعويضاً كبيراً لان القبض عليهم لم يكن قانونياً . وكذلك ويلكس فانه خرج ونال تعويضاً لنفسه هذا السبب فاستأنف البرلمان محاكمته وأثني بالادلة على ادائته بجريرة القذف ففر الى فرنسا . وفي اثناء غيابه أصدر البرلمان قراراً باخراجه من عضويته واسقاط كل حقوقه المدنية . وعمد البرلمان والوزارة معاً الى الاستبداد في مقاومة الصحافة فصدر

غرانفل رئيس الوزارة ماثي حكم ضد الصحف بانذار عمومي هاجت منه البلاد وماجت ونار الشعب الانكليزي بجملته لاعتباره تلك المقارمة ضده لان الصحف انما حكم عليها لانها نصرت مصلحته . فأنحاز الشعب الى جانب ويلكس وأصبح شعارهم الذين ينادون به « ويلكس والحرية » فلم يستطع غرانفل الوقوف امام هذا التيار واضطر البرلمان ان يعترف رسمياً بان الانذار العمومي للجرائد غير قانوني ولم تصدر الحكومة الانكليزية انذاراً مثله من ذلك الحين

على أن الحكومة أخذت تعترض سير الصحافة وتسمى في قتلها من جهة أخرى فقررت سنة ١٧٧٦ ضريبة على كل نسخة من الجريدة بنسباً ونصف بنس أي نحو سبعة مليات وزادتها سنة ١٧٨٨ الى بنسين ثم زادتها سنة ١٧٩٤ الى بنسين ونصف وما زالت تزيدها حتى بلغت ضريبة الحكومة سنة ١٨١٥ أربعة بنسات على كل نسخة أي نحو قرشين مصريين فكانت النسخة تباع بسبعة بنسات او ثمانية والناس يطلبون الصحف مهما يكن ثمنها لانهم في شوق الى استطلاع الاخبار وفي حاجة الى تأييد غرضهم . ثم انتهت الحكومة الى خطأها فانزات الضريبة الى بنس واحد على النسخة ونصف بنس على الملحق . وكانت قد وضعت على الصحافة ضرائب أخرى على طبعها وعلى اعلاناتها فتأخذ على الاعلان مهما يكن حجمه ثلاثة شلينات ونصف واداً تجراً صاحب الجريدة على اصدارها بدون الطوابع الناطقة بدفع الغرامة وقع تحت طائلة القصاص فكان صاحب الجريدة في لندن يرسل الورق قبل طبعه الى مصلحة الطوابع ثم يحمله الى المطبعة - فاعتبر نفقات الصحف بما يلحقها من ضريبة الطوابع وضريبة الاعلانات فلا عجب اذا بيعت النسخة يومئذ بنسباً بنسات وهي تباع الآن بنس واحد . فلم يكن للفقراء سبيل الى ابتلاع الصحف مع تشوقهم الى استطلاع الاخبار فكان يشترك جماعة منهم على ابتلاع الصحيفة ويتناقلونها ويتدارسونها بالعناية لئلا تتهرق . فاحتمل بعض الكتاب على اصدار نشرات في كرايس لم يسماها صحفاً ولا يدفع عليها ضريبة وكان يبيع النسخة بينسين واحتمل آخرون حيلاً أخرى لنشر الاخبار بالثمن المعتدل والحكومة تقف في طريقهم ونحاكمهم او تفرمهم مما يطول شرحه

ثم تغيرت السياسة وتولى الحكومة العقلاء فاخذوا في تخفيف الضرائب تدريجاً وتحويلها وتعديلها وتخفيف اجرة البريد حتى صارت الصحافة الانكليزية الى ما هي

عليه الان فضلاً عن حرية الطبع والنشر . وقس على ذلك سائر دول اوربا فان الصحافة حرة في معظمها وقلّ بينها من نال هذه النعمة الا بعد التعب والعذاب

٤ - حرية الصحافة بمصر

تاريخ الصحافة في الشرق يختلف عن تاريخها في الغرب اختلافاً عظيماً فالصحافة الغربية اقتضتها طبيعة العمران بعد ان تمدن الناس وتعلموا وتعددت أحزابهم السياسية واحتاجوا الى ما يذيعون به آراءهم او يطلعون به على آراء الآخرين . فانشأوا الصحف لهذه الغاية والحكومات يومئذ لا تريد نشر الآراء على هذه الصورة خوفاً على اسرارها او ظهور ما تريد اخفائه من أعمالها ولا هي تريد أن يرفع صوت الشعب وتعدّ كلمته لان ذلك يقلل من نفوذها ويعرقل مساعيها فكانت تبذل جهودها في معارضة الصحف والتضييق عليها بالقوانين الصارمة والضرائب الفادحة حتى اصبح العدد الواحد من الجريدة يكلف صاحبها نحو قرشين ونصف كما رأيت ولكنه لم يكن يخاف تعطيل جريدته لانه كان يبيع العدد الواحد منها بثمانية بنسات او اكثر والناس في اضطراب للمطالعة للاسباب التي قدمناها والشعب بعدها سلاحه ونصيره . فاتحداً بدأ واحدة على الحكومة حتى فازا أخيراً بحرية المطبوعات

أما الصحافة الشرقية فقد وضعت في الاصل لخدمة أغراض الحكومة أو موظفيها والاهالي في غفلة عن معنى الصحافة أو الغرض منها الا طائفة من الخاصة . وأما جمهور الشعب وخصوصاً في مصر فكان مستغرقاً في زراعته لا تهمة الصحف ولا أصحابها . فكان أرباب الصحف يستعينون على نشر جرائدهم بنفوذ الحكومة فضلاً عما كانت تبذله لهم في سبيل اصدارها ولا سبباً في عصر اسماعيل فانه لم يذخر وسعاً في تنشيط الصحف ومساعدة أصحابها بالمال وكانت حكومته تشترك بمئات النسخ من الجرائد ولا تمنع مستخدميها من مساعدتها في تحصيل بدلات الاشتراك وكان بعض الوزراء يصحب وكلاء الجرائد بكتب التوصية للمديرين يأمرهم بمساعدة تلك الجرائد في النشر وتحصيل أموالها . فكان الرجل من العمد أو الفلاحين يشترك بالجريدة وهو لا يعرف القراءة وقد تأتيه أعدادها فلا يفتحها ويدفع بدل الاشتراك كأنه ضريبة من جملة الضرائب التي لا مفر منها . وكان بعض مأموري الحكومة يستعملون في تحصيل بدل الاشتراك العنف كالجلد أو الحبس مع علمهم أن الرجل لم يطلب الاشتراك ولا هو يحسن القراءة . وقد آلت هذه الطريقة طبعاً الى تعود الناس قراءة الصحف وان لم

يكن هذا هو الغرض المقصود منها - ظل ذلك شأن الصحافة بمصر الى اوائل الاحتلال ثم أخذت طريقاً آخر فصدرت الاوامر المشددة بمنع مستخدمي الحكومة من التوسط بامرها من حيث بدل الاشتراك او المكاتبات ونحوها

وقد مرّ على الصحافة الشرقية الى الان ثلاثة ادوار الاول « دور الحضنة » كانت فيه الجرائد آلة في أيدي الحكام تسبح باسمهم وتترنم باعمالهم واذا بحثت في السياسة فاكثر ابجائها عن الله البعيدة كما تفعل أكثر صحف سوريا اليوم . والدور الثاني « دور التمهض » يبدأ بنهضة الشعب المصري منذ ولاية المرحوم توفيق باشا وكان الناس في عهد أيه اسماعيل تحت الضغط لان سياسته كانت تقضي بابعاد الوطنيين وتقريب الاجانب ولم تكن الجرائد تصرح بهذا الغرض اما تزلقاً الى اسماعيل أو خوفاً على حياتها من عصاه . ولا يزال القوم يذكرون ما أصاب صاحب الاهرام رحمه الله لما نشر خبر مبلغ أفق ولم يعترف سبب انفاقه فطلب اسماعيل احضاره باسرع من البرق ولو لم تنصره دولة أجنبية لقضي عليه

على ان الصحف كانت في اواخر أيام اسماعيل قد اخذت تستنشق روح الحرية مما كان ينشر في بعض الجرائد الافرنجية التي تصدر بمصر وكانت تقلدها في حرية القلم الا ما يمس اسماعيل أو سلطته . فكان الكتاب الوطنيون يرون أقلامهم مقيدة بهيئة ذلك الرجل الغضوب الفتاك فيكظمون

وكان ابنه توفيق رحمه الله محباً لمصر وفيه سهولة ودماثة وكان يشكو من شدة والده واسرافه والوطنيون يتوسمون نفعاً كبيراً بانتقال الخديوية اليه . فلما قبض على ازمته سنة ١٨٧٩ لم يذخر وسماً في مراعاة جانب الوطنيين وتقديمهم - ولعله بالغ باطلاق الحرية لهم وهم لم يتعودوها فانقلب الغرض المقصود منها الى ما لا يخفى على احد

أما الصحافة فظهرت فيها آثار الحرية اكثر مما ظهرت في غيرها فاطلقت لنفسها العنان في الانتقاد وطلب الاصلاح ولم يكن بمصر الى ذلك الحين جرائد تنتمي الى الاحزاب فلما قام العراقيون أنشأوا عدة جرائد للدفاع عن سياستهم أشهرها جريدة التنكيث التي سماها عرابي « لسان الامة » وجريدة « الحجاز » و « الزمان » و « الطائف » وغيرها وظلت بعض الجرائد في جانب الحكومة فاضطرت هذه لايقاف ذلك التيار الى تقييد الاقوال فسنت قانوناً للمطبوعات سنة ١٨٨١ يقضي انه

لا يجوز لاحداث مطبعة او جريدة الا باذن الحكومة بعد دفع تأمين مالي معين ولا يجوز للمطابع نشر كتاب ما لم تمل الاذن بطبعه من قلم المطبوعات والا وقع عليها العقاب وقس على ذلك . فلم يكن هذا التقييد الا ليزيد الخرق اتساعاً وانتهى الحال بالثورة العراقية ثم الاحتلال الانكليزي

ودخلت الصحافة المصرية بعد الاحتلال في دور ثالث نسميه « دور الولادة » لان الصحف تدرجت فيه الى ما يشبه الصحافة الافرنجية من حيث اعتمادها على نفسها في جلب الاخبار ونشرها وتدير المشتركين وتحصيل البديل بعد ان كفت الحكومة عن التوسط بذلك وحصرت اشتراكها بنسخ قليلة من كل جريدة وأهمل قانون المطبوعات عمداً وأطلقت حرية الاقلام فعددت الصحف وانقسمت الى احزاب بعضها يمتدح الاحتلال ويطلب بقاءه والبعض الاخر يقبحه ويطلب الجلاء وهؤلاء فئتان فئة تطلب الجلاء بشدة وعنف وفئة تطلبه بالحسنى . وكل فئة من هذه الجرائد لا تتوب عن حزب معين له أعضاء معينون مثل الاحزاب في اوربا اذ ليس في مصر احزاب سياسية معينة ولكنها تعبر عن احساس طائفة من الناس يوافقون صاحب الجريدة على رأيه

فالجرائد عندنا هي التي تضع الآراء وتصورها الاحزاب والعادة في العالم المتمدن ان الاحزاب هي تنشئ الصحف وتناحز بها وتدافع عنها بالاموال والارواح - لا تبالي بتهديد الحكومة الا ضمن حدود القانون ولا نظن جرائدنا مهما يبلغ من شدتها اذا آذنت من الحكومة عيناً حمراء تستطيع الصبر على مقاومتها اذ ليس في قوانين مصر نص عن حرية المدايعات ولا يقوم الشعب لنصرتها

فالصحافة اتت مصر ناضجة نامة النمو وأتتها حرية المطبوعات نفواً لم تسفك في سبيلها دماً ولا انفقت عليها درهما . فمسي ان تحسن استخدام هذه الهبة لئلا تذهب من يدها . ولا يحسن بنا التمثل بدول أوربا في كل شيء لان احوالنا غير احوالهم . وتلك الدول أعطت رعاياها حرية المدايعات مضطرة بعد حدال وحرب انتهت بتغلب الشعب فازغنت الحكومة وكنت لهم بذلك نهوداً دوتها في قوانينها وشرائعها ولا يسهل الغاء شيء منها الا بعد مصادقة مجالس الامة . واما مصر فقد نالت تلك الحرية بارادة شخص اللورد كرومر . وقانون المطبوعات المتقدم ذكره لا يزال قابلاً للتنفيذ

الجرائد وواجباتها وآدابها^(١)

حملتنا حال الجرائد المصرية في هذه الايام من التطرف والتهور على التكلم في الجرائد وآدابها والشئ بالشئ بذكر . وقد رأينا لزيادة الفائدة أن نقسم كلامنا في ذلك الى أربعة أقسام : (١) تاريخ الجرائد في اوربا منذ نشأتها الى الآن (٢) تاريخ الجرائد العربية (٣) آداب الجرائد وواجباتها (٤) الجرائد المصرية ونهورها

(١) تاريخ الجرائد في اوربا

ذكرنا في الهلال الثاني والعشرين من السنة الثالثة ان الجرائد نشأت أولاً في الصين سنة ٩١١ قبل الميلاد وهو قول يحتاج الى اثبات ولكن المعول عليه ان يوليوس قيصر الروماني في اواسط القرن الاول قبل الميلاد أصدر نشرة يومية سماها (Acta Diurna) (ا كتا ديورنا) ومعناها « الاعمال اليومية » ينشر فيها اعمال المشيخة الرومانية الرسمية وحوادث الشعب الروماني وما زالت تصدر الى زمن الامبراطور يوليوس في اواسط القرن الرابع للميلاد فكانت بمنزلة مثال للجرائد التي صدرت بعد ذلك في اوربا

أما الجرائد في العصر الحديث فنشأت أولاً في جرمانيا في القرن الخامس عشر للميلاد وكانت تصدر في فينا وراتسبون واوسبرج وترنبرج على شكل صحف فيها ملخص الاخبار الجارية في تلك المدن وما والاها . ولكن الجرائد لم تمثل بالشكل المعروفة به الان الا في البندقية وأول جريدة صدرت فيها أثناء الحرب التي قامت بينها وبين الدولة العلية سنة ١٥٦٣ م دعوها (Gazetta) غازتا وهو اسم لقطعة من نقود البندقية تساوي ما يقرب من المائيم المصري وقد دعوها به نسبة الى ثمنها لانها كانت تباع بهذه القيمة

ثم تشبه الانكليز بهم فاصدروا في لندن سنة ١٦٢٢ جريدة (Weekly News) (اخبار الاسبوع) وكان المظنون ان الانكليز اصدروا جريدة سنة ١٥٨٨ في زمن الملكة اليبابات سموها (The English Mercury) «عطارد الانكليزي» ولكنهم

(١) عن الهلال سنة ٤ صحيفة ٩

مختلرات

(١٦)

وجدوا بعد البحث والتنقيب ان تلك الجريدة صدرت بعد ذلك التاريخ بازمان ومنها نسخ محفوظة في المتحف البريطاني

ثم انشأ الفرنسيون جريدة سموها « غازة فرنسا » صدرت في باريس في ابريل سنة ١٦٣١ م وقد نشطتها الحكومة ورفعت منزلتها حتى ان الملك لويس الثالث عشر نشر فيها مقالة بقلمه واقتدى به في ذلك أيضاً الكاردينال ريشليو الشهير ولا تزال هذه الجريدة حية الى الان وقد مر عليها ٢٦٤ سنة

فيظهر مما تقدم ان اول من انشأ الجرائد على النمط الحديث البنديون ثم الانكليز ثم الفرنسيون ولكن « أخبار الاسبوع » المتقدم ذكرها كانت أشبه بالخطابات الخصوصية منها بالجرائد العمومية حتى قد يليق بنا تقرير السبق للفرنساويين وأما أول جريدة انكليزية انشئت على مثال الجرائد حقيقة فهي جريدة « غازة لندن » صدرت سنة ١٦٤٢ لكنها لم تنش طويلاً ثم انشئت « غازة اوكسفورد » صدرت في اوكسفورد سنة ١٦٦٥ ثم نقلت الى لندن ودعيت غازة لندن London Gazette وهي لا تزال تصدر بهذا الاسم حتى الان . ثم صدرت جرائد اخرى في انكلترا وغيرها من ممالك اوربا واميركا وأقدم جريدة انشئت في اميركا « بوستون نيوستر » صدرت سنة ١٧٠٤ . فقد مرّ على الجرائد منذ أوّل ظهورها الى الآن اكثر من ثلاثة قرون قاست في اثنائها مشقات جسيمة حتى بلغت ما هي عليه من الكثرة والانتشار والحرية وكان في جملة العراقيين التي وقفت في سبيل نشر الجرائد عند أول صدورهم الضرائب التي كانت تضرب عليها فقد بلغت النفقة على العدد الواحد منها في بلاد الانكليز في أواخر القرن الماضي أربعة بنسات (نحو قرشين) وجعلوا ضريبة على كل اعلان ثلاثة شلينات ونصف شلن فضلاً عن المراقبة الشديدة التي كانت عليها فتضايق أرباب الصحف من ذلك كثيراً حتى صاروا ينتحلون الوسائل الغريبة في نشر جرائدهم وتجنب نفقاتها الباهظة

ومما يحكى من هذا القبيل ان رجلاً انكليزياً يقال له كرينتر أصدر في أوائل هذا القرن جريدة على شكل كتاب خصوصي سماه « كتاباً سياسياً » بوجه الخطاب فيه الى احد أعيان الانكليز ثم يطبع منه نسخاً عديدة يبيعها باسم كتاب سياسي وليس جريدة فكان يبيع من كل طبعة آلافاً من النسخ والحكومة لا تستطيع مطالبة

الخروج نشرته هذه عن تعريف الجريدة ولكنها أخيراً توسعت في تحديد الجرائد فأوقعته تحت طائفة القصاص وحكت عليه بدفع الضرائب التي ظنّ نفسه تخلص منها فاضطر إلى إصدار جريدته كسائر الجرائد الأخرى بدفع عليها النفقات الاعتيادية ومن أساليب الحيل التي اتخذوها هرباً من الضرائب أن أحدهم المستر هرتون أصدر جريدة كان يطبعها على مناديل رخيصة الثمن بسميها «منديلاً سياسياً» فنشرها مدة وكان يبيعها بثمن بخس فانتشرت انتشاراً حسناً حتى ناله أخيراً ما نال كربت المتقدم ذكره . على أن الحكومة نفسها بعد ذلك شعرت بفوائد الجرائد وانتشارها فأخذت تنشطها وتسهل طبعتها ونشرها حتى بلغت ما هي عليه في بلاد الانكبايز وحدها الآن ٢٣٠٠ جريدة سياسية يصدر منها في اليوم مئات الملايين من النسخ وقس عليه الممالك الأخرى

(٢) تاريخ الجرائد العربية

ذكرنا في أول عدد صدر من الهلال كلاماً مسهباً عن الجرائد العربية وأتينا على أسماء الجرائد العربية التي صدرت في العالم منذ أول عهدها إلى تاريخ صدور ذلك الهلال وليس من غرضنا العود إلى هذا الموضوع الآن ولكن المراد الاقتصار على تاريخ نشأة الجرائد العربية بالاختصار

علمت مما تقدم أن الجرائد نشأت ونمت في أوروبا ونحن اقتبسناها عنها كما اقتبسنا سائر العلوم الحديثة . ومعلوم أننا لم نعكف على أحياء علوم أسلافنا واقتباس العلوم الحديثة إلا في أواسط هذا القرن على أثر أحياء المعالم العربية في الديار المصرية والسورية بعد تولي العائلة المحمدية العلوية واقتتاح المدارس الأهلية والتوسعة للإجابة في الإقامة بيننا والدخول في مدارسهم وتعلم لغاتهم

والفضل الأول في إنشاء الجرائد العربية للمغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة المحمدية العلوية فإنه هو الذي أسس أول جريدة عربية في العالم منذ خمس وستين سنة وهي جريدة «الوقائع المصرية» ولا تزال جريدة الحكومة المصرية الرسمية ثم أصدرت الحكومة العثمانية جريدة عربية رسمية في بيروت منذ ٣٨ سنة سميتها حديقة الأخبار ثم صدرت الجريدة الرسمية لتونس الغرب وقد مرّ عليها إلى الآن زهاء ٣٥ سنة ولا تزال هذه الجرائد الثلاث حية ولكنها رسمية تصدر على نفقات حكومتها وتنشر أوامرها ومنشوراتها وأعمالها

أما الجرائد السياسية غير الرسمية فاقدمها جريدة الجوائب التي انشأها المرحوم الشيخ أحمد فارس الشدياق في الاستانة العلية عام ١٨٦١ م وقد تعطلت بعد الحوادث العراية وتليها جريدة وادي النيل أنشئت بمصر سنة ١٢٨٣ هـ (١٨٦٧ م) وكانت تصدر مرتين في الاسبوع على شكل كراس ومواضيعها سياسية وعلمية وأدبية ومحررها أبو السعود اقليد وتلي هذه مجلة الجنان التي انشأها المرحوم المعلم بطرس البستاني ببيروت عام ١٨٧٠ وكانت تصدر مرتين في الشهر على شكل كراس بقطع الهلال ومواضيعها علمية وأدبية وسياسية توقفت منذ بضع عشرة سنة وجريدة البشير للآباء اليسوعيين وهي صحيفة دينية اخبارية نشأت مع مجلة الجنان في عام واحد ولكنها لا تزال حية

ثم توالى صدور الجرائد في مصر والشام فصدرت بالاسكندرية جرائد روضة الاسكندرية والاهرام والكوكب الاسكندري والمحرسة . وبمصر روضة المدارس والوطن وغيرها . وبيروت صدرت النشرة الاسبوعية اولها صدرت مع البشير أو قبله كما يؤخذ من عدد أعدادها الصادرة الى الآن ولكنها لا تدل على سنة نشأتها صريحاً ثم ثمرات الفنون والمقتطف ولسان الحال والمصباح وغيرها . فيظهر مما تقدم ان اول جريدة عربية رسمية صدرت بمصر ثم بيروت ثم تونس وأول جريدة عربية غير رسمية صدرت في الاستانة العلية ثم بمصر ثم بيروت

وقد بلغ عدد الجرائد التي صدرت بالعربية في سائر اقطار العالم نيفاً ومائتي جريدة بين سياسية وعلمية وأدبية وفكاهية وطبية وغيرها صدر نحو خمسين منها في السنوات الثلاث الاخيرة ولا يزال عددها آخذاً في الازدياد وخصوصاً بعد ان اطلق لها العنان في الديار المصرية حتى لم تعد تعرف لها حداً تقف عنده

٣ - آداب الجرائد وواجباتها

لا نعلم ان احداً دون الجرائد حدوداً تتعامل بها من حيث الآداب العمومية فيما خلا القوانين التي سنتها لها الحكومة ولكنها اذا رققنا ما هي الجرائد سهل علينا معرفة آدابها . والجرائد « لسان حال الامة ينطق به فرد او جماعة من عقلائها » فهي كالمرآة تمثل بها احوال الامم وعواندهم وآدابهم ولما كانت الامم تختلف في كل ذلك كانت الجرائد مختلفة في مبادئها على تلك النسبة فالجريدة الانكليزية تنطق بلسان حال الانكليز وتمثل اخلاقهم وآدابهم والجريدة المصرية تمثل اخلاق المصريين وآدابهم

وهكذا يقال في كل جريدة عند كل أمة . فمن أنشأ جريدة في الديار المصرية وأراد الاقتداء بجرائد انكلترا أو أنشأ جريدة في انكلترا ومثل بها أخلاق المصريين فإنه يسير على ضلال وشأنه في ذلك شأن من يلبس البدوي لباساً أفرنجياً أو يخلع على الأفرنجي عباءة وعمامة وهذا هو منشأ التضاد بين الجرائد المصرية الحديثة قات محرريها يختلفون مشرباً وأخلاقاً وكل يسير على شاكلته

فآداب الجرائد المصرية تقضي بمسيرها على خطة المشاركة في عوائدهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم مع اختيار الحسن منها واتخاذ القبيح التماساً للإصلاح ولا بد في كل ذلك من ظهور أخلاق المشاركة بين سطورها وفي خلال الفاظها وأظهر تلك الأخلاق المجاملة والتأدب وكرم الأخلاق

وإهم واجبات الجرائد السمي في كل ما يؤول إلى مصلحة الأمة وإصلاح شؤونها باتخاذ أعمالها وأعمال من يتولى أمرها مع مراعاة آدابها وأخلاق أهلها وعوائدهم ومن أهم تلك الواجبات احترام شخص الملك فإنه القائم بأمرها الموكل برعايتها وهو النائب عن الخالق جل وعلا في تدبير شؤون خلقه فاذا رأوا فيه أعوجاجاً فليقوموه بغير مساس شخصه

ومن واجبات الجرائد البحث في كل أمر عمومي واتخاذ اتقاده عادلاً وتجنب المسائل الشخصية ولا سيما المتعلقة بالدين فإن التعرض للأمور الشخصية أو الدينية أول ما يشين الجرائد ويحط من منزلتها ويذهب بها إلى الشطط والتهور وما عاقبة ذلك إلا التنافر والبغضاء وسوء المصير

فمن ينشئ جريدة يركب مركباً خشناً ويعرض نفسه لواجبات يجدر به أن يتعلمها قبل اتقان فن الإنشاء والتبحر في التحرير والتجوير إلا يقود قراءه إلى مهاوي الضلال ويلوث وطنه بعواقب الغرور إذا لم نقل أنه يذهب به إلى الضياع والعياذ بالله

٤ - الجرائد المصرية

قد علمت مما تقدم أن الجرائد المصرية وسائر الجرائد العربية حديثة العهد لم تكن تبلغ نصف قرن من العمر في حين أن الجرائد الأفرنجية قد تجاوزت ثلاثة قرون . فما الصحافة العربية بالنسبة إلى الأفرنجية إلا كطفل رضيع لم يكد يفتح عينيه أمام شيخ هرم حنكته التجارب وهذبه الأيام . أليس من الغريب أن نرى طفلاً أرضعاً يحاول

أعمالاً لم يبلغها شيخه إلا بمر القرون . هذا هو شأن الجرائد المصرية الآن فانها على حداتها ونموه اظفارها تسابق الجرائد الاfrنجية وتحاول ان تعمل عملها وتسير على خطواتها ولكن ذلك مخالف لشرائط النمو الطبيعي فان عودها رطب وعظمها لا يزال غضروفاً فلا تأمن الانكسار والفسل الا ان يقام عليها وصي يتولى امرها ويراقب اعمالها ويقوم معوجها ربها تبلغ أشدها وتدرك كنه الحرية

نراها معجبة بما نالته من تلك الحرية اقتداءً بجرائد الاfrنج وتمتعاً بما أوتيته من اطلاق العنان لها ولكنها بلغت في ذلك الى حد حبب الينا الاستعباد وقد فاتها ان الحرية بين أسنة أقلامها كالسيف بيد الطفل يسطويه على رقاب الناس ويخبط خبط عشواء ولا تحتاج في تأييد ذلك الى كبير مشقة وهذه الجرائد المصرية قد اتخذت تلك الحرية ذريعة للسباب والشتم ونهش الاعراض والطعن في الامم والممالك والتعريض بالمذاهب والاديان مما لا يترك محلاً للريب في ان الحرية جاءتها هبة في غير محلها وثمرة في غير أوانها . فاذا كرتا أياماً تفشت بها الحرية بوادي النيل منذ بضعة عشر عاماً فجرّت عليه ما هو منشأ اختلاف الصحف الآن

أبلى بها وقد أقامت نفسها رقيية على أعمال الحكام ناصحة للملوك والسلطين مهذبة لاخلاق الناس مطالبة بحقوق الامم ان تكون مثلاً للشطط والتهور ومعرضاً للطعن والتلب . ويعلم الله اننا نخط هذه الاسطر والعلم يرتعش بين اناملنا ولم تقدم عليه الا بعد أن فرغت جعبة اصطبارنا ونحن نؤسي النفس في كف جرائدنا عن تلك الحطة ويسؤنا أن نجرد قلمنا لتأنيب زملائنا الافاضل أرباب الصحف المصرية وهم من نخبة ادبائنا وعمدة فضلائها ولا ندري ما جرّهم الى النزال فيما يؤاخذون عليه الا أن يكون ذلك من قبيل ما قلناه من حداثة فن الصحافة بيننا واساءتنا استخدام الحرية

نقول ما نقوله اجمالاً بغير تسمية ولا تخصيص لئلا تقع فيما آخذناهم عليه ولا نظن قارئاً يطلع على هذه الحروف في مصر والشام ويخطيء قصدنا ولم يحملنا على الخوض في هذا الباب الا الغيرة على آداب الصحف والتنبية الى واجباتها لا لان زملائنا الافاضل يجهلونها ولكن ما يلاحظه المراقب خارج المعمة من حركات المتحارين قد يفوت المتحارين ملاحظته ولا زبرد الا تذكيرهم باشياء هم أعلم منا بها وأولى بالاعتناء علينا

فبعض تلك الصحف تبالغ في انتقاد عمال الحكومة حتى يشتم من خلال سطورها رائحة التعريض بالملك بما قد يمس كرامته وهم يعلمون ان انتقاد اعمال العمال شيء ومس كرامة الملوك شيء آخر وبين ان الاول فضيلة يمدحون عليها فان الثاني حيلة يؤاخذون عليها لان في انتقاد أعمال الحكومة نفماً واصلاحاً وأما مس كرامة الملوك فمجلبة للبغضاء والتنافر

ونرى صحفاً أخرى تملأ أعمدتها تعريضاً ببعض الأمم ظمناً وعدواناً وتجاهر بسبها واهانتها وتحقيرها ولا تعرف شرطاً من شروط الادب ولا قانوناً من قوانين الشرع والعرف يبيح الطعن في أمة برمتها والأمم على اختلاف اصقاعها ولغاتها ومذاهبها لا تخلو من الحسن والقيبح وغاية ما يقال فيها انها تحتمل المدح والذم ولا يعقل ان أمة باجمهها تستوجب الاهانة والتحقير الا ان يكون المراد التشفي منها لحزازات في الصدور وهذا امر نجلى الصحف عنه ومن كان هذا غرضه فليتخذ سلاحاً غير الصحف وليركب جواداً غير الفلم

ونرى صحفاً أخرى قد سودت صفحاتها بمقالات ضافية في المسائل الشخصية فتطعن في اشخاص تسميهم باسمائهم وتهال عليهم بالسب والاهانة حتى قد تتطرق الى انتقاد ما يأكلون او يلبسون او يطبخون وأي علاقة بين ذلك والمصلحة العامة التي انشأوا جرائدهم لاجلها وما بهم القراء ما يقولونه عن فلان وما يأتيه في منزله أو كيف شب في صغره وما لنا وللبحث عن أصله وفصله وقرينه وجيرانه فان آداب الصحف تمنع هذه الابحاث وتوفر من رأتحتها وقد يتبادر لمحربي تلك الصحف ان ذلك من قبيل تشديد اللهجة التي تساعد أحياناً في تقوية الحجة واقناع الخصم والقراء بصحة دعواهم ولكنهم اخطأوا المرمى ووقعوا في عكس ما يؤملون فان القراء اذا رأوا في ما يقرأونه تعريضاً او طعناً أمسكوا عن قراءته لانهم انما يهمهم من الجرائد أخبارها وأبحاثها السياسية على انهم لو صبروا النفس على مطالعتها فانما يطالعونها وهم يعتقدون تحامل السكاتب على مناظره ومبالغته في تحقير رأيه فلا يشقون بمقدماته ونتائجه ومهما اشتهرت الجريدة بصدق أخبارها وصحة آرائها فلا تلبث اذا اكرت من الطعن والشم ان تخط منزلتها ويرتاب القراء في صدقها

وهناك صحف تطاولت في ابحاثها الى الاعراض وهو من أفصح ما تنفر منه الاذواق الشرقية فاتنا معاشر الشرقيين نغار على الاعراض ونصونها ونفديها بأرواحنا

وتجنب كل ما يمسها ونمقت كل من يعرض بها يدك على ذلك ميلنا الى التحجب دون سائر الامم فما بالنا تتولى خرقها بيدنا ان ذلك من جملة غرائب الجرائد المصرية الحرة ونرى في بعض تلك الصحف الفاظاً لا نسمعها الا من ابناء الازقة لبذاءتها والفاظاً ينجل من تلاوتها الاديب فضلاً عن العذراء والجرائد يتداولها الناس على اختلاف درجاتهم وأعمارهم وفيهم التاجر والصانع والقسيس والعالم والشاب والشابة فاستعمال الالفاظ البذيئة اذا لم يفسد الاخلاق فانه يقلل من منزلة الجريدة فيستخف الناس بها وبأقوالها

وأقبح ما رأيناه في بعض الجرائد المصرية التعريض بالاديان والمذاهب وهو أمر يذكرنا بأيام خات نود نسيانها أيام جرت فيها الدماء انهرأ وكان الجهل ضارباً اطنابه والتعصب سادلاً غشاوته وما صدقنا ان اقلعت تلك الخيم وانحسر ظل ذلك الغشاء وعرف كل منا حدوده أقمود اليها ودون ذلك قراع الالسنه وسفك الدماء وتشويه وجه الانسانية . أما أن لنا ادراك كنه التمدن الحقيقي فكيف نجعل ما يتخذة غيرنا حصناً لتمدنهم وواسطة لعقد اجتماعهم عاراً على تمدنتنا وسبباً في تفريق شملتنا

وقد نلتبس لتلك الصحف عذراً في احتدام نار الجدل بينها وطول الاخذ والرد في ما يختلفون فيه من الابحاث السياسية أو الادبية ولكتنا لا نرى موجباً للخروج من المجادلة الى المشاتمة والمطاعنة واثارة الشحنة والبغضاء واذا زعموا انهم يفعلون ذلك اقتداء بمن تتمتع بحرية الجرائد قبلهم من الافرنج فهو لا قد يتناظر جماعة منهم في مسألة وتحتدم شعلة الجدل بينهم حتى يحتاجوا الى التحكيم وهم مع ذلك لا يتجاوزون حدود المناظرة ولا يخلون بواجبات الجرائد ولا يخرقون حرمة الآداب بل يمدون بعد المناظرة وقد تمكنت بينهم علائق المودة وزاد ائتلاف قلوبهم وقد عرف الناس نتيجة أبحاثهم . أما نحن فلا نكاد نبدأ بمناظرة سياسية حتى نخرج منها الى المطاعنات الشخصية فنخوض فيها أشهراً وننسى الموضوع الذي كان مدار البحث فيه وقد تصل الحدة ببعضنا الى تهديد الآخر بالقتل أو المبارزة أو المحاكمة أو ما شاكل ذلك . أهذه حقوق المناظرة أم هي واجبات الصحف وآدابها . ولو فرضنا ان الافرنج يخرجون مثل خروجنا فالآداب الشرقية أساسها المجاملة والتأدب وكرم الاخلاق كما قدمنا فهي تقضي بمراعاة احساسات مناظرينا والاعضاء عن هفواتهم ومعاملتهم باللين والالطف وتجنب الجفاء والقول الهراء

على اننا نستطيع العذر من حضرات الافاضل أصحاب الصحف ومحرريها لقيامنا لديهم مقام الناصحين ونحن أحوجهم الى النصيح ولكنها خطرات أفكار مرت بذهننا فحركت هذا القلم على هذا القرطاس فلملها اذا مثلت بين ايديهم اذكرتهم أموراً هم أعلم منا بها . وقد توخينا اظهار الحقيقة وابداء رأينا عملاً بواجباتنا نحو الامة والوطن غير ان ذلك كله لا يحيط شيئاً من منزلة أشخاصهم لدينا فلتنا نجل أرباب الافلام ونقدرهم حق قدرهم فهم قادة الافكار وقدوة أهل الادب وزهرة غرس الامة وما أخذناهم عليه ان هو الا هفوة يكفرون عنها بما يخدمون به البلاد من جهة أخرى ولكنتا اردنا تذكيرهم حتى اذا رأوا رأينا وارادوا الرجوع الى الصواب كانوا اقرب الى الكمال وذلك أجدر بأهل العلم والادب مما يسواهم من طبقات الناس والسلام

التأليف

في اللغة العربية^(١)

لا يستطيع من راقب سير العلم بمصر في الاعوام الاخيرة غير الاعتراف بوجود نهضة أدبية كثر فيها المؤلفون وتعددت المؤلفات . وان كنا بالقياس على سائر الامم لا يزال أطفالا في هذا الفن . وينقصنا على الخصوص التدريب على البحث والتنقيب والقياس والاستنتاج . فان بعض كتابنا لا يزالون يسرون في طرز تأليفهم على خطة أسلافنا القدماء . والتأليف في العربية قديم كما جاء في ما بسطناه في كتابنا تاريخ آداب اللغة العربية . وكان لعلماء العربية القدماء القدر المعلى في هذا الباب لكن لكل عصر نسقاً في التأليف يلائم أهله . فنسق هذا العصر يختلف عن نسق القدماء مثل اختلاف سائر أحوالنا عن أحوالهم . ونحن في هذه النهضة عولنا في اقتباس العلوم الحديثة على أصحاب هذه المدنية فنقلناها عنهم ولهم طرق في التأليف يحسن تحديثها لما فيها من التمهيد والترتيب والتبويب مما يسهل على القارئ فهم المواضيع وحفظها

(١) عن الهلال سنة ٢٠ صحيفة ٤٣٥

ومع ذلك لا ينبغي لنا أن نخس آدابنا العربية حقها ولا سيما في المواضيع التي كتب فيها أسلافنا وإن اختلف ما كتبوه من حيث روحه وأسلوبه عما يقتضيه هذا العصر . لكننا نرى بعض كتابنا ينظرون إلى تلك الآداب بعين الاحتقار ولا يتعبون أنفسهم في فهمها . ولو فعلوا ذلك لوجدوا فيها كنوزاً ثمينة في كثير من المواضيع التي يحتاجون إلى نقلها من اللغات الأجنبية . ولعل السبب في إهمالهم المصادر العربية ما يجدونه لأول وهلة من الغرابة في أسلوبها لأنه يخالف ما تعودوا من الأسلوب المصري . ولو زاولوا مطالعة تلك الكتب قليلاً لتعودوا ذلك الأسلوب وهان عليهم فهمه . وقد يجدون في تلك الكتب حقائق هامة غير ما يستفيدونه من طرق التعبير والالفاظ الوضعية فيستعينون بذلك على تقويم أسلوبهم عند نقل ذلك العلم عن المصادر الأجنبية

ومن غريب ما رأيناه من هذا القليل أن بعضهم يعتمدون على هذه المصادر ولو كان ما يكتبونه متعلقاً بعلوم العرب أنفسهم أو تاريخهم . ولعلمهم يفعلون ذلك لتقريبهم بتدقيق الأفرنج في ما يكتبونه لكن ذلك جرّ بعضهم إلى ارتكاب خطأ شوه ما كتبوه . فقد قرأنا كتاباً حديثاً في تاريخ الإسلام فرأينا فيه رسائل كتبها بعض القواد المسلمين إلى خلفائهم في صدر الإسلام هي في أصلها العربي مثال البلاغة وحسن البيان فترجمها مؤلف ذلك الكتاب عن الأجنبية فجاءت أعجمية اللهجة عارية من البلاغة العربية مع إمكان نقلها بعبارتها الأصلية لفظاً ومعنى

ومعلوم أن العلم الحديث جاءنا أولاً على يد الفرنسيين والإيطاليين في زمن محمد علي باشا ثم تناولنا جانباً منه عن الإنكليز والأميركان وخصوصاً في سوريا . ثم كان الاحتلال الإنكليزي بمصر فسمى أهله في نشر لغتهم بيتنا فأصبحت المصادر التي نعول عليها في ما نكتبه إما فرنسوية أو إيطالية أو إنكليزية . ولكن الإيطالية لم تثبت لضعف نفوذ إيطاليا بيتنا فأنحصرت مصادرنا في الفرنسية والإنكليزية

وبديهي أن من يتناول العلم عن أمة تعلم لغتها وآدابها يشب على حبها فيتوخى تقليدها والافتداء برجالها . فأصبح كتابنا من أجل ذلك فثنين فئة تقلد الفرنسيين وفئة تقلد الإنكليز . وقل من يجمع بين الاثنين فاختلفت أذواقنا باختلاف ما لديهما من المبادئ والأخلاق حتى ظهر أثر ذلك في ما نكتبه لفظاً ومعنى . فقل أن تقرأ مؤلفاً ألفه كاتب من أهل هذا العصر في علم حديث الأقرات في خلال سطور

مبادئ إحدى الامتين الفرنسية او الانكليزية . ولعل هذا هو السبب في تشيع عامتنا الى احدهما لان الامة من حيث المبادئ والاخلاق تسير على خطوات كتابها فتتبع كل فئة منهم فئة من الكتاب فتقلدهم باقوالهم واعمالهم ولا يقتصر تقليدنا كتاب الافرنج على خوى ما يكتبونه ولاكنه قد يتناول طرق التعبير فتري اللهجة الافرنجية ظاهرة على عبارات بعضنا مهما كانت الفاظها عريقة في العروبة . لان لكل لغة نسقاً في التعبير خاصاً بها فمن كانت مطالعته ومراجعاته في كتب فرنساوية اكتسب ملكة التعبير فيها وخصوصاً اذا أهمل المطالعة في الكتب العربية وهكذا يقال في مطالعي الكتب الانكليزية

فعلى من يعتمد الى التأليف ان يحافظ على ملكة اللسان العربي ويتجنب التعبيرات الافرنجية ولا يتم له ذلك الا بمطالعة الكتب العربية الحالية من شوائب العجمة . بل لا بد له من مطالعة الكتب التي كتبها العرب في الموضوع الذي يريد الكتابة فيه او ما يقرب منه لاقتباس طرق التعبير في ذلك العلم . اذ لكل علم عبارات ولفاظ لا يستحسن ايرادها في علم آخر . ف لغة العلوم الطبيعية مثلاً غير لغة المواضيع الادبية ولغة التاريخ غير لغة الطب ولغة الكتابة غير لغة الخطابة . فما يستحسن ايراده من العبارات المبرقة بانواع البديع في موضوع أدبي تهذيبي يستقبح في موضوع طبيعي او رياضي . فعبارة ابي الفضل الهمداني في رسائله لا تستحسن في اثبات قضية هندسية او تقرير حقيقة طبيعية . واذا كتبت المعاني التهذيبية بعبارة الهندسة لا تؤثر في النفس تأثيرها لو كتبت بعبارة مزخرفة باساليب الاستعارة وضروب المجاز . فضلاً عما تقتضيه الحقائق العلمية من البساطة وما تستلزمه المواضيع الادبية من المبالغة والاطناب بين تهديد وتهديد ورهيب وترهيب . فيقسم الانشاء بهذا الاعتبار الى قسمين كبيرين انشاء علمي وانشاء أدبي . ولكل منهما فروع يستخدم كل فرع منها بموضوع دون الآخر

الاسلوب

اذا تصفحت كتاباً ثم نظرت فيه نظراً عاماً رأيت مؤلفاً من شيتين متباينين هما موضوعه ولفظه او اسلوبه أو هما معناه ولفظه . فالموضوع او المعنى هو الغرض الذي يريد المؤلف ابصاله الى ذهن القارئ . وأما الاسلوب فهو الآلة التي يستخدمها في

ايصال ذلك الغرض. فاذا عمد جماعة الى التأليف في الثورة العراقية مثلاً كان غرض كل منهم بيان تلك الثورة بما تقدمها او دعا اليها من الاسباب ثم ما توالى من حوادثها الى انقضاءها وما نجم عنها من العواقب السيئة او الحسنة. فاذا قرأت كتاب كل منهم على حدة رأيتهم يختلفون في كيفية تأدية تلك الحوادث وترتيبها باختلاف ما يعلمه كل منهم أو ما فطر عليه من طرق التعبير. وظهر لك تباین في أساليب التأليف وان يكن الموضوع واحداً. وقد تستحسن أسلوب بعضهم وتستهجن أسلوب البعض الآخر وهو الفرق بين ملكات الانشاء في الكتاب

واذا امعنت الفكرة في كتاب قرأته ونظرت في انشائه نظراً تحليلياً رأيت فيه أشياء تميز كلا منها عن الآخر وهي :

(١) ترتيب الحوادث اجمالاً بالنسبة بعضها الى بعض. كأن يقدم الكاتب شيئاً على آخر أو يبني حادثة على أخرى أو ان يذكر نتيجة كل حادث في اثر ذلك الحادث او يجمع كل النتائج معاً. الى غير ذلك من أساليب الترتيب

(٢) سرد كل حادث على حدة وترتيب جزئياته بالنسبة بعضها الى بعض بقطع النظر عن علاقته بالحوادث الأخرى

(٣) تنسيق العبارات التي يتألف منها كل حادث جزئي باعتبار ربطها بعضها ببعض بين تقديم وتأخير على ما يراه الكاتب مؤدياً لما في ضميره

(٤) وضع الالفاظ في مواضعها بالنظر الى قواعد الاعراب والبيان كتقديم الفعل على الفاعل والمبتدا على الخبر مع ما يختاره من أساليب الاستعارة او نحوها فاذا عرفت هذه الاقسام الاربعة وتدبرت كلاً منها على حدة علمت ان الثلاثة الاولى منها مرجعها في الغالب الى ذوق الكاتب الشخصي وهي قلما تكتسب بالدرس او المطالعة الا في احوال مخصوصة. اما القسم الرابع فهو وحده يمكن اكتسابه بالدرس وقد لا يكون الدرس وحده كافياً لاتقانه

والانشاء بالمعنى الذي نريده انما يقوم بالاقسام الاولى ومدارها تنسيق المعاني وترتيبها على ما يوافق اذواق الناس بقطع النظر عن الاعراب أو البيان. فهو من هذه الحيثية ملكة غريزية لا تكتسب بالدرس كما قد يتبادر الى الذهن. ولكن الدرس وسعة الاطلاع يهذبها ويرقيان ذوق صاحبها

فالكتابة في اعتقادنا ملكة غريزية كملكة الشعر. فالشاعر المطبوع تظهر

شاعريته ولو لم يعرف العروض وكذلك الكاتب المطبوع . لان المعنى صورة من صور الذهن والكتابة رسم تلك الصور على الورق والمعاني تخطر لعامة الناس كما تخطر لعلمائهم على تفاوت بينهم وكل منهم يعبر عن معانيه اما تكلماً او كتابة على اسلوب خاص به . فقد تقرأ عبارات او تسمعها من اناس لا يعرفون علماً من علوم اللغة فتفهمها وتتأثر منها فترسخ في ذهنك ويتشربها ذوقك لما تؤانسه من تناسب اجزائها وتناسق معانيها وسهولة انشائها ما ربما لا تعثر عليه في عبارات بعض المتضلعين بعلوم اللغة

والمعاني ترجع في وضوحها وابهامها الى حالة صورتها في ذهن الكاتب . فاذا كانت الصورة واضحة في ذهنه ظهر ظلها واضحاً في كتابته او تكلمه . واذا كانت مشوشة ظهر لك تشوشها في خلال سطره . ويكون ذلك غالباً في من يكتبون في مواضيع لم يحسنوا درسها . وقد يقرأ بعضهم مقالة لا يستطيع فهمها فيحسب ذلك بلاغة في الكتاب او سمواً في انشائه . ويظن اشكال فهمها عليه ناجماً عن جهل منه في أساليب الكلام . وعندنا ان توقف القارئ في فهم كتاب دليل على ضعف الكاتب وقصر باعه في موضوع ذلك الكتاب . حتى قد يستدل على تمكن الكاتب من موضوع كتب فيه من سهولة فهم ما يكتبه . فاذا قرأت مقالة ولم تستوعب معانيها فاعلم ان كاتبها لم يفهمها ايضاً الا في بعض الاحوال . اذ يكون الكاتب متضلعا في موضوع فيتوخى المبالغة في اختصار ما يكتبه حتى يتمتع فهمه على غير المتضلع . كما كان يفعل بعض علماء الكلام أو المنطق أو الفلسفة فقد تقرأ كتبهم ولا تفهمها الا بعد اعمال الفكرة والمراجعة . ولا تستطيع ذلك الا اذا كنت متضلعا في تلك العلوم . فمثل هؤلاء انما يكتبون لبيان تعقيدهم في العلم لا لافادة القراء

وقد يخال لاول وهلة ان سبب ذلك التعقيد متصل بطبيعة تلك المواضيع فلا يستطيع التعبير عنها ببسط من ذلك وهو الواقع في بعض العلوم ولكنه لا يمنع امكان الكتابة فيها بعبارات بسيطة سهلة كما يفعل الافرنج فانهم يتوخون البساطة والسهولة في اصعب المواضيع العقلية لانهم انما يكتبون لافادة القارئ . وكثيراً ما نفضل مراجعة بعض هذه المواضيع في اللغات الافرنجية لقرب تناولها مع ان منها في العربية مطولات شتى

فالعمدة في الانشاء على ترتيب اجزاء الموضوع وتنسيق العبارات بتناسق المعاني

مع السهولة والوضوح . وهي ملكة غريزية لا تكتسب بالمزاولة أو الصناعة للأسباب التي قدمناها . ولكل كاتب أسلوب خاص به يمثل سلسلة أفكاره يعبر عنه الأفرنج بقولهم (Style) وهو الذوق أو النفس في اصطلاح الكتاب فالكاتب يمتاز بذوقه ويعرف به ومن عانى الكتابة ودرس أذواق الكتاب سهل عليه تمييز الكاتب بمجرد مطالعة ما يكتبه . وقد يشرح المقالة إذا كتبها غير واحد وينسب كل قطعة منها إلى كاتبها . ويقول العرب « ما قرأت كتاب رجل إلا عرفت مقدار عقله فيه » ويقول الفرنسيون (Le style c'est l'homme) أي أن الأسلوب يمثل كاتبه . وأساليب الكتاب تختلف باختلاف سلاسل أفكارهم فمنها السهل والسلس والبليغ والواضح والمعقد والملبك والمشوش والركيك فإذا قرأت عبارة حكمت لأول وهلة أنها سهلة أو مشوشة أو واضحة أو معقدة أو غير ذلك

ويختلف أسلوب الانشاء باختلاف المواضيع . فالعلم الطبيعي يوافق أسلوب لا يوافق العلوم الأدبية أو الاجتماعية أو التهذيبية وهما غير أسلوب المراسلات فيستصبح أسلوب الخطابة في بيان الحقائق الطبيعية أو الرياضية أو المنطقية كما يستهجن أسلوب الرياضيات والاقيدة المنطقية في موقف الخطابة أو المراسلات كما تقدم فالخطب وما يشبهها في أسلوبها من المراسلات أو كتب التحريض والتهديد لها نسق خاص يراد به أنارة العواطف واستنهاض الهمم كقول الامام علي يخاطب أصحابه يوم واقعة صفين :

« معاشر المسلمين استشعروا الحشية وتجليبوا السكينة . وعضوا على النواجذ فانه اني للسيوف عن الهام واكملوا اللأمة وقلقوا السيوف في اغماذها قبل سلمها . والحظوا الخزر واطمنوا الشرر وناخوا بالظبا . وصلوا السيف بالخطا واعلوا انكم بعين الله ومع ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فعاودوا السكر واستحيوا من الفرّ فانه عار في الاعقاب . ونار يوم الحساب . وطبوا عن أنفسكم نفساً . وامشوا الى الموت مشياً سجيحاً وعليكم بهذا السواد الاعظم والرواق المطنب ... »

فمثل هذا الأسلوب لا يستحسن في بيان حقيقة طبيعية كايضاح أسباب المطر أو سرد نواميس الجاذبية . ولا في اثبات قضية هندسية كالبرهان على ان مربع الوتر يعدل مربعي الساقين ولا في شرح فائدة طبية كتشخيص مرض الروماتزم أو النقرس أو نحوها ولا في بسط حقيقة تاريخية فان لكل مقام مقالاً

فعلى الكاتب الاديب ان يفهم ذلك ويتدبره فلا يضع الاشياء في غير مواضعها
فيذهب سعيه في خدمة العلم هباءً منثوراً

اللغة العربية الفصحى

واللغة العامية ^(١)

قرأنا لجباب المستر ولیم ولسكوكس خطبة تلاها في كلوب الازبكية ودرجتها
جريدة الازهر الفراء في عددها الاخير الصادر في الشهر الماضي وموضوع تلك
الخطبة «لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن» وقد أفاض حضرة الخطيب
في ذكر الاسباب المانعة لتلك القوة ثم أتى على ذكر العلاج وعدد الطرق المؤدية الى
ايجادها. وليس من غرضنا الخوض في شيء من مآل تلك الخطبة الا فيما يتعلق
باللغة العربية

فقد قال حضرة ان من جملة العوامل في فقد قوة الاختراع عند المصريين
استبقاؤهم اللغة العربية الفصحى وأشار باغفالها واستبدالها باللغة العامية اقتداءً بالأم
الآخرى وذكر منها بنوع خاص الامة الانكليزية وقال انها استفادت افادة كبيرة
باغفال اللغة اللاتينية التي كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الانكليزية الحاضرة
وعندنا ان المستر ولسكوكس لم يصب المرمى في رأيه من هذا القيل لأن ما
صدق على اللغة الانكليزية لا يصدق على لغتنا لاسباب كثيرة نذكر منها

اولاً ان الانكليز باستبدالهم اللغة اللاتينية باللغة الانكليزية قد استبدلوا لغة
اجنبية بلغة وطنية وليس كذلك الحال في اللغة العربية فان الفرق بين لغة الكتابة
ولغة التكلم عندهما ليس بالشيء الكبير وقد لا يكون اكثر من الفرق بين لغة كتاب
الانكليز ولغة عامتهم الذين لا يعرفون القراءة

ثانياً ان استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية اذا انقذنا من شرفانه
يوقعنا في شر اعظم منه لان الناطقين بالعربية تختلف لغتهم العامية باختلاف الاصقاع
والفرق بين لغة مصر والشام ليس باقل من الفرق بين اللغة الفصحى واللغة العامية

وكذلك بين لغة احد هذين البرين ولغة بلاد المغرب أو الحجاز أو غيرها من البلاد العربية ولا يخفى ما بين هذه الاقطار العربية من العلائق الادبية والمدنية والسياسية فباستبدالنا اللغة الفصحى باللغة العامية المصرية مثلاً نحرم أبناء بر الشام وبلاد المغرب من فائدة ما نكتبه في تلك اللغة وهكذا لو استبدلناه باللغة العامية الشامية أو المغربية أو الحجازية وإذا لم نخسر بذلك إلا الجامعة العربية فكفى بها خسارة

ثالثاً ان اللغة في كل أين وأن تتبع لحالة عقول الناطقين بها ارتقاء وانحطاطاً فلغة العامة منحطة بنسبة انحطاط افكار الناطقين بها وليس لها ان تقوم مقام اللغة الفصحى ولا سيما العربية لأنها ارقى لغات العالم وفيها من اساليب التعبير ما تعجز لغة العامة عن القيام بمثله . فاذا أردنا تدوين العلوم على أنواعها باللغة العامية كما ارتأى حضرة الخطيب فلا أظنها تقوم بتأدية المعاني الكتابية كما يجب ومن أين تأتي بالالفاظ التي نعبّر بها عن الاصطلاحات العلمية ولا سيما الحديثة منها وقد كادت تعجز اللغة الفصحى عن القيام بها . فاذا قال اتنا ندخل اليها تلك الاصطلاحات نقول ان الاصطلاحات المشار اليها ليست بالشيء القليل وإنما هي قسم عظيم من اللغة ولا سيما لغة العلم فإن معظمها اصطلاحات علمية . وتعليم العامة الفاظ اللغة الفصحى كما هي أسهل من تعليمهم الاصطلاحات العلمية وادخالها الى لغتهم وهذا شأن اللغة في سائر أنحاء العالم . والمستمر ولكوكسر يعلم ان الكتب العلمية العالية المكتوبة بالانكليزية الآن لا يستطيع عامة الانكليز فهمها مهما بولغ في ايضاحها وبسطها وذلك دليل على أن بين العامة والخاصة حجاباً لو حاولنا حصره عادت الطبيعة فسدته

رابعاً ان الجامعة العربية قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى اذ لولا القرآن الشريف والمحافظة عليه منذ صدر الاسلام وعودنا إليه في اصلاح ما تفسده الطبيعة من لغتنا لتشتت شمل الشعب العربي واصبح كل قطر من الاقطار العربية مستقلاً عن الآخر لا يفهم لغته كتابة ولا تكلماً كما حصل بالامم التي كانت تتكلم اللغة اللاتينية فقد أصبح لكل منها لغة مستقلة لا تفهمها الامة الاخرى مثال ذلك فرنسا وايطاليا واسبانيا وغيرها والفضل الاكبر في حفظ الجامعة العربية الى الان القرآن الشريف والمحافظة عليه

خامساً ان اغفال اللغة الفصحى يستوجب اغفال كما كسب فيها من العلوم على أنواعها منذ الف وثلاثمائة سنة وهي خسارة لا تعوض مهما قيل في فائدة اللغة العامية في الكتابة

فيتضح مما تقدم ان استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية رأي اغفاله اولى بنا ليس فقط لكونه عقياً بل لانه مضر باللغة والناطقين بها علمياً ودينياً وأدياً

على اننا لا يليق بنا ختام الكلام في هذا الباب قبل الاشارة الى ما طالما شكواه من توخي بعض الكتاب اختيار الالفاظ المستهجنة المهجورة اما اظهاراً لبراعتهم في حفظ مفردات اللغة واما احياء لالفاظ طومها يد الايام لما اقتضته حالة الحضارة وتنوع احتياجات الناس . فاذا قال المستر والكوكس انه انما أراد اغفال مثل هذه اللغة فاننا نوافق فيه ونؤيد قوله لان استعمال الالفاظ المستهجنة يحول دون الغاية المقصودة من تلك الكتابة ولا سيما في المواضيع العمومية كالكتب التاريخية والقصص الادبية اما في المواضيع العلمية العالية فان الضرورة تبيح لهم استخدام الالفاظ الوضعية لما وضعت له بغير تساهل وعلى الخصوص لان تلك المواضيع انما يقرأها أفراد من خاصة الناس وهم مكلفون بمعرفة أوضاعها واصطلاحاتها

وأما في القصص والروايات والتواريخ وسائر المواضيع الادبية العمومية فالكتاب مكلف باتقاء الالفاظ التي تفهمها العامة مع مراعاة جانب اللغة والاعراب فاذا عرض للكتاب معنى له لفظان الواحد مهجور والآخر مألوف فانه مطالب باغفال المهجور واستعمال المألوف وتلك قاعدة من قواعد الانشاء الصحيح لا تخفى على حضرات الكتاب فبدلاً من أن نقول « وجلس سجاح وجهه » نقول « وجلس تجاه وجهه » لمطابقة سجاح وتجاه للمعنى المقصود زنة ومعنى وعندنا ان المجاوزة الى ما وراء ذلك واستخدام كلمتين او ثلاث مألوفة تؤدي معنى مراداً أفضل من استخدام كلمة واحدة مهجورة تؤدي ذلك المعنى وان خالفنا في ذلك على نوع ما قاعدة من قواعد البلاغة لاتنا نتمكن من الجهة الثانية من افهام المطالع اذا كان عامياً او غير عامي ما أردنا فهمه بدلاً من أن نحمله على الملل من القراءة والتفاحس عن المطالعة ونحن نود مواظبته عليها لتحصل الفائدة المقصودة من كتابتنا . ويجب علينا فهم المقصود بالذات من كتابة الكتب الادبية للامة باتنا انما نريد بذلك اكتسابهم المبادئ الادبية او التاريخية لا تعليمهم الالفاظ وقواعدها لانهم في غنى عن ذلك لاشتغال كل منهم بعمل يعمل به لأود حياته ولا حاجة به الى دخائل اللغة . اما من أراد منهم درس قواعد اللغة

ومفرداتها فهناك كتب خاصة بذلك فليعتمد عليها
وخلاصة القول ان المواضيع العلمية العالية لا غنى لكاتب فيها عن الاركان الى
ما وضع لكل علم من الاوضاع والاصطلاحات ولا مندوحة له عن استعمالها فهما
العامي او لم يفهما على ان العامي في غنى تام عن هذه المواضيع لبعدها عن مداركه
واحتياجاته

أما المواضيع التاريخية والادبية العمومية وما جرى مجراها فالكاتب فيها
مطالب بتجنب كل ما يحول دون فهمها لدى الخاص والعام فيجب أن تكون عبارته
فيها بسيطة واضحة سلسلة خالية من كل تعقيد حتى تكون المعاني جلية للمطالع كل
الجلاء لا يحتاج في فهمها الى التوقف لحظة او مراجعة معجمات اللغة والا فان عجز
الكاتب عن ذلك يعد نقصاً في واجبات صناعته

ونحن في موقف نلتبس فيه لحضرة المستر ولكوكس عذراً على ما ارتآه لانه
على ما نظن انما حكم بافضلية استبدال اللغة الفصحى باللغة العامية لما رأى في بعض
الكتب من التعقيد من مثل ما تقدمت الاشارة اليه

على اننا لو سرنا في كتابتنا على الخطه التي اشرنا اليها بحيث نجعلها بسيطة واضحة
مع مراعاة جانب اللغة والاعراب ما تركنا لحضرتة او لسواه باباً للاعتراض او وجهاً
لابداء مثل ذلك الرأي والله سبحانه وتعالى أعلم

اللغة العربية

والتعليم في مصر^(١)

لا غرو اذا أكثرنا من الحث على تأييد اللغة العربية لانها قوام الامة العربية او
العنصر العربي ولا بقاء للامة الا بلفتها . ولا حياة للسان العربي الا بمصر لانها محور
العالم العربي . واذا قدر لهذه اللغة ان تنهض فعلى مصر الواجب الاول في انهاضها .
كانت اللغة العربية من أوائل القرن الماضي الى أواخره قاعدة التدريس في المدارس

الكبرى في مصر والشام . كانت المدارس الاميرية وغير الاميرية بمصر والمدرسة الكلية الاميركية واليسوعية وسائر المدارس الكلية في بيروت وغيرها تعلم الطبيعيات والتاريخ والرياضيات والطب والصيدلة والهندسة والحقوق وسائر العلوم باللغة العربية . قنبت طائفة من الكتاب والعلماء في هذا اللسان بمصر والشام وألفوا الكتب العلمية وأنشأوا الجرائد والمجلات العربية . ودبت روح الرقي الحقيقي في عروق هذه الامة وتعلقت الآمال بمستقبل مجيد

لكن هذه الآمال أخذت في الزوال منذ بضع وعشرين سنة بعدول هذه المدارس عن هذه اللغة في تدريس العلوم العالية . بدأت بذلك المدرسة الكلية الاميركية في بيروت فجعلت قاعدة التدريس اللغة الانكليزية . وهكذا اليسوعية جعلت التدريس بالفرنساوية . ثم المدارس المصرية فجعلت التعليم في كلتا هاتين اللغتين . ثم أخذت الانكليزية تتغلب فيها رويداً رويداً ولا تزال . وحيث هذه المدارس في هذا التغير قلة الكتب التعليمية في اللغة العربية وكثرتها وأتقانها في اللغة الاجنبية . وهو عذر وجيه لاتنا مهما بلغ من ارتقائنا العلمي لا تزال وراء تلك الامم بمراحل لانهم سبقونا منذ أجيال فاصبح اللحاق بهم صعباً . الا اذا أخذنا عنهم وتمشينا على خطواتهم ويسهل ذلك خصوصاً اذا تلقنا تلك العلوم وتبعناها بألسنتهم رأساً

تلك حجة مقبولة لدى طالب العلم ان لم يكن غرضه غير التفقه واستنارة الاذهان . ولكن التعليم يراد به شيء آخر لا يقل أهمية عن ذاك نغني ترقية شؤون الامة وجمع كلمتها واحياء آمالها ليكون لها شأن بين سائر الامم . وهذا لا يكون الا بترقية لسانها واحياء آدابها بتأليف الكتب العلمية والادبية وانشاء الصحف والمجلات فيه . ولا يتيسر لها ذلك الا اذا كان هو قاعدة التدريس في المدارس الكبرى فضلاً عن الصغرى فكيف اذا لم تعلم فيه هذه ولا تلك ؟ - تلك كانت حال المدارس بمصر والشام الى عهد غير بعيد

أصبح التعليم بمصر منذ بضعة أعوام كله في اللغة الانكليزية او الفرنسية حتى مبادئ التاريخ والجغرافيا والحساب . وأوشكت العلوم العربية نفسها أن تعلم باللسان الاجنبي . فاحتجت الامة بلسان مجلس الشورى وأخذت الصحف بنصرها وكنا في جملة من خاض عباب هذا الموضوع وبيننا الضرر الناجم من اغفال اللغة العربية . فاهتمت الحكومة بهذا الشأن ووعدت وزارة المعارف اذ ذاك بإعادة التدريس فيها

وبدأ رويداً لكنها لم تخط الا خطوات قليلة لا تشفي غليلاً

فلما صارت هذه الوزارة الى صاحب السعادة احمد حشمت باشا جعل همه ترقية المعارف على العموم و احياء آداب اللغة العربية على الخصوص . فادخل تحسيناً هاماً على المدارس الاميرية . والتفت الى العامة فنظر في ما يحتاجون اليه مما يسهل عليهم أبواب الرزق . والى المرأة وما يساعدها على ترتيب منزلها وتربية اولادها فضلاً عن تعميم اللغة العربية في أكثر المدارس

على ان الامم الراقية و الراغبة في الارتقاء لا تاتي كل انكاسها على الحكومة بل تهض هي بنفسها وتنفق من أموالها في ترقية ابنائها . ان جانباً كبيراً من جامعات اوربا انشأها رجال من اهلها وقفوا عليها الاموال وتضاعفت الاوقاف بتوالي الايام حتى صارت تعد بملايين الجنيهات . فضلاً عن المدارس الاخرى على اختلاف طبقاتها فان للامة دخلاً عظيماً في انشائها أو الاتفاق عليها

هكذا فعل الافاضل الذين بذلوا أموالهم في انشاء الجامعة المصرية بذلوها بسخاء ورغبة لانهم يشعرون بحاجة الامة الى التعليم الراقى . وقد شعرنا بذلك فاقترحنا منذ بضع عشرة سنة انشاء مدرسة كبرى لترقية اخلاق الامة وتهذيب عقولها - أردنا بها مدرسة كلية داخلية على شكل كلية بيروت تعلم الشبان وتربي أخلاقهم . فلما نهضت الامة لانشاء تلك المدرسة لا ندري من أشار بان تكون « جامعة » وان يقلدوا بها جامعات اوربا الكبرى بان يكون فيها التعليم خطاباً تلقى سماعاً وينصرف الطلاب الى شؤونهم بلا تحريض ولا تسميع . فظهرت لسنيتها الاولى أشبه بالنادي الادبي منها بالكلية العلمية فاتمتدنا ذلك في الهلال الخامس من سنة ١٧ (فبراير سنة ١٩٠٩) في مقالة ضافية يذنا فيها ان طريقة الجامعة وعلومها لا تفي بحاجة البلاد واقترحنا تعليم الطبيعيات والرياضيات بفروعهما . وظهرنا ما يترتب على تعلمها من تثقيف العقول والحمى في التوسع في العلوم الاخرى . واقترحنا أن تكون المدرسة داخلية بدخاها الطالب يتلقى فيها العلوم ويتمرس باسباب الترقى ويحجم بالآداب النافعة

فكان لندائنا صدى لدى مجلس ادارة الجامعة فعدلت بروغرامها وجعلت للعلوم الطبيعية حظاً بين العلوم التي قررت تدريسها للسنة التالية . وارسلت شباناً يتلفون تلك العلوم في اوربا على نفقتها حتى يعودوا ويعلموا تلك العلوم فيها . فدلنا ذلك على تعقل المجلس المذكور ورغبته في تطبيق أعماله على حاجة الامة وصرنا نتوقع أن يغير طريقة

التدريس الى ما يلائم حاجة الامة فلم يفعل . ودل الاختبار في السنين التي مضت منذ انشاء الجامعة ان هذه الطريقة غير وافية بحاجة البلاد لان الطلبة يتناقصون كل عام عما قبله حتى اصبحوا يعدون على الاصابع . فلا بد من اعادة النظر في أمر هذه الجامعة وعلومها وطرق تدريسها . وتتقدم بذلك الى مجلس ادارتها فانهم وخدامهم المسئولون عن هذا المعهد العلمي لدى الامة التي وضعت ثقها فيهم وعهدت بادارته اليهم

نحن لا نشك في صدق نية حضراتهم في خدمة الامة . ولكن صدق النية وحده لا يكفي لقيام الاعمال . ان سبعة آلاف جنيه تتفق على التعليم كل عام ينبغي أن تظهر أثمارها . لا ندري ما أعدته الجامعة لهذا العام من التحسين لكنها في كل حال تحتاج في نظرنا الى تعديل أساسي بتغيير بروغرامها حتى يوافق حاجة البلاد . ونحن نعلم ان اعضاء مجلسها يعملون مجاناً وبمضهم تنفق المال من جيبه في خدمتها والرئيس أعزه الله يسافر كل عام ويكابد مشاق الاسفار ونفقاتها في هذا السيل - هذا كله مسلم ويدل على صدق نية المجلس وغيرته . ولكن يظهر من مجاري الاحوال انه لم يهتد بعد الى الخطة الملائمة لهذا الوسط . فنستأذنهم في ابداء ما يعن لنا من هذا القليل ونرجو أن لا يسوءهم ذلك لاتنا شركاء في هذه الخدمة وانما نعمل معاً لمصلحة هذه الامة

اذا انتقدنا طريقة التعليم في الجامعة المصرية وقتلنا انها لا تفيدنا فلا نريد انها لا تفيد غيرنا لانها الطريقة التي سارت عليها معظم جامعات اوربا . ولكن المطلوب ممن يريد ادخال حسنة من حسنات التمان الحديث الى الشرق ان يكتفيها حتى تلام طبائع أهله وتوافق مصالحهم ويسهل تناولها عليهم . لا ان يقدمها لهم كما هي اذ لكل أمة أحوال تختلف عما للآخرى

وحاجة هذا القطر كما قلنا مراراً انما هي الى ترقية النفوس وتدريب الشبية على العمل وتعليمهم قيمة الوقت وتدريب عقولهم على التميز بين الصحيح والفاسد . وهذه وامثالها لا تنال باستماع الخطب في آداب اللغة أو تاريخ الحضارة أو الفلسفة - ليس لان هذه العلوم لا ترقى العقول بل لان الطلبة عندنا غير مستعدين لتفهمها والاستفادة منها لانها فوق ما يحتاجون اليه . كما انهم لا يستفيدون الفائدة المطلوبة من المدارس الابتدائية والثانوية المصرية وما يلقى في الجامعة الان . وهذا الذي نريده بانشاء

المدرسة الكلية العلمية لأنها تتكفل بسد هذا الخلل . والفرق بينها وبين المدارس الثانوية التي تمنح شهادة البكلوريا بمصر أنها أدق كثيراً ولا سيما في العلوم الطبيعية والرياضيات التي ترتقي بها عقول الشبان وتعود النظر الصحيح والحكم المعقول فالبلاد في حاجة الى مدرسة علمية علومها أرقى من علوم المدارس الثانوية المصرية وتكون داخلية يتربى فيها التلامذة على الاخلاق الراقية والآداب الصحيحة ويحمل بها التلميذ على الدرس كرهاً وينشأ في وسط يكون أساتذته مثالا في الاخلاق السامية فضلاً عن العلم . وتكون هذه المدرسة مدرسة تعليم وتربية يدخلها الطالب لدن العود لين العريكة فلا يزال يتلقى العلم ويتمرس بأسباب الترقى ويطلع على الاقدام وسائر الفضائل حتى يخرج مثقفاً قوي الارادة نشيطاً مستقل الفكر هاماً يحب وطنه ويتفانى في خدمته . هذا لا يتأتى بالحضور الاختياري لسماع الخطب لان معظم هذه المناقب تنال بالقدوة والمباحنة والمعاشرة والمناقشة اثناء الليل وأطراف النهار . وبالجملة اتنا في حاجة الى مدرسة يسبك فيها الطالب سبكاً في قالب جديد يوافق مصلحة بلاده

هذه هي المدرسة التي نحن في حاجة اليها فنقترح على مجلس ادارة الجامعة ان يحولوا اسم « الجامعة المصرية » الى « الكلية المصرية » ويجمعوا بروغرامها مثل بروغرامات الكليات العلمية الحقيقية . واذا أرادوا ان يكون ذلك البروغرام أقرب الى حاجة بلادنا فليجعلوه مثل بروغرام المدرسة الكلية الاميركية في بيروت مع ما تقتضيه حال مصر من التعديل . انما يشترط ان يكون تعليمها باللغة العربية فتكون لها مزية على سائر المدارس الكبرى بمصر والشام من حيث احياء الآداب العربية لاسباب تقدم بياناها

وفي صندوق الجامعة الآن بضعة وعشرون الف جنيه غير الاوقاف ولها ريع ثابت يزيد على سبعة آلاف جنيه وهذا رأس مال كاف للشروع في هذا العمل . فيتفق من المال المجموع لانشاء المعارض العلمية اللازمة لتلامذة الطبيعيات والتاريخ الطبيعي وأدوات الكيمياء وغيرها . وبشرع في اقامة بناء خاص للجامعة . وقد علمنا ان الحكومة ستهب الجامعة أرضاً واسعة في محل مناسب ولعلها تساعدنا في البناء ايضاً . والا فالجامعة تبنيها مما تجمع من التبرعات بتوالي الاعوام . وتتفق من الربح السنوي على روائب الاساتذة مما لا يمكن تحديده تماماً . ولستنا على ثقة من ان ذلك كاف

للسروع في انشاء الكلية العلمية . ثم تنشأ الكليات الاخرى في الفروع الاخرى من العلوم العالية حسب الحاجة . وبعد ذلك يتألف من مجموع هذه الكليات « الجامعة المصرية »

هذا ما نراه وقد يكون في حاجة الى تعديل او تنقيح فلا بأس من المناقشة فيه . لكنه صحيح في أساسه وهو تحويل الجامعة المصرية الى كلية علمية مصرية تعلم العلوم الراقية في اللغة العربية فتحي موات هذه اللغة بل تحي الامة العربية . لان منها يخرج المعلمون لمدارس فرعية تربي الناشئة على خطتها ومنهجها فلا يمضي زمن طويل حتى تنتشر تلك الروح الراقية في الامة مما نبكي عليه الآن ونتمناه - والله ولي الامر

كتاب العربية وقراؤها^(١)

مرّ على اللغة العربية دهور طوال تقلبت فيها بين الزهو والحمول والخصب والذبول تبعاً لما اقتضته الاحوال وما تقلب اهلها عليه من الرغد والرخاء والضيق والعناء لأن اللغة كما لا يخفى تسعد بسعادة اهلها وتشقى بشقاؤهم فاذا سادت الامة واعتز ملكها انطلقت ألسن عقلائها وانبرت اقلامهم فيرقون منابر الخطابة ويتسابقون في ميادين الكتابة واذا ضربت عليهم الذلة والمسكنة انعقدت السننم وتكسرت اقلامهم وخيم الجهل عليهم . يشهد بذلك تاريخ اللغة العربية من ظهور الاسلام الى الآن فقد كانت في عصر الجاهلية مبعثرة ضائعة حتى ظهر الاسلام وانتشرت اعلامه واستولى المسلمون على خزائن العلم الرومانية واليونانية والفارسية والمصرية فجمعوا شتات اللغة وهموا باستخراج تلك الكنوز ولكن الحروب المتواصلة شغلهم عن الخوض في عباها فلما استتب لهم الملك في عصر العباسيين وقد تأيدت شوكتهم وخضعت دول الارض لمرهفات سيوفهم عكفوا على تلك العلوم فنقلوها الى لسانهم وأخذوا في التأليف والتصنيف ثم قضت سنة الله في خلقه بانتقال صولجان الملك وعرش السيادة الى دول الاعاجم فدالت دولة العرب واخذت عقول رجالها في الذبول والتقهقر ومالت شمس اللغة العربية حتى كادت تؤذن بالزوال لو لم يقبض لها الله رجل الاصلاح

المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة المحمدية العلوية في أوائل هذا القرن فاقنضت مقاصده احياء مواتها ونشر أعلامها فانشأ المدارس وأمر بترجمة الكتب وتأليف المؤلفات واتفق على أثر ذلك قدوم جالية الافرنج الى ربوع الشام في أواسط هذا القرن فانشأوا المدارس وتسابقوا الى تعليم الشبان والشابات تسابق أهل التجارة الى ترويح سلعهم فزهت تلك الربوع بالعلم والمعرفة وكثر المؤلفون والكتاب وأنشئت الجرائد والمجلات في القطرين المصري والسوري وهي النهضة العلمية الاخيرة التي بزغت شمسها في سماء هذا القرن

ولو تتبعنا تاريخ آداب اللغة العربية في العصرين العباسي والاندلسي وقابلناه بتاريخها في هذا العصر لرأينا بينهما مشابة كبرى لان العرب في العصور الاولى أخذوا علومهم عما تركه اليونان والرومان والفرس والمصريون والسريان وغيرهم فبدأوا بنقل الكتب الى لسانهم فكان أوّل كتبهم المترجمون فلما استوعبوا تلك العلوم وأتقنوها وأكثروا من التبحر فيها عكفوا على تلخيصها وتحريرها على ما يلائم تمدنهم ثم أخذوا في التأليف والتصنيف ما خلا العلوم التي اقتضاها التمدن الاسلامي كالتفسير والحديث والفقه وغيرها فان العرب وضعوها من عند أنفسهم

والظاهر ان ذلك طبيعي في تاريخ العمران عند كل امة اخذت العلم عن غيرها فانهم أوّل ما يبدأون بترجمة كتب ذلك الغير حرفياً لا يلاحظون في ترجمتها ما لا بد منه بين الالم من اختلاف الاذواق والعوائد والاخلاق فاذا تدبروها وتشققت عقولهم بها ادخلوا في ترجمتها بعض التحوير فصاروا اذا ترجموا كتاباً لخصوه وفقاً لاذواق قرائهم حتى يتمكنوا من تلك العلوم وتكثر تلك الكتب في لسانهم فيعمدون الى جمع الحقائق من كتب متعددة الى كتاب واحد وهو التأليف ثم يصير العلم ملكة فيهم فيكتبون من عند أنفسهم وهو التصنيف . ولكنهم اذا ألفوا او صنفوا انما ينسجون على منوال الكتاب الذين اخذوا العلم عنهم فيسيرون على خطواتهم في كل ما يشرعون فيه من الاعمال العلمية أو الادبية . فتمرّ الامّة في صناعة الكتابة على أربعة أدوار وهي الترجمة فالتلخيص فالتأليف فالتصنيف

ومثل ذلك يقال في نهضة هذا العصر فان أهله فتحوا أعينهم فرأوا شمس المعارف مشرقة من الغرب فلم يجدوا سبيلاً الى اكتسابها الا بتعلم لغات الافرنج ثم أرادوا نقلها الى لسانهم فعكفوا على ترجمة ما وصلت اليه أيديهم على ما اقتضته

احتياجاتهم ثم عمدوا الى الكتابة فيها على ما يوافق اذواق المشاركة بين تلخيص وايضاح ثم قلدوهم بانشاء المشروعات الادبية كالمدارس والجمعيات وتأليف الكتب وانشاء الجرائد ونحوها

ولكن بين علوم هذا العصر وعلوم عصر العباسيين تبايناً لا ينطبق معه الحكم في عصرهم عليه في عصرنا انطباقاً كلياً لان العلوم بمروورها في قارة اربعة السنين الطوال تنوعت وتفرعت وتضاعف عددها وتبدلت مواضعها حتى صارت تعد بال عشرات وفيها شيء كثير مما لم يكن معروفاً في تلك العصور . فهي تنقسم الى ثلاثة أقسام كبرى (١) الطبيعية (٢) الادبيات (٣) الدينيات . والطبيعية تشمل كل ما يبحث في الطبيعة وموجوداتها ونواميسها كالفلسفة الطبيعية والكيمياء والجيولوجيا والفلك والتاريخ الطبيعي والجغرافيا الطبيعية والطب بفروعه والصيدلة وغيرها . والادبيات تشمل التاريخ وفلسفته والجغرافيا وعلوم اللغة بفروعها والفلسفة الادبية والعقلية واللغوية والمنطق والرياضيات وعلم الاخلاق والسياسة والقضاء وآداب السلوك وعلم الاقتصاد السياسي وعلم العمران والتربية وغيرها . والدينيات تشمل علوم الدين على انواعها وهي لا تدخل في بحثنا

فالعلوم الطبيعية قد بلغنا فيها الدور الثاني ولم نتجاوز به بعد فاذا كتبنا فيها انما نترجم ما كتبه الا فرنجي أو نلخصه وقلمنا نؤلف ولكننا لا نصنف فيها أبداً لان التصنيف في هذه العلوم عبارة عن الاكتشاف أو الاختراع وهو بعيد عنا حتى الآن . أما العلوم الادبية فقد ارتقينا في معظمها الى الدارين الثالث والرابع فقد نؤلف في التاريخ والجغرافيا وفي علوم اللغة والقضاء أو الاخلاق وقد نصنف في الفلسفة الادبية أو فلسفة التاريخ وغيرها ولو على قلة . ومن هذا القبيل المقالات الادبية والابحاث السياسية أو التهذيبية أو الاقتصادية . على أننا لا نعرف حداً فاصلاً بين هذه الادوار فقد يكون بين كتابنا من لا يزالون في الدور الاول أو الثاني وقد ترى بينهم من أدرك الثالث أو الرابع

والمترجمون والمختصون هم اكثر كتابنا عدداً واقدمهم على الكتابة . والترجمة اذا روعيت فيها شروط الاختيار اكثر فائدة لنا من التأليف أو التصنيف لان مؤلفات الا فرنجي في العلوم الحديثة أوفر مادة وادق بحثاً مما قد نكتبه نحن فضلاً

عما يقتضيه التأليف أو التصنيف من البحث والتنقيب والمراجعة والدقة بالنسبة الى الترجمة . فاذا قلنا كتاباً في الطبيعيات من الفرنسية الى العربية مثلاً فتكون قد ربحتنا اتباع مؤلف ذلك الكتاب على أهون سبيل فضلاً عن الكتب المؤلفة في موضوع خصوصي من اناس بذلوا سني حياتهم في جمع حقائقه مثل مؤلفات المخترعين والمكتشفين العظام فهذه لا تستغني امة من امم الارض عن ترجمتها

وقد يتبادر الى الذهن ان الترجمة أو التلخيص من أسهل ضروب الكتابة لانها انما تحتاج الى معرفة لغة أو أكثر من لغات اوربا وذلك ميسور لسائر أبناء هذا القرن . فمن توهم ذلك فقد ارتكب خطأ فاحشاً لان المترجم لا يحسن الترجمة الا اذا كان ملماً بالموضوع الذي يختار الترجمة فيه والا فترجمته فاسدة قلما تأني بفائدة وقد تضر . نعم ان الترجمة لا تحتاج الى بحث أو تنقيب ولكنها تحتاج الى تدبر وحسن اختيار ليكون ما ترجمه موافقاً لاذواق القراء مثقفاً لعقولهم ومهذباً لآخلاقهم مع اللذة والفائدة فقد يقرأ أحدنا كتاباً في بعض اللغات الافرنجية فيلتذ لمطالعة أو يتوهم النفع منه فيعمد الى نقله وطبعه ونشره فاذا ظهر في عالم المطبوعات لم يجد من يقرأه فينقم على العلم ويرمي القراء بالجهل ويزعم انه أراد خدمتهم فلم يقدرُوا اتباعه حق قدرها ولعل هذا هو السبب فيما ينسبه بعض الكتاب الى أبناء هذا الجيل من الانغماس في الجهل والنقاعد عن المظالمات وعندنا ان القراء عديدون والاقبال على الكتب كثير ولكن الخطأ من الكتاب لانه لم يحسن الاختيار

والكتب التي قد يراد ترجمتها اما ان تكون طبيعية أو أدبية (فالكتب الطبيعية) كثيرة في لغات الافرنج ومعظمها من خيرة المؤلفات واكثرها فائدة ولكن بعضها لو نقل الى اللسان العربي لم يبلغ عدد قرائه بضع عشرات كما لو أراد أحدنا ترجمة مؤلفات العلامة داروين الفيلسوف الطبيعي الشهير فانها في المنزلة الاولى بين الكتب الطبيعية ولكن مترجمها لا يجني من اتباعه الا خسارة الوقت والمال معاً لا لجهل القراء قدرها ولكن مواضعها عويصة لا يدركها الا المتبحر في الفلسفة الطبيعية والتاريخ الطبيعي والطب وغيره وقل أن يكون بيننا من اتقن هذه العلوم الا وهو يحسن لغة أو أكثر من لغات الافرنج فيفضل مطالعة هذه الكتب فيها لان الانشاء في لغة طلاوة يخسرها بالترجمة الى لغة اخرى وقس على ذلك مؤلفات كثيرين من العلماء الطبيعيين في سائر لغات اوربا . فاذا عزم أحد كتابنا على ترجمة شيء من هذه

الكتب الى العربية فليختر أصغرها حجماً وأسهلها تناولاً لان قراءه اكثرهم من عامة الناس لا من علماءهم وهكذا فعل استاذنا المرحوم الدكتور فانديك في كتابه «النقش في الحجر» فقد لخصه في شيخوخته بعد طول اختباره وبحثه في كتب افرنجية في تسعة أجزاء صغيرة جعل كلا منها في علم على اسلوب تفهمه العامة وترضى به الخاصة وقد وجد بالتجربة والاختبار انه أفضل كتاب في بابه

وقد يعترض بعضهم بان الاختصار على هذه المؤلفات الصغيرة لا يؤمل معه وصول لغتنا الى ما وصلت اليه لغات أوربا من الغنى بالعلم فالجواب على ذلك أن لغتنا من هذا القبيل لا تزال بمنزلة الطفل عند أول فطامه لا تقوى معدته على هضم الاطعمة الضخمة وان كانت كثيرة الغذاء فهل تطعم طفلك رطلاً من اللحم أو دجاجة أو سمكة لكثرة غذائها أم تعتبر قوة معدته على الهضم فلا تطعمه الا اللبن او المرق أو نحوه فاذا اشتد ساعده وقويت معدته تدرجت في تغذيته شيئاً فشيئاً . وهذا هو شأن اللغة العربية والعلوم الطبيعية فان اللغة لا تزال في أول فطامها وهي في حاجة الى المؤلفات الصغيرة السهلة فاذا تتقف أهلها وتعلموا تدرجوا في نقل الكتب العالية . ولا يرحى ذلك الا بتعليم هذه العلوم مطولة بالمدارس العالية في اللغة العربية فيخرج الشبان وقد استوعبوا هذه العلوم وأصبحوا قادرين على فهم العويص منها كما كانت تفعل المدرسة الكلية السورية ببيروت منذ بضع عشرة سنة فقد كانت تعلم هذه العلوم فيها باللغة العربية وكانت تعقد الاجتماعات العلمية في قاعاتها يتباحث فيها التلامذة في العلوم على أنواعها وليس بين تلامذة هذه المدرسة ممن تخرجوا فيها قبل هذا التاريخ الا من يستوعب أي كتاب علمي قرأه في اللغة العربية ولو كان عويصاً واذا تدبرت ما ألف من هذه الفنون في لغتنا لرأيت من آثار تلك الايام ونرى من الجهة الاخرى ان المؤلفات الطبية والطبيعية المطبوعة في سوريا باللغة العربية قبل خمسة عشر عاماً انما هي من تأليف اساتذة تلك المدرسة أو بعض تلامذتهم . ولكننا بملء الاسف نقول انها عدلت عن هذه الخطأ منذ بضع عشرة سنة فاصبح تلامذتها من ذلك الحين يخرجون منها وعلومهم في صدورهم قلما يستطيعون نشرها بين اصحابهم بلسانهم فهم بالطبع لا يستطيعون الكتابة فيها نعم انهم اذا قرأوا كتاباً علمياً في العربية فهموه واسكن من يكتب لهم تلك الكتب وهم الذين يرجي منهم التأليف فيها . فتعلم العلوم الطبيعية في المدرسة الكلية باللغة الانكليزية قد أضرَّ باللغة العربية ضرراً بليغاً .

ولا نستثنى من هذا اللوم المدارس الاخرى العالية كمدرسة الآباء اليسوعيين فانهم على رغبتهم في نشر آداب اللغة العربية نراهم قد أغفلوا أمر العلوم الطبيعية فيها أما مصر فقد سبقت سوريا وغيرها من البلاد العربية الى ترجمة الكتب الطبيعية وأول من سعى في ذلك المغفور له محمد علي باشا فكان يأمر بترجمة الكتب العلمية من الفرنسية أو الإيطالية ثم يطبعها على نفقته وقد اقتدى به خلفاؤه على الأريكة الخديوية فنقلوا كتباً مطولة في الطب وفروعه والتاريخ الطبيعي والكيمياء كانت معتمد أهل اللسان العربي في دراسة هذه العلوم بسائر بلاد المشرق وما زالت المؤلفات تتكاثر في هذه الفنون الى زمن الثورة العراقية فزهت مصر بالكتاب والخطباء وأرباب الأقلام حتى اذا كان الاحتلال الانكليزي انصرفت العناية الى نشر اللغة الانكليزية في وادي النيل وكانت العلوم الطبيعية وغيرها تعلم بالمدارس الاميرية باللغة العربية ففي حوالي سنة ١٨٩٠ قررت نظارة المعارف العمومية ان لا تعلم تلك العلوم الا باحدى اللغتين الانكليزية أو الفرنسية وهما تعلمان في المدارس الاميرية

ومن الاسباب التي بنوا عليها العدول عن تعليم العلوم بالعربية واستبدالها بالفرنسية ثلاثة (١) ان تعليم تلك العلوم بلغة اجنبية يساعد التلامذة على اتقان تلك اللغة والتمكن من اساليب التعبير فيها (٢) ان اللغة العربية فقيرة بالمؤلفات الوافية لتعليم هذه العلوم (٣) ان ليس بين أساتذة هذه العلوم الوطنيين أناس فيهم الكفاءة لتعليمها . وهي اسباب ضعيفة لا يصح التعلل بها في امانة اللغة العربية واستبدالها بلغة أخرى . نعم ان تعليم العلوم في لغة يساعد على اتقانها ولكن ذلك محصور في مصطلحات ذلك العلم فمن تعلم الكيمياء بالانكليزية اكتسب الالفاظ الانكليزية المصطلح عليها عند الانكليز للتعبير عن المسميات الكيميائية فقط وكذلك من يدرس الطبيعيات أو غيرها لان لكل علم من العلوم اسلوباً من التعبير خاصاً به وهو ما نسميه (اللغة العلمية) وهذه هي الحال في العربية أيضاً فان الذي لا يدرس العلوم الطبيعية في العربية لا يفهم اصطلاحاتها فيها ولو كان عالماً في قواعد اللغة ومباني الفاظها فكانت نظارة المعارف تسعى في امانة اللغة العربية العلمية وبعبارة أخرى في امانة العلم بين أهل اللسان العربي لان تلامذة هذه الايام يخرجون من المدرسة ولغتهم العلمية انكليزية أو فرنسية فاذا أرادوا التعبير عن حقيقة علمية أو كتابتها بالعربية لم يستطيعوا ذلك

الا بالجهد والتكلف وبعكس ذلك لو تعلموا العلوم بالعربية فانهم يستطيعون التأليف وانشاء الخطب ومحادثة الناس فيها بكل سهولة فيكونون شموساً تنبعت أشعة علومهم الى كل الانحاء . أما اتقان اللغات الاجنبية فيستدرك بمطالعة كتب أخرى بمواضيع أخرى أو مطالعة مطولات العلوم التي درسوا مختصرها في الكتب العربية فيحصلون بذلك على فائدتين معاً وهما اكتساب اللغة والتوسع في العلم . أما قولهم ان اللغة العربية فقيرة بالمؤلفات الواقية بتعليم هذه العلوم فهو سبب ضعيف جداً لعلنا ان في اللغة العربية كتباً تكفي لهذا الغرض الآن وهب أنها غير موجودة في امكان النظارة تأليفها بسهولة

وأما تعليم هذه العلوم في لغات أجنبية فمن أصعب الامور وخصوصاً على التلامذة المبتدئين لأنهم لا يكادون يفهمون هذه العلوم بلسانهم فكيف يفهمونها بلغة أخرى فضياع الوقت في تفهيمهم لغة العلم تكفي لتعليمهم علماً آخر فضلاً عما للغة من التأثير على أذهان اصحابها . وأما قولهم بعدم كفاءة المعلمين فهذا أضعف الحجج لان بين ظهرانينا علماء مبرزين في العلوم الطبيعية على أنواعها مما لا يحباه أحد

ومن أغرب ما سمعناه في توار يخ الاعم أن يعلم الناس ابناءهم تاريخ بلادهم بلغة أجنبية ولم تفقه الحكمة في ذلك ولا نظن رجال المعارف يجهلون تأثيره على مستقبل اللغة العربية فما أتينا بعد أن سرنا في النهضة العربية شوطاً بعيداً عدنا فوقفنا هنيهة كأن عجالات مركبتنا عثرت بالاحتلال الانكليزي فوقفت

فلو كانت المدارس العالية بمصر والشام تعلم العلوم الطبيعية مطولة باللغة العربية لنشأ رجال الحيل العالم وقد تثقت عقولهم بالعلوم المصرية بلسانهم فينبغ منهم جماعة يترجمون مطولات هذه العلوم فيجدون بين أبناء بلادهم من يقدر أعمالهم حق قدرها فتروج سوق العلم ويكثر المؤلفون والمصنفون وتعدد المؤلفات وينبغ بيتنا المخترعون والمكتشفون أما الآن فنقل مطولات العلوم الى لساننا لا يأتي بفائدة

أما (الكتب الادبية) فهي اكثر عدداً وأوسع دائرة من تلك ولكن نصيب بعضها من اقبال القراء نصيب الكتب الطبيعية التي أشرنا اليها وخصوصاً الكتب الفلسفية الحديثة كفلسفة سبنسر وشوبنهاور وهرشل وغيرهم

ومن هذا القبيل الكتب الفلسفية القضائية مثل كتاب روح الشرائع لمونتسكيو واصول الشرائع لبنتام وغيرها فانها بدیعة في بابها على انها اذا ترجمت قد تلاقى اقبالاً

لان طلابها اكثرهم من المحامين وهم في الغالب من المثقفين المتعلمين ولكن معظم يحسنون اللغات الافرنجية فيفضلون مطالعة هذه الكتب فيها . وقس على ذلك كثير من الكتب الادبية العالية والسبب في ذلك تقاعد مدارسنا عن تعليم هذه العلوم مطولة واذا فعلت ذلك فانها تختار كتباً أعجبية كما قدمنا . على ان هناك مؤلفات كثيرة في علوم حديثة نحث المدارس على تعليمها وتقدم الى كتابنا أن ينقلوها الى لساننا لاتا في حاجة اليها ككتب الاقتصاد السياسي وعلم العمران (السوسولوجيا) والتربية وعلم الرياضة البدنية (الجيمناز) وتدير المنزل وآداب السلوك وغيرها فان المتقول منها الى لساننا قليل جداً بالنسبة الى ما اذخره علماء الافرنج من جواهرها في لسانهم ومن هذا القليل الكتب التهذيبية ككتاب سر النجاح الذي ترجمه العلامة الدكتور يعقوب صروف بايعاز استاذنا المرحوم الدكتور قانديك فانه كتاب جليل لا ريب عندنا في أنه أثر تأثيراً كبيراً في انهاض همم الذين طالعوه لانه حاثٌ على الاجتهاد والمثابرة على العمل والاعتماد على النفس مما لا يستغنى عنه في مثل حال شبابتنا اليوم

ومن أنفس كتب الادب التي لا تزال اللغة العربية مفتقرة اليها منظومات فطاحل شعراء الافرنج قديماً وحديثاً وفي مقدمتهم امام الشعراء واستاذهم وشيخهم هوميروس اليوناني الشهير ومن جاء بعده من شعراء اليونان والرومان والاطالين والامان والفرنساويين والانكليز وغيرهم . أما هوميروس فقد نظم في العربية صديقنا العالم الفاضل سليمان اقصي البستاني . ولكن هناك عدداً كبيراً من نوابغ شعراء الافرنج لا تزال أشعارهم محجوبة عنا منهم فرجيل وهوراس الرومانيان ودانتي وطاسو الايطاليان وغوتي وشيلر الالمانيان وشكسبير وميلتون ويرون وتيسون وغيرهم من شعراء الانكليز وفكتور هيكو ومولير وراسين وبوالو من الفرنسيين وغيرهم فترجمة اشعار مثل هؤلاء الى العربية يكسبها رونقاً وجمالاً لانها تكتسب بذلك آثار عقول اكبر ادياء العالم بما تتضمنه من فنون الشعر وبدائع الماني فضلاً عن معرفة أخلاق الامم وعوائدهم وأطوارهم على اختلاف الازمنة والاصقاع

ومن الكتب الادبية التي لا غنى لنا عن ترجمتها التواريخ القديمة التي كتبها اليونان والرومان وغيرهم ولا بد لمطالع التاريخ من معرفتها مثل تاريخ هيرودوتس الرحالة الشهير وتاريخ يوسفوس وديودوروس وزينوفون وبلينيوس واسترابون وغيرهم وكذلك التواريخ الحديثة التي وضعها بعض الافرنج عن الامم الشرقية القديمة بعد

البحث في آثارهم وبقاياهم كتاريخ ماسيرو وماريت وسائيس ورايت وغيرهم عن المصريين أو الاشوريين أو الفينيقيين أو الحثيين أو من عاصروهم ويدخل تحت هذا الباب أيضاً الرحلات الجغرافية وما جرى مجراها

ناهيك عن ترجمة الكتب التعليمية المدرسية لتعليم اللغات كلقواميس وكتب النحو وغيرها وهي أساسية في هذا الباب لأنها تساعد على درس اللغات وفهم دقائقها فتساعد على الترجمة عموماً ولكن يجب التدقيق في وضع الالفاظ العربية الصحيحة ازاء ما يقابلها من الالفاظ الافرنجية لان بين الكتب التعليمية التي تعلم الان في المدارس الاميرية وغيرها كتباً سقيمة التركيب عامية الالفاظ ليست من اللغة العربية في شيء فقل هذه الكتب مفسدة للملكة اللسان العربي لأنها تفسد في اذهان التلامذة ركاكة التعبير فتوجه انظار مؤلفيها الى ذلك

وهناك قسم كبير من الكتب التعليمية لنا مجال واسع للكلام فيها نغني بها الروايات . فالروايات في اللغات الافرنجية تعدُّ بمئات الالوف وقراؤها أكثر عدداً من قراء سائر الكتب ولذلك فان مترجميها عديدون وفي ترجمتها فوائد أدبية عظيمة هذا اذا أحسن المترجمون اختيارها فانتقوا منها ما ينطبق على شروط الآداب الشرقية وقد كنا في بدء اشتغالنا بالعلم منقطعين الى العلوم الطبيعية لاعتقادنا انها أساسية في أعمال انبشر مع افتقار النمدن الحديث اليها ولأنها مصدر اختراعاته واكتشافاته وكنا نظن مطالعة الروايات وغيرها من الكتب الادبية لا فائدة منها سوى ضياع الوقت عبثاً ولكننا وجدنا بعد البحث والتجربة ان الانسان كثير الافتقار الى العلوم الادبية لتثفيف عقله وترقية عواطفه وتهذيب اخلاقه وتوسيع دائرة اختباره

والروايات الادبية أحسن وسيلة لبث تلك المبادئ على اسلوب يؤثر في النفس فتمثل بها الاخلاق الحسنة مع الحث على التمسك بها والاقتراء باصحابها . ونذكر اننا طالعنا في حدائنا رواية صغيرة الحجم منقولة الى العربية اسمها « رواية جنيف » تمثلت فيها الفضيلة والعفة أحسن تمثيل ولا نذكر كتاباً أثر على عواطفنا مثل هذا التأثير فقد قرأناها ودموعنا تتساقط لما أودعه فيها المؤلف من الحوادث المعربة عما ينتاب محبي الفضيلة احياناً من مساعي أهل البغي والفساد وقد مضى زهاء خمس وعشرين سنة منذ قرأناها ولا تزال حوادثها نصب أعيننا ولم نسمع أحداً قرأها ولم تؤثر فيه مثل هذا التأثير . فنقل مثل هذه الرواية الى العربية خدمة جليلة لابنائنا

ولكن من موجبات الاسف ان بعض مترجمي الروايات عندنا قلما يلتفتون الى موضوع الرواية ومنزلتها من الادب فيترجمون أقاصيص ينجل الشاب من مطالعتها فضلاً عن العذراء . وما نذكره من هذا القليل رواية اسمها (الانتقام العادل) أهديت الينا للتقريظ منذ بضع سنين فلم نقرأ بعضها حتى طوبيناها آسفين على ما انفقه مؤلفها من الوقت في تأليفها وسبك عباراتها لما حوته من الحوادث المخجلة . ناهيك عن روايات كثيرة مفسدة للاخلاق مضرّة بالهيئة الاجتماعية وفي ترجمتها خسارة كبرى

والروايات أنواع كثيرة منها التاريخية والعلمية والفكاهية والاخلاقية وغيرها تبعاً لما يراد تعليقه في ذهن القارئ من التاريخ أو العلم أو الآداب أو الاخلاق ولكل منها فائدة في بابها وكلها جديرة بالترجمة على شرط خلوها مما يفسد الاخلاق . وما نوجه الالتفات اليه أمور نستغرب وقوعها من بعض المترجمين فقد رأينا بعضهم يترجم الرواية وينتقلها لنفسه ويذكر في أولها أنها تأليفه وقد تكون مشهورة في اللغة التي كتبت فيها ورأينا بعضهم يتفنن في الأنحال فيغير أسماء أشخاص الرواية من المصطلحات الافرنجية الى المسميات العربية فيبدل هزيباً بسعدى والفونس بسليم ويبدل مدينة ليون ببيروت وباريس بالاسكندرية أو نحو ذلك مع بقاء الحوادث على حالها فتصير آية في الغرابة والاختلال لان الحادث الذي كان بين ليون وباريس أصبح بين بيروت والاسكندرية وقد تكون المدينة في أصل الرواية برية فيجعلها المترجم بحرية أو بالعكس فترى بطل الرواية أبحر من ميناء بيروت صباحاً فبلغت به السفينة بعد ساعتين الى ميناء حلب (مثلاً) وفي ذلك من جهل الجغرافيا ما فيه فضلاً عن الاتحال فمثل هؤلاء المترجمين يشكرون لرغبتهم في الترجمة ولا يهتمون بلاموت على الاتحال ويؤخذون لجهلهم بواقع البلاد والتميز بين ساحلها وبرها

وقد جرت عادة بعض مترجمي الروايات ان يعترفوا بترجمة الرواية ويففلوا اسم المؤلف الاصلى وقد فرط ذلك أيضاً من مترجمي بعض روايات الهلال وقاتنا اصلاحه ولكنه شائع بين كثيرين من المترجمين وفيه بخس لحقوق المؤلفين

وما علمناه بالاختبار ان الروايات اكثر الكتب زواجاً وخصوصاً التاريخية منها فمن يترجم رواية ويحسن اختيار موضوعها ويسبكها في قالب عربي سهل لا ريب عندنا في أنه يلاقي اقبالا ورواجاً وعليه أن براعي الشروط الآتية (١) ان

يختار من الروايات ما يوافق أذواق المشاركة وأخلاقهم (٢) أن تكون خالية من كل ما ينجل القراء أو يفسد أخلاقهم فإذا قرأتها العذراء لا تنجل من حوادثها (٣) أن تكتب بلغة طبيعية سهلة بلا تكلف ولا تقعر فإن الالفاظ اللغوية أجدر بالمقامات وكتب اللغة منها بالروايات التي يقرأها الناس في ساعات الفراغ لترويض أذهانهم من عناء الاشغال لا لمراجعة القواميس وحل رموز الفاظها (٤) أن تباع بثمن معتدل ليستطيع اقتناءها كل قارئ فقيراً كان أو غنياً

ومن أغرب ما رأيناه بين المترجمين والمؤلفين أيضاً أنهم إذا ترجموا رواية أو ألفوا كتاباً اذاعوا خبره قبل نجاز تأليفه وفتحوا فيه باباً للاشتراك وعينوا ثمن النسخة قل عشرة قروش قبل الطبع و ١٥ بعده فقد يشترك بعض الناس حياءً من كثرة التشويق والناس لم ينفروا من الاشتراك الا لكثرة ما قرأوه من الاعلانات عن قرب صدور كتب ثم لم يروها صدرت قط . فإذا جمع صاحبنا قدرأ لم يره كافياً لتفقات الطبع عدل عن طبع كتابه وقل أن يرد الدراهم لاصحابها . ولكننا نفرض أنه نحمل نفقات الطبع وأصدر الكتاب فيوزع منه جانباً بين مشتركيه ويعرض ما بقي للبيع فيرى الثمن الذي ضربه كبيراً بالنسبة الى حجم الكتاب ونفقاته فيجعله عشرة قروش مثلاً ثم لا يرى رواجاً لسبب ربما كان متصلاً بموضوع الرواية أو لغتها أو غلاظتها فيجعله خمسة وقد يصل الى قرشين أو ثلاثة وهو بحسب نفسه مضطراً الى ذلك لانه لو لم يفعله لم يبع شيئاً من الكتاب فبعد ان يظن المشترك نفسه راجحاً بالاشتراك يرى أنه كان خاسراً فيقسم أن لا يشترك في كتاب قبل صدوره ولا حين صدوره بل ينتظر هبوط ثمنه وهذا هو سبب فشل بعض المؤلفين أو المترجمين عادة والحق في ذلك على الكتاب وليس على القراء فلو راعى الكتّاب الشروط التي قدمناها لراجت كتبهم رواجاً حسناً

فهرس الجزء الاول

صفحة	صفحة
٩٧ البورصة والقمار او القمار البورصة	٣ مقدمة
١٠٣ القول والعمل	٥ ترجمة صاحب الكتاب
١٠٨ الاحسان دين على الانسان	القسم الاول
١١١ عبثة الوجهاء في مصر	الاخلاقيات والحكميات
١١٧ حقيقة الانسان وراء ثلاثة استار	١٧ الاخلاق الراقية - حاجتنا الكبرى
١٢١ المجاملة من آفات الهيئة الاجتماعية	٢٤ المرأة باخلاقه لا بذكائه
القسم الثاني	٢٦ الانسان - إما صادق وإما ساقط
المرأة والحب والزواج	٢٩ الصدق سيد الاخلاق
١٢٥ الامة نسيج الامهات	٣٣ الجرأة الادبية او الجرأة في الرأي
١٣٠ كيف نصنع الاخلاق	٤١ الصراحة في القول عنوان الاخلاق
١٣٦ الغنى والسعادة والمرأة	الراقية
١٤٠ المرأة الشرقية امس واليوم	٤٦ حربة القول عنوان ارتقاء الامة
١٤٦ الحب اختياري ام اضطراري	٤٩ الحاسة الاجتماعية او سلامة الذوق
١٤٩ ما هو الحب	٥٥ طبقات العقول او التديرسيد القوى
١٥١ الحب الجنسي وفراسة الوجه	العاقلة
١٥٥ المرأة العربية قبل الحجاب وبعده	٦٤ فتن عن المعدة لانها بيت الداء
١٦٩ الجملة والسكنة	٦٩ اعقل الناس اعذرهم للناس
١٧١ الزواج بالمراسلة	٧٢ العفاف سياج العمران
١٧٤ امتهان السيدات واستبدادهن	٧٤ احفظ شبابك والكهولة تحفظ نفسها
١٧٨ شبان اليوم	٧٦ الفراغ مفسدة - كلمة للشبان والشابات
١٨٠ الفتاة الشرقية في هذا العصر	٨٦ سوء التفاهم اصل التخاصم
١٨٤ الشاب الشرقي » »	٨٨ شقاء الاغنياء
١٨٨ الكهل العزب » »	٩٠ الاعتراف بالخطأ صواب والاعتراف
	بالمعجز قوة

فهرس الجزء الثاني

صفحة	صفحة
٧٨ الجمهورية وسائر ضروب الحكومة	١ القسم الثالث
٨٥ الاجتماعية والاشتراكية	فلسفة التاريخ والاجتماع
١٠٣ العمال واصحاب المال	٣ الحقائق والافهام او الجواهر
١١٠ تاريخ الاحزاب السياسية	والاعراض
١١٩ الحرب - هل تبطل من الارض	٩ لا يصح غير الصحيح ولا يبقى الا
١٢٦ هل يسود السلام على هذه الارض	الانساب
١٣٣ اسباب الحروب الظاهرة والحقيقية	١٤ جامعة المتفعة مرجع سائر الجامعات
١٣٧ كتاب الامير او مكيايلي وابن خلدون	١٩ حب الشهرة من دعائم العمران
١٤٥ الجاذبية وحب الذات	٢٢ وتر الدين حساس
١٥٠ الحب والجاذبية	٢٧ بالضغط والمقاومة تظهر القوى
١٥٦ مجاري الطبيعة كالتقضاء المبرم	الكامنة
١٦٣ وجود الخالق	٣١ العوامل الخفية في الهيئة الاجتماعية
١٧٠ هل في الوجود عالم آخر	٣٦ اقصى امانى الانسان
١٩٧ مذهب الماديين كما يرويه الماديون	٤٢ نظام الاجتماع وهل يمكن قلبه
انفسهم	٤٩ آجال الدول
٢٠٢ هل الانسان شخصان ؟	٧٣ الحكومة الدستورية وسائر انواع
٢٠٦ طبيعة الانسان للاخير او للشر	الحكومة

فهرس الجزء الثالث

صفحة	صفحة
٧٣ الشجاعة في الحرب	القسم الرابع
٧٧ ثبات الامم في الدفاع	مقالات عمرانية وتهديبية
٨٣ هل السوربون عرب او ما هم ؟	٣ علوم وكفى - ان كل الصيد في
٨٩ السوربون وتجنسهم بالجنسية الاميركي	جوف الفرا
٩٧ السوربون في مصر	٧ هذبوا ابناءكم وهم اطفال
١٠٠ العرب والترك	١١ التعليم الالزامي والتعليم المجاني
القسم الخامس	١٧ جامعة او كلية
في اللغة والادب والصحافة	٢٢ ما هو الاستقلال الحقيقي
١٠٥ الاكاديمية العربية	٢٧ بنات الشوارع - الخطر على الشبية
١١٢ حرية الصحافة في انكلترا ومصر	المصرية
١٢١ الجرائد وواجباتها وآدابها	٣٣ آفات التمدن الحديث
١٢٩ التأليف في اللغة العربية	٣٧ الانتحار الحاد والمزمن
١٣٥ اللغة العربية الفصحى واللغة العامية	٤٢ المسكر والهيئة الاجتماعية
١٣٨ اللغة العربية والتعليم في مصر	٤٥ الجامعة او العصية والجامعة الاسلامية
١٤٣ كتاب العربية وقراؤها	٥٢ نظام الاجتماع في فرنسا
	٦٤ نظام الاجتماع في انكلترا

